

ول ڈائریئل دیورانت

قصہ الخطارۃ

سنتا بسبب
الشیوٹ الیڈن



قصصنا

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

نشأة الحضارة

ترجمة
الدكتور زكي نجيب محمود

تقديم
الدكتور محيي الدين صابر

الجزء الأول من المجلد الأول

١



تونس



بيروت

يَسُرُّ «دَارُ الْجِيلِ» أَنْ تَتَقَدَّمَ

قِصَّةُ الْحَضْرَةِ

فِي إِثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ جِزْءًا
ضَمَّنَ وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ مُجَلَّدًا
وَذَلِكَ بِالتَّعَاوُدِ مَعَ
الْمُنْظَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلتَّقَاتِ وَالْعُلُومِ.

حقوق الطبع محفوظة

١٩٨٨هـ - ١٤٠٨م

دار الحديث : ص.ب: ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨ - ٢٦٠٤٦٥ - تلس: ٢٣٤٤٠
العنوان البرقي: دار صيلا ب - بيروت - لبنان

فهرست

صفحة

الباب الأول : عوامل الحضارة	٣
الباب الثاني : العناصر الاقتصادية في الحضارة	٩
الفصل الأول : من الصيد إلى الحرث	١١
الفصل الثاني : أسس الصناعة	٢٢
الفصل الثالث : التنظيم الاقتصادي	٣١
الباب الثالث : العناصر السياسية في الحضارة	٣٩
الفصل الأول : أصول الحكومة	٣٩
الفصل الثاني : الدولة	٤٤
الفصل الثالث : القانون	٤٨
الفصل الرابع : الأسرة	٥٥
الباب الرابع : العناصر الخلقية في المدنية	٦٥
الفصل الأول : الزواج	٦٦
الفصل الثاني : أخلاق الجنس	٧٩
الفصل الثالث : الأخلاق الاجتماعية	٩٠
الفصل الرابع : الدين	٩٨
١ - مصادر الدين	٩٩
٢ - المعبودات الدينية	١٠٢
٣ - طرائق الدين	١١٠
الباب الخامس : العناصر العقلية في المدنية	١٢٢
الفصل الأول : الآداب	١٢٢
الفصل الثاني : العلم	١٣٤
الفصل الثالث : الفن	١٤٠

صفحة

الباب السادس : بدايات المدينة فيما قبل التاريخ

١٥٣	الفصل الأول : ثقافة العصر الحجري القديم
١٥٦	الفصل الثاني : أهل العصر الحجري القديم
١٦٣	الفصل الثالث : الفنون في العصر الحجري القديم
١٦٩	الفصل الرابع : ثقافة العصر الحجري الحديث
١٧٧	الفصل الخامس : مرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية
١٧٧	١ - ظهور المعادن
١٨١	٢ - الكتابة
١٨٥	٣ - المدن المفقودة
١٨٦	٤ - مهود المدينة
١٨٩	المراجع
١٩٨	فهرس الأعلام

تقديم

للأستاذ الدكتور محيي الدين صابر

ظَلَّت الثقافة العربية — منذ كانت ثقافة — انسابية، منفتحة على العالم انفتاحاً عضويًا ووظيفيًا. فهي من حيث مقوماتها ودورها الحضاري محكوم عليها بهذا التواصل، الذي يشهد به كل تاريخها المُشرق. وفي هذا الاطار، كانت الخطة التي قررتها ادارة الثقافة، بالأمانة العامة للجامعة العربية، منذ وقت مبكر، حين كان انشاؤها، أن تترجم الى اللغة العربية، الأمهات، في كل مجال من مجالات الفكر والفن؛ وكانت هناك هيئة من كبار المثقفين الذين تستشيرهم الادارة، تقوم على اختيار تلك الأمهات؛ وقد كان كتاب قصة الحضارة لمؤلفه وول ديورانت من الكتب التي اختيرت لترجمتها، وهذا الكتاب الجليل، يعتبر من الكتب القليلة، التي انصفت الحضارة العربية الاسلامية. فلقد اتسم كاتبه وول ديورانت بالروح الموضوعية، وبالمنهج العلمي، وبالالتزام الخلفي؛ وهو من الكتاب الغربيين القليلين الذين اعترفوا بفضل الحضارات الشرقية، وتأثيرها الكبير في الحضارة اليونانية واللاتينية، اللتين يعتبرهما المؤرخون، بداية الحضارة الانسانية؛ وأن الانسان، انما خلق مع الحضارة اليونانية. وأهملوا كل تلك الروائع الفكرية في الفلسفة وفي الهندسة والعمارة وفي الطب وفي الصناعة وفي القانون والادارة والاقتصاد، وفي الفنون

في مختلف أجناسها، كل ذلك جحدته الغرب وأهمله في محاولة لانكار الطبيعة السيالة للحضارة البشرية، ولتبادل الخبرات واتصال السعي الانساني. ومن هنا فقد كان لهذا الكتاب أهميته العلمية والتاريخية.

إلاً أن هذا الكتاب، من حيث تصوره ومنهجه، جديد في تناول التاريخ، كحركة متصلة، ويقدمه، في صورة تأليفية متكاملة، بما يعين على فهم فكري واضح لمسيرة التاريخ وللمعالم الحضارية وللمراحلها، جغرافياً وموضوعياً. فقد صنف التراث البشري، على هذا الأساس، في خمس مناطق، وبدأ أولاً بالتراث الشرقي، الذي ضم حضارات مصر والشرق الأدنى حتى وفاة الاسكندر، وفي الهند والصين واليابان الى العهد الحاضر، ثم بالتراث الكلاسيكي، وهو يشمل تاريخ الحضارة في اليونان، وروما، وفي الشرق الأدنى الذي كان تحت السيادة اليونانية والرومانية على التوالي، ثم عرض للتراث الوسيط، فذكر حضارة أوروبا الكاثوليكية والبروتستانتية، والافطاعية، والحضارة البيزنطية، والحضارة الاسلامية واليهودية في آسيا وافريقيا واسبانيا، انتهاء بالنهضة الايطالية. ثم استعرض التراث الأوروبي، متمثلاً في التاريخ الحضاري للدول الأوروبية، منذ الاصلاح البروتستانتى الى الثورة الفرنسية؛ وأنى عرضه بالتراث الحديث الذي تناول تاريخ الإختراعات المادية والفكرية، بما في ذلك السياسة والعلوم والفلسفة والدين والأخلاق والأدب والفنون في أوروبا، منذ تولي نابليون الحكم الى العصر الحاضر..

ويقول في مقدمته لهذا السفر الجليل، والدراسة الموسوعية المستوعبة، « انه بدأ بآسيا، ليس لأن آسيا، كانت مسرحاً لأقدم مدية معروفة وحسب، ولكن لأن تلك المدنات كونت البطانة والأساس للحضارة اليونانية والرومانية، التي ظن خطأ، السير هنري مين، انها المصدر الوحيد الذي استقى منه العصر الحديث، وسوف يدهشنا أن نعرف كم مخترعاً من ضروريات حياتنا، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي وكم مما لدينا من علوم وآداب، ومن فلسفة ودين يرتد الى مصر، والشرق.

وفي القرن العشرين، حيث تسرع السيادة الأوروبية الى الانهيار، فان الأمر يبدو وكأنه صراع شامل بين الشرق والغرب. وهنا نرى التعصب الأعمى الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ الحضاري للبشرية من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد؛ لم تعد غلطة علمية، بل كان اخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع، ونقصاً فاضحاً في ذكائنا. ان المستقبل يولي وجهه شطر المحيط الهادئ، فلا بد للعقل أن يتابع خطاه».

ولقد نقلت هذه الفقرة الطويلة، من مقدمة المؤلف لأهميتها، ولأنها تعبر عن اتجاهه الفكري، ومنهجه العلمي.

هذا، ولقد استعان المؤلف في كتابته عن الحضارة العربية، بما تيسر له من المراجع المترجمة الى اللغات الأوروبية، وهي مع قِلَّتِها، لا تسلم من الآفات، سواء من حيث اختيار تلك المراجع أو من حيث مستوى الترجمة التي تختلف من يد الى يد، ضيقاً، سعة، دقة وتصرفاً؛ ولقد كان حسن رأيه في هذه الحضارة، وسلامة اتجاهه نحوها، في كل حين، عصمة له من الآراء المألوفة التي يرددها الكاتبون في هذا المجال...

ولقد ألقى هذا الوضع مسؤولية كبيرة، على المترجمين العرب، الذين هم، في الوقت نفسه، من كبار الأساتذة والمثقفين، فعمدوا الى مراجعة النصوص، والى توثيقها، والى ردها الى أصولها، كما تصدوا بالتصحيح، لكل ما يبعد عن الحقيقة، فلم يكن هذا العمل في جوهره ترجمة من لغة الى لغة فحسب، ولكنه كان عملاً فكرياً مستقلاً، وتعاملاً بصيراً مع المادة تصحيحاً وتوضيحاً. ويكفي أن يكون بين هؤلاء الأستاذ الكبير الدكتور زكي نجيب محمود الفيلسوف العربي، والأستاذ محمد بدران، والدكتور عبد الحميد يونس، والأستاذ علي أدهم، والأستاذ فؤاد اندراوس، من أعلام الثقافة؛ الذين أدوا خدمة جليلة للفكر العربي، في تواصله مع الفكر العالمي.

وهكذا جاءت الترجمة العربية، مرجعاً أميناً موثقاً به، تقدم خدمة ثقافية حقيقية للقراء العرب، ويسدّ حاجة قائمة في هذا المجال، كما كان في أصله معيناً، على تقديم الحضارة العربية، بصورة عادلة الى القراء في العالم الخارجي...

ولم يكن لهذا المشروع الطموح أن يتحقق، لولا ايمان القائمين عليه باهدافه الثقافية والقومية، فلقد بدأ المشروع، في الادارة الثقافية في الأمانة العامة في الجامعة العربية مثل كثير من المشروعات الثقافية والتربوية، الى أن قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في عام ١٩٧٠، فألت إليها، كل الأجهزة الثقافية في الجامعة العربية، وفي مقدمتها، الادارة الثقافية، وانتقلت بذلك التزامات الادارة الثقافية، ونشاطها، الى المنظمة التي واصلت تمويل هذا المشروع والاتفاق على ترجمته. وقد صدر الكتاب في القاهرة، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر التي يتوجه إليها الشكر في هذا المقام، في طبعتها الأولى (١٩٦٥)، وقد صدر منها لغاية الآن اثنان واربعون جزءاً. وتقوم دار الجيل حالياً بطبعها في بيروت في واحد وعشرين مجلداً بالاتفاق مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم...

وفي هذا المجال، فاننا نجدد الشكر المستحق، لعلمائنا من كبار المثقفين والمفكرين الذين أشرفوا على نقل هذا الأثر الحضاري المتميز الى اللغة العربية؛ خدمة للتعاون العالمي في المجال الثقافي؛ واغناء للثقافة العربية، وعوناً للقارئ العربي.

والله، من وراء القصد مسؤول، أن ينفع به.

د. محيي الدين صابر

المدير العام

للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

١٩٨٨ = ١٤٠٨ هـ

كلمة العرب

هذا الكتاب هو بمثابة المقدمة لمجلد ضخيم وضعه «ول ديورانت» في «التراث الشرقى» والمجلد الضخم بدوره هو الجزء الأول من خمسة أجزاء — لم تصدر كلها بعد — أخذ الكاتب نفسه بإخراجه ليبسط فيها قصة الحضارة منذ فجر التاريخ إلى يومنا الحاضر .

وقد قمت مع الأستاذ محمد بدران مراقب الثقافة العامة بوزارة المعارف ، بترجمة المجلد الأول ، بتكليف من جامعة الدول العربية ، وسيصدر هذا المجلد فى الترجمة العربية فى خمسة أجزاء بالترتيب الآتى :

(١) نشأة الحضارة .

(٢) الشرق الأدنى :

(٣) الهند وجيرانها .

(٤) الصين .

(٥) اليابان .

وقد قام زميلى الأستاذ محمد بدران بترجمة الجزءين الثانى والرابع ، ووقت بترجمة الأجزاء الثلاثة الأخرى — وهذه الأجزاء الخمسة كلها تحت الطبع ، ونرجو أن يتم صدورهما بعد حين قصير ، حتى يتكامل بها عند القارئ العربى ترجمة المجلد الأول فى الأصل الإنجليزى ، وأدعو الله أن يهبى لنا ظروفًا مواتية من العافية والفراغ ،

- ح -

فننقل إلى العربية المجلدات الخمسة كلها ، ليكون في مكتبتنا صورة وافية
للحضارة الإنسانية في نشأتها وتطورها ، فرى كم نحن مدينون لأهم
غيرنا بأسباب المدنية ، وكم يدين لنا غيرنا .

ويسرنى أن أنتهز هذه الفرصة لأذكر فضل أستاذنا الجليل الدكتور
أحمد أمين بك في هذا العمل ، فباعثاره مشرفاً على النشاط الثقافى
بجامعة الدول العربية قرر أن يترجم هذا الكتاب ، وباعثاره رئيساً
للجنة التأليف والترجمة والنشر رأى أن يُنشر على الوجه الذى يرى القارئ :-
نسأل الله أن يهبنا فى عملنا التوفيق والسداد .

زكى نجيب محمود

أكتوبر ١٩٤٩

مقدمة المؤلف

حاولت في هذا^(١) الكتاب أن أنجز الجزء الأول من مهمة تبث السرور في نفسى ، كلفت بها نفسى منذ عشرين عاماً تقريباً تكليفاً دفعنى إليه التهور ، وهى أن أكتب تاريخاً للمدينة ، أردت فيه أن أروى أكثر ما يمكن من النبأ في أقل ما يمكن من الصفحات ، بحيث أقصّ في روايتى ما أدته العبقريّة وما أداه دأب العاملين في ازدياد تراث الإنسانية الثقافى — وأن تكون قصتى مصحوبة بتأملاتى في العلل ووصف الخصائص وما ترتب من نتائج لما أصابه الاختراع من خطوات التقدم ، ولأنواع النظم الاقتصادية ، وللتجارب في ألوان الحكم ، وما تعلقته به العقيدة الدينية من آمال ، وما اعتور أخلاق الناس ومواضعاتهم من تغيرات ، وما في الآداب من روائع ، وما أصابه العلم من رقى ، وما أنتجته الفلسفة من حكمة ، وما أبدعه الفن من آيات ؛ ولست بحاجة إلى من يذكرنى بأن هذا المشروع ضرب من الخجل ، ولا إلى من يذكرنى بأن مجرد تصور مثل هذا المشروع إمعان في غرور المرء بنفسه ؛ فلقد بينت في جلاء أنه ليس في استطاع عقل واحد أو حياة واحدة أن تقوم بهذه المهمة على الوجه الأوفى ، ورغم ذلك كله ؛ فقد خيَّلت لي الأحلام بأنه على الرغم من الأخطاء الكثيرة التى ليس عنها محيص في هذا المشروع ، فقد يكون نافعاً بعض النفع لأولئك الذين يرغمهم ميلهم الفلسفى على محاولتهم أن يروا الأشياء في كل واحد ، وأن يتابعوا التفصيلات في موضعها من صورة مجسدة واحدة ، فيروها متحلدة ويوقفوا إلى فهمها خلال الزمان في تطورها التاريخى ، وأن ينظروا إليها كذلك في المكان عن طريق العلم .

لقد أحسست منذ زمن طويل بأن طريقتنا المعتادة في كتابة التاريخ مجزأ

(١) الإشارة هنا إلى الجزء الأول في الأصل الإنجليزى ، وهو جزء سنخرجه في الترجمة للمربية في خمسة كتب . (المعرب)

أقساماً منفصلاً بعضها عن بعض ، يتناول كل قسم ناحية واحدة من نواحي الحياة فتاريخ اقتصادى ، وتاريخ سياسى ، وتاريخ دينى ، وتاريخ للفلسفة ، وتاريخ للأدب ، وتاريخ للعلوم ، وتاريخ للموسيقى . وتاريخ للفن - أحسست أن هذه الطريقة فيها لإجحاف بما فى الحياة الإنسانية من وحدة ، وأن التاريخ يجب أن يكتب عن كل هذه الجوانب مجتمعة ، كما يكتب عن كل منها منفرداً ، وأن يكتب على نحو تركيبى كما يكتب على نحو تحالى ، وأن علم تدوين التاريخ فى صورته المثلئ لا بد أن يهدف - فى كل فترة من فترات الزمن إلى تصوير مجموعة عناصر ثقافة الأمة مشتبكة بما فيها من مؤسسات ومغامرات وأساليب عيش ؛ لكن تراكم المعرفة قد شطر التاريخ - كما فعل بالعلم - إلى نواحي اختصاص تعدد بالمئات ، وجفل العلماء الحكماء من محاولة تصور الكل فى صورة واحدة - سواء فى ذلك العالم المادى أو ماضى البشرية الحى ، ذلك لأن احتمال الخطأ يزيد كلما اتسع نطاق المشروع الذى يأخذه الإنسان على نفسه ؛ وإن رجلاً كائناً من كان يبيع نفسه فى سبيل تكوين صورة مركبة تشمل الكل^٢ جملة واحدة ، لا بد أن يكون هدفاً يبعث على الأسى ، لما يصيبه من أوف السهام التى يوجهها نقد الإحصائيين إليه ؛ فتصبيه غير عابثة بجهده ؛ لقد قال فتاح حوتب منذ خمسة آلاف عام : « انظر كيف يمكن أن تتعرض لمناواة الحبراء فى المجلس ؛ إنه لمن الحمق أن تتحدث فى كل ضروب المعرفة » ؛ إن تاريخاً يكتب للمدينة لشبيهه فى جراته بالمحاولات الفلسفية كلها ؛ وذلك أنه يعرض علينا صورة تبعث على السخرية لجزء يشرح الكل الذى هو جزء منه ؛ ومثل هذه المغامرة لا تستند على سند من العقل ، كما هى الحال فى الفلسفة ، وهى مغامرة أحسن ما تكون حالاً أن تكون حماقة جريئة ؛ لكن ليكن أملنا أن تصيب ما تصيبه الفلسفة من توفيق فتستطيع دائماً أن تجذب إليها طائفة من النفوس المغامرة فتغوص فى أعماقها المميّنة .

ونخطة هذه السلسلة هى أن نروى تاريخ المدينة فى خمسة أجزاء مستقلة :

١- « تراثنا الشرقي » وهو تاريخ للمدنية في مصر والشرق الأدنى حتى وفاة الإسكندر ، وفي الهند والصين واليابان إلى يومنا الحاضر ، ويسبق ذلك مقدمة عن طبيعة العناصر التي تتألف منها المدنية^(١) :

٢- « تراثنا الكلاسيكي » وهو تاريخ المدنية في اليونان وروما والمدنية في الشرق الأدنى إذ هو تحت السيادة اليونانية والرومانية :

٣- « تراثنا الوسيط » وفيه أوروبا الكاثوليكية والإقطاعية والمدنية البيزنطية والثقافة الإسلامية والثقافة اليهودية في آسيا وأفريقيا وإسبانيا ، والنهضة الإيطالية .

٤- « تراثنا الأوروبي » وهو تاريخ ثقافي للدول الأوروبية من الإصلاح البروتستانتي إلى الثورة الفرنسية .

٥- « تراثنا الحديث » وفيه تاريخ الاختراع والسياسة والعلم والفلسفة والدين والأخلاق والأدب والفن في أوروبا منذ تولي نابليون الحكم إلى عصرنا الحاضر .

إن قصتنا تبدأ بالشرق ، لا لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنية معروفة لنا فحسب ، بل كذلك لأن تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التي ظن « سير هنري مين » خطأ أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث ، فسيدهشنا أن نعلم كم مخترعاً من أزرع مخترعاتنا لحماننا ، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي ومما لدنا من علوم وآداب ، وما لنا من فلسفة ودين ، يرتدُّ إلى مصر والشرق ، وفي هذه اللحظة التاريخية — حيث تسرع السيادة الأوروبية نحو الأنهار ، وحيث تنتعش آسيا مما يبعث فيها الحياة ، وحيث الاتجاه كله في القرن العشرين يبدو كأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب — في هذه اللحظة نرى أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان وتلخص آسيا كلها في سطر واحد ، لم يعد مجرد غلطة علمية ، بل ربما كان إخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع ونقصاً فاضحاً في ذكائنا ،

(١) هذا الكتاب يحتوي على المقدمة في الأصل الإنجليزي . (المعرب)

إن المستقبل يولى وجهه شطر المحيط الهادى ، فلا بد للعقل أن يتابع خطاه هناك :
لكن كيف يتاح لعقل غربى أن يفهم الشرق ؟ إن ثمانية أعوام قضيتها
فى الدراسة والسفر لم يكن من شأنها سوى أن توضح لى هذه الحقيقة
أيضاً - وهى أن العمر بأسره يخصص للبحث العلمى لن يكفى طالباً غربياً
ليدمج نفسه فى روح الشرق الدقيقة اللمحات وفى تراثه الغامض ؛ إن
كل فصل وكل فقرة فى هذا الكتاب ستقع موقع الإساءة أو موقع
الدعابة من نفس القارئ إن كان متحمساً لوطنه أو كان من أصحاب
النفوس الغوامض : فاليهودى المتمسك ببعيدته بحاجة إلى كل ما عرف
عنه من صبر قديم لكى يعفون عن الصفحات التى كتبت عن يهوا ؛ والهندوسى
الضارب فيما وواء الطبيعة سيرثى هذه الخدوش السطحية التى لمسنا بها الفلسفة
الهندية ؛ وسيضحك الحكيم الصينى أو اليابانى ملء شذقية من هذه المختارات
الموجزة المقتضبة اقتضاباً مخلاً ، التى اقتبسناها من ثروة الشرق الأقصى
الزائخة فى الأدب والفكر ؛ ولقد صحح الأستاذ هارى ولفسن فى جامعة
هارفرد بعض أخطاء الجزء الخاص بالدولة اليهودية ؛ وراجع « الدكتور
أناندا كوما راسواى » فى معهد الفنون الجميلة ببوسطن القسم الخاص
بالهند مراجعة بذل فيها أشق مجهود ، لكنه ليس بالطبع مستولاً عن
النتائج التى وصلت إليها ، أو الأخطاء التى مازالت باقية ؛ وتآزر
الأستاذ ه . ه . جـون المستشرق العلامة فى جامعة واشنطن ، مع أبطن
كلوز الذى لا ينفد علمه بالشرق فيما يظهر ، على تصحيح الأخطاء
المصارخة فى الفصول التى كتبت عن الصين واليابان ، وأفادنى مستر جورج
سوكولسكى فى الصفحات التى كتبت عن شؤون الشرق الأقصى فى أيامنا هذه
بما له من معرفة بتلك البلاد استمدتها منها مباشرة ؛ فإذا أقبل الجمهور على
الكتاب إقبالا يدعو إلى طبعة ثانية منه فسننتهز هذه الفرصة لندخل كل
ما عسانا نلقاه من تصحيحات يقترحها النقاد والإحصائيون والقراء ، على أن
المؤلف الذى أنهكه التعب يشاطر « تاي تنج » الذى نشر فى القرن الثالث عشر

كتابه عن « تاريخ الكتابة الصينية » حيث قال : « لو كنت لأنتظر الكمال ،
لما فرغت من كتابي إلى الأبد » (*) .

ولما كانت هذه الأيام التي ينحو فيها الناس إلى استخدام آذانهم ، لا تعمل
على شيوع الكتب الغالية تُكتب في موضوعات بعيدة لا تشوق إلا من
يعدون أنفسهم مواطنين للعالم كله ، فن الجائز أن تبطن سائر حلقات
هذه السلسلة في الظهور بفعل الضرورات القاسية التي تقتضيها الحياة
الاقتصادية ، أما إن أقبل الناس على هذه المغامرة التي حاولت بها جمع
العناصر كلها في مركب واحد ، إقبالا يمكنني من تكريس نفسي في غير
انقطاع لهذا المشروع ، فسيكون الجزء الثاني معداً في أواخر ١٩٤٠ ،
وستظهر الأجزاء التالية له - إن مُدَّت لي في العافية - على فترات ،
طول الواحدة منها خمس سنوات ؛ ولن يسعدني شيء بمقدار ما يسعدني أن
أنصرف بجهدي كله لهذا العمل فلا تشغلني شواغل أدبية أخرى ؛ وسأمضي
في العمل ما أسعفتني الزمن وما عاونتني الظروف ، راجياً أن يشيخ معي
عدد لا بأس به من معاصري في تحصيل العلم ، وأن يكون في هذه
الأجزاء بعض العون لأبنائنا على فهم الكنوز التي لا حد لها مما يرثونه
عن أسلافهم ، والاستمتاع بها :

ول ديورانت

مارس ١٩٢٥

(٥) ت . ف . كارتر ؛ « اختراع الطباعة في الصين و انتشارها صوب الغرب » ؛ طبع
في نيويورك ١٩٢٥ ، ص ١٨ من المقدمة .

نشأة الحضارة

« أحب أن أعلم الخطوات التي سارها
الإنسان في طريقه من الهجيرة إلى المعنوية »
فوليتير (١)

الباب الاول

عوامل الحضارة(*)

تعريف - العوامل الجيولوجية - والجغرافية - والاقتصادية
- الجنسية - والتفسيية - أسباب انحلال الحضارات

الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي ، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية ، والنظم السياسية ، والتقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم والفنون ؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق ، لأنه إذا ما أمِنَ الإنسان من الخوف ، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء ، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضى في طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها .

والحضارة مشروطة بطائفة من عوامل هي التي تستحث خطاها أو تعوق مسراها ، وأولها العوامل الجيولوجية ، ذلك أن الحضارة مرحلة تتوسط عصرين من جليد ، فتتار الجليد قد يعاود الأرض في أى وقت فيغمرها من جديد ، بحيث يطمس منشآت الإنسان بركام من ثلوج وأحجار ، ويحصر الحياة في نطاق ضيق من سطح هذه الأرض ؛ وشيطان الزلازل الذي نبني حواضرنا في غفوته ، ربما تحرك حركة خفيفة بكتفيه فانتلعنا في جوفه غير آبه .

وثانها العوامل الجغرافية ، فحرارة الأقطار الاستوائية وما يحتاج تلك الأقطار من طفيليات لا تقع تحت الحصر ، لا تهى للمدنية أسبابها ، فإيسود تلك الأقطار من نخول وأمراض ، وما تُعرف به من نضوج مبكر وانحلال

(*) سيجد القارئ في نهاية هذا الكتاب بياناً بالمراجع التي تشير إليها الأرقام التي يصادفها أثناء القراءة في أعالي الكلمات .

ومنستخدم في هذا الكتاب كالمى « مدنية » و « حضارة » بمعنى واحد . (المعرب)

مبكر ، من شأنه أن يصرف الجهود عن كماليات الحياة التي هي قوام المدينة ، ويستنفدها جميعاً في إشباع الجوع وعملية التناسل ، بحيث لا تَدْرُ للإنسان شيئاً من الجهد ينفقه في مدان الفنون وجمال التفكير ؛ والمطر كذلك عامل ضروري إذ الماء وسيلة الحياة ، بل قد يكون أهم للحياة من ضوء الشمس ، ولما كانت السماء متقلبة الأهواء لغير سبب مفهوم فقد بالجفاف على أقطار ازدهرت يوماً بالسلطان والعمران ، مثل لينوى وبابل ؛ أو قد تسرع الخطى نحو القوة والثراء ، بمدائن هي - فيما يبدو للعين - بعيدة عن الطريق الرئيسي للنقل والاتصال ، مثل المدن في بريطانيا العظمى أو خليج بيوجيت* (Puget Sound) وإذا كانت تربة الإقليم تجود بالطعام أو المعادن ، وإذا كانت أنهاره تهيء له طريقاً هينة للتبادل مع غيره ، وإذا كان شاطئه مليئاً بالمواضع التي تصلح مرافقاً طبيعية لأسطوله التجاري ، ثم إذا كانت الأمة فوق هذا كله تقع على الطريق الرئيسية للتجارة العالمية ، كما كانت حال أثينا وقرطاجنة وفلورنسة والبندقية - إذن فالعوامل الجغرافية على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدينة خلقاً ، إلا أنها تستطيع أن تبسّم في وجهها ، وتهيء سبيل ازدهارها .

والعوامل الاقتصادية أهم من ذلك ؛ فقد يكون لشعب مؤسسات اجتماعية منظمة ، وتشريع خلقي رفيع ، بل قد تزدهر فيه صغريات الفنون ، كما هي الحال مع الهنود الأمريكيين ، ومع ذلك فإنه إن ظلّ في مرحلة الصيّد البدائية ، واعتمد في وجوده على ما عسى أن يصادفه من قنائص ، فإنه يستحيل أن يتحول من البهيمجية إلى المدنية تحولا تاماً ؛ قد تكون قبيلة البدو - كبدو بلاد العرب - على درجة نادرة من الفتوة والذكاء ، وقد تبسدى من ألوان الخلق أسماها كالشجاعة والكرم والشهم ، لكن ذكاءها بغير الحد الأدنى من الثقافة الذي لا بد منه ، وبغير اطراد موارد القوت ، ستنفقه في مخاطر الصيد ومقتضيات

(*) خليج عرب الولايات المتحدة . (المغرب)

التجارة ، بحيث لا يبقى لها منه شيء لو شئى المدنية وهدأها وأطائفها وملحقاتها وفنونها وترفها ؛ وأول صورة تبدت فيها الثقافة هى الزراعة ، إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً ومبرراً إلا إذا استقر فى مكان يفلح تربته ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه ؛ فى هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة - وأعنى بها مورداً محققاً من ماء وطعام - ترى الإنسان يبنى لنفسه الدور والمعابد والمدارس ، ويخترع الآلات التى تعينه على الإنتاج ويستأنس الكلب والحمار والخنزير ، ثم يسيطر على نفسه آخر الأمر ، فيتعلم كيف يعمل فى نظام وإطراد ، ويحفظ بحياته أمدأ أطول ويزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلاً أميناً .

إن الثقافة لترتبط بالزراعة(*) كما ترتبط المدنىة بالمدينية ؛ إن المدنىة فى وجه من وجوها هى رقة المعاملة(**) ، ورقة المعاملة هى ذلك الضرب من السلوك المهنذب الذى هو فى رأى أهل المدن - وهم الذين صاغوا حكمة المدينة - من خصائص المدينة وحدها(+) ، ذلك لأنه تتجمع فى المدينة - حقا أو باطلا - ما ينتججه الريف من ثراء ومن نوابغ العقول ؛ وكذلك يعمل الاختراع وتعمل الصناعة على مضاعفة وسائل الراحة والترف والفراغ ؛ وفى المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع والأفكار ؛ وها هنا حيث تتلاقى طرق التجارة فتتلاقح العقول ، يُرْهَفُ الذكاء وتُسْتَنَارُ فيه قوته على العنسى والإبداع ، وكذلك فى المدينة يُسْتَعْنَى عن فئة من الناس فلا يُطْلَبُ إليهم صناعة الأشياء المادية ، فتراهم يتوفرون على إنتاج العلم والفلسفة والأدب والفن ؛ نعم إن المدنية تبدأ فى كوخ الفلاح ، لكنها لا تزدهر إلا فى المدن .

(*) يشير المؤلف هنا إلى الارتباط اللفظى بين الكلمتين فى الإنجليزية وها

Agriculture & Culture

(**) هنا كذلك بيان لعلاقة لفظية بين كلمتى Civilisation ومعناها مدنية ، وكلمة

Civility ، ومعناها رقة المعاملة . (المرب)

(+) كلمة مدينة حديثة الاستعمال نسيا ، فعل الرغم بما اقترحه « بوزول » على

« جونسن » لإدخالها فى قاموسه سنة ١٧٧٢ ، فقد رفض « جونسن » أن يدخلها ، وآثر

عليها الكلمة التى معناها « رقة المعاملة » Civility .

وليس تتوقف المدنية على جنس دون جنس ، فقد تظهر في هذه القارة أو تلك ، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرية أو ذاك ؛ قد نهض مدنيّة في بكين أو دلهي ، في ممفيس أو بابل ، في رافنا (†) أو لندن ، في پيرو أو يوقطان . فليس هو الجنس العظيم الذي يصنع المدنيّة بل المدنيّة العظيمة هي التي تخلق الشعب ، لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته ، والثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه . ليست المدنيّة البريطانية وليدة الرجل الإنجليزي ولكنه هو صنيعتها ، فإذا ما رأيتة يحملها معه أينما ذهب ويرتدى حلّة العشاء وهو في « تمبكتو » ؛ فليس معنى ذلك أنه يخلق مدنيّته هناك خلقاً جديداً ، بل معناه أنه يبيّن حتى في الأصقاع النائية مدى سلطانها على نفسه . فلو تهيأت لجنس بشري آخر نفس الظروف المادية ، ألفت النتائج نفسها تتولد عنها ، وها هي ذى اليابان في القرن العشرين تعيد تاريخ إنجلترا في القرن التاسع عشر ، وإذن فالمدنية لا ترتبط بالجنس إلا بمعنى واحد ، وهو أنها تجيء عادة بعد مرحلة يتم فيها التزاوج البيطري بين شتى العناصر ، ذلك التزاوج الذي ينتهي تدريجياً إلى تكوين شعب متجانس نسبياً (*).

وما هذه العوامل المادية والبيولوجية إلا شروط لازمة لنشأة المدنية ، لكن تلك العوامل نفسها لا تكون مدنيّة ولا تنشأ من عدم ، إذ لا بد أن يضاف إليها العوامل النفسية الدقيقة ، فلا بد أن يسود الناس نظامٌ سياسي مها يبلغ ذلك النظام من الضعف حداً يدنو به من القوضى ، كما كانت الحال في فلورنسة وروما أيام النهضة . ثم لا بد للناس أن يشعروا شيئاً فشيئاً أنه لا حاجة بهم إلى توقع الموت أو الضريبة عند كل منعطف في طريق حياتهم ، ولا مندوحة كذلك

(†) مدينة على الساحل في الشمال الشرق من إيطاليا . (المرعب)

(*) قد يؤثر الدم - لا الجنس - في المدنية بمعنى أن الأمة قد يعوقها أو يدهمها إل الأمام كونها تنشأ عن عناصر من الناس أدنى أو أعلى من سواها ، وإنما تكون تلك العناصر أدنى أو أعلى من الوجهة البيولوجية (لا الجنسية) .

عن وحدة لغوية إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار . ثم لا مندوحة أيضاً عن قانون خلقي يربط بينهم عن طريق الكنيسة أو الأسرة أو المدرسة أو غيرها ، حتى تكون هناك في لعبة الحياة قاعدة يراها اللاعبون ويعترف بها حتى الخارجون عليها ؛ وهذا يطرد سلوك الناس بعض الشيء وينتظم ، ويتخذ له هدفاً وحافزاً . وربما كان من الضروري كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق في العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بما هو كائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود ، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدنا قبل أن يخطفها الموت . وأخيراً لا بد من تربية - وأعني بها وسيلة تُتخذ - مهما تكن بدائية - لكي تنتقل الثقافة على مرّ الأجيال ، فلا بد أن نورث الناشئة تراث القبيلة وروحها ، فنورثهم نفعها ومعارفها وأخلاقها وتقاليدها وعلومها وقيمونها ، سواء كان ذلك التورث عن طريق التقليد أو التعليم أو التلقين ، وسواء في ذلك أن يكون المرثى هو الأب أو الأم أو المعلم أو القسيس ، لأن هذا التراث إن هو إلا الأداة الأساسية التي نحول هؤلاء النشء من مرحلة الحيوان إلى طور الإنسان .

ولو انعدمت هذه العوامل - بل ربما لو انعدم واحد منها - لحاز للمدينة أن يتقوض أساسها . فانقلاب جيولوجي خطير ، أو تغيير مناخي شديد ، أو وباء يفلت من الناس زمامه كالوباء الذي قضى على نصف سكان الإمبراطورية الرومانية في عهد « الأناطنة » (جمع أنطون) ، و « الموت الأسود » (*) الذي جاء عاملاً على زوال العهد الإقطاعي ، أو زوال الحصوية من الأرض ، أو فساد الزراعة بسبب طغيان الحواضر على الريف ، بحيث ينتهي الأمر إلى اعتماد الناس في أقواتهم على ما يرد إليهم متقطعاً من بلاد

(*) وباء تفشى في أوروبا في القرن الرابع عشر . (المغرب)

أخرى ، أو استنفاد الموارد الطبيعية في الوقود أو المواد الخام ، أو تقييد^١ في طرق التجارة تغيراً يُبعد أمة من الأمم عن الطريق الرئيسية لتجارة العالم ، أو انحلال^٢ عقلي أو خلقي ينشأ عن الحياة في الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات ، أو ينشأ عن تهدم القواعد التقليدية التي كان النظام الاجتماعي يقوم على أساسها ثم العجز عن إحلال غيرها مكانها أو انهيار قوة الأصلاب بسبب اضطراب الحياة الجنسية أو بسبب ما يسود الناس من فلسفة أبيقورية متشائمة أو فلسفة تحفزهم على ازدياد الكفاح ، أو ضعف الزعامة بسبب عقم يصيب الأكفاء وبسبب القلة النسبية في أفراد الأسرات التي كان في مقدورها أن تورث العخائف تراث الجماعة الفكرى كاملاً غير منقوص ، أو تركيز^٣ للثروة تركزاً مخزناً ينتهى بالناس إلى حرب الطبقات والثورات الهدامة والإفلاس المالى . هذه هى بعض الوسائل التي قد تؤدي إلى فناء المدينة ، إذ المدنية ليست شيئاً مجبولاً في فطرة الإنسان ، كلا ولا هى شيء يستعصى على الفناء ؛ إنما هى شيء لا بد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً ، فإذا ما حدث اضطراب خطير في عواملها الاقتصادية أو في طرائق انتقالها من جيل إلى جيل فقد يكون عاملاً على فنائها . إن الإنسان ليختلف عن الحيوان في شيء واحد ، وهو التربية ، ونقصد بها الوسيلة التي تنتقل بها المدينة من جيل إلى جيل :

والمدينيات المختلفة هى بمثابة الأجيال للنفس الإنسانية ، فكما ترتبط الأجيال المتعاقبة بعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها ثم بفضل الكتابة التي تنقل تراث الآباء للأبناء ، فكذلك الطباعة والتجارة وغيرهما من ألوف الوسائل التي تربط الصلات بين الناس ، قد تعمل على ربط الأواصر بين المدينيات وبذلك تصون للثقافات المقبلة كل ماله قيمة من عناصر مدينتنا ، فلنجمع تراثنا قبل أن يلحق بنا الموت ، لنسلمه إلى أبنائنا .

الباب الثاني

العناصر الاقتصادية في الحضارة (*)

« الهمجي » هو أيضاً متمدن بمعنى هام من معاني المدنية ، لأنه يُعنى بنقل تراث القبيلة إلى أبنائه — وما تراث القبيلة إلا مجموعة الأنظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية ، التي هذبها أثناء جهادها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الأرض والاستمتاع بتلك الحياة ، ومن المستحيل في هذا الصدد أن نلتزم حدود العلم ، لأننا حين نطلق على غيرنا من الناس اسم « الهمج » أو « المتوحشين » فقد لا نعبر بمثل هذه الألفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة ، بل نعبر بها عن حبنا العارم لأنفسنا لا أكثر ؛ وعن انقباض نفوسنا وانكماشها إذا ما ألقينا أنفسنا لزاء ضروب من السلوك تختلف عما ألفناه ؛ فلا شك أننا نبخس من قيمة هاتيك الشعوب الساذجة التي تستطيع أن نعلمنا كثيراً جداً من الجود وحسن الخلق ؛ فلو أننا أحصينا أسس المدنية ومقوماتها لوجدنا أن الأمم العُريانة قد أنشأتها أو أدركتها جميعاً إلا شيئاً واحداً ، ولم تترك لنا شيئاً نضيفه سوى تهذيب تلك الأسس والمقومات لو استثنينا فن الكتابة ، ومن يدرى فلعلمهم كذلك كانوا يوماً متحضرين ثم نفضوا عن أنفسهم تلك الحضارة لما لمسوه فيها من شقاء للنفس ؛ وعلى ذلك فينبغي أن نكون على حذر حين

(*) على الرغم من الاتجاه الحديث الذي يخالف رأينا مخالفة شديدة (١) فنستخدم كلمة « مدنية » أو « حضارة » في هذا الكتاب لتدل على النظام الاجتماعي والشرع الخلق والنشاط الثقافي ؛ ونستخدم كلمة « ثقافة » لتدل إما على ما يمارسه الناس فعلاً من أنواع السلوك وأنواع الفنون وإما على مجموع ما لدى الشعب من أنظمة اجتماعية وعادات وننون ، وسيدل السياق على أى المعنيين هو المقصود ؛ فإذا ما كانت الإشارة في الحديث إلى المجتمعات البدائية أو جماعات ما قبل التاريخ فإن المعنى لكلمة « ثقافة » هو المقصود .

تستعمل ألفاظا مثل « همجى » و « متوحش » في إشارتنا إلى « أسلافنا الذين يعاصروننا اليوم » ؛ ولقد آثرنا أن نستعمل كلمة « بدائى » لنبدل على كل القبائل التى لا تتخذ الحيطه ، أو لا تكاد تتخذها ، بحيث تدتخر القوت للأيام العجاف ، والتى لا تستخدم الكتابة أو لا تكاد تستخدمها ؛ وفى مقابل ذلك ، سنطلق لفظ التمدن على الأقسام التى فى وسعها أن تكتب ، وأن تدتخر فى أيام يسرها لأيام عسرها .

الفضل الأول

من الصييد إلى الحرث

ما للشمو ب البادية من قصر النظر - بداية الحيلة - الصيد والسكاكة - الرعى
- استئناس الحيوان - الزراعة - القوت - الطهى - أكل اللحوم البشرية

« إن نظام الوجبات الثلاث في كل يوم نظام اجتماعى غاية فى الرقى ،
أما الأقوام الممجية فهى إما أن تتختم نفسها دفعة واحدة أو تمسك عن
الطعام»^(٢) ، وإنك ترى أكثر القبائل توحشاً بين الهنود الأمريكيين يحكمون
على من يدخر طعاماً لغده بضعف المراس وانعدام الذوق^(٣) ، وكذلك
ترى أهل استراليا الأصيبين لا يستطيعون العمل كائنا ما كان ما دام جزاء
العمل لا يجيهم فور أدائه ؛ وكل فرد من قبائل « الهوتنتوت » Hottentot
هو بمثابة السيد الذى يعيش عيش الفراغ ، والحياة عند قبيلة « البوشمن »
Bushmen فى أفريقيا « إما وليمة وإما مجاعة »^(٤) . وإن فى قصر النظر هذا
لحكمة صامته ، كما هى الحال فى كثير من أساليب الحياة عند « الهمج » ،
ذلك أن الإنسان إذا بدأ يفكر فى غده فقد خرج بذلك من جنة عدن
إلى وادى الهموم ، وحلّت به صُفرة الغم ، وهاهنا يشتد فيه الجشع ،
ونبدأ البيلكية ، ويزول عنه البشر المتلهل الذى يعرفه الإنسان الأول
« الخلى من كل تفكير » ؛ إن الزنجى الأمريكى يمثل اليوم هذه المرحلة
من مراحل الانتقال ، فقد سأل « پرى » أحد أدلائه من الإسكيمو قائلاً
« فم تفكر ؟ » فكان جوابه : « ليس لى ما يدعولى التفكير لأن لى
مقداراً كافياً من اللحم » فكون الإنسان لا يفكر إلا إذا اضطر إلى ذلك ،
قد يكون جُماع الحكمة ، وقد يكون لهذا الرأى سند قوى يدعمه .

ومع ذلك فتلك الحياة التى نخلت من الهموم ، كانت لها صعابها ؛ والأحياء

التي استطاعت أن تجتاز تلك المرحلة في تطورها ، استفادت بذلك ميزة كبرى تساعدنا في تنازع البقاء ؛ فالكلب الذي اختزن تحت الثرى عظمة فاضت عن شهيته ، وإنما لشهية الكلاب ، والسنجاب الذي ادّخَرَ البندق لوجبة أخرى في يوم مقبل ، والنحل الذي ملأ خليته بالعسل ، والنمل الذي خزن زاده أكداً انتقاء يوم مطير - هذه جميعاً كانت أول منشيء للمدينة ، فقد كانت هي وأضرابها من المخلوقات الراقية أول من علم أجدادنا فن ادخار ما نستغنى عنه اليوم إلى الغد . أو اتخذ الأهبة للشتاء في أيام الصيف الحصبية بخيراتهما .

فيالها من بهارة تلك التي استخرج بها أولئك الأجداد من البر والبحر طعاماً كان بمثابة الأساس لمجتمعاتهم الساذجة ! لقد كانوا ينتزعون بأيديهم المجردة انتزاعاً ما يستطيعون أكله مما يبديه سطح الأرض من أشياء ، وكنت تراهم يقادون أو يستخدمون مخالب الحيوان وأنيابه ، ويصنعون لأنفسهم آلات من العاج والعظم والصخر ، وينسجون الشبّك والمصائد والقماخ من خيوط الحلفاء والليف ، ويصطنعون من الوسائل عدداً لا يحصى لاصطياد فريستهم من يابس أو ماء ؛ لقد كان لأهل بولينزيا شباكٌ طولها ألف ذراع لا يستطيع استخدامها إلا مائة رجل مجتمعين ، وبمثل هذا تطورت وسائل ادخار القوت جنباً إلى جنب مع النظم السياسية ، وكان اتحاد الناس في تحصيلهم للقوت مما أعان على قيام الدولة ، انظر إلى السّمّاك من قبيلة « ثلّينجيت » Thlingit إذ كان يضع على رأسه غطاء يشبه رأس عجل البحر ، ثم يخفي نفسه بين الصخور ويصرخ بمثل صوت ذلك الضرب من الحيتان ، فتأتيه عجول البحر ، فيطعمها بسنان رجه ، لا يجد في ذلك ما يؤنبه عليه ضميره ، لأنه يتم على أوضاع يرضها القتال في صورته البدائية ، وكان من عادة كثير من القبائل أن يلتقي سَمّاكوها مادة مخدرة في مجرى الماء ليهون عليهم استجلاب السمك بعد تخديره ؛ فأهل تاهيتي - مثلاً - كانوا يلقون في الماء سائلاً مسكراً يصنعونه من صنف معين من البندق أو ضرب معروف

لديهم من النبات ، فتسكر الأسماك وتطفو على السطح مخمورة لا تحذر الخطر ، فيمسك منها السمك ما أراد ؛ والاستراليون الوطنيون يسبحون تحت سطح الماء ، ويتنفسون خلال قصبات من الغاب ، فيتاح لهم أن يجذبوا البط السابح من سوقه إلى جوف الماء ، ويظنون ممسكين به هناك في رفق حتى تسكن فيه حركة الحياة ؛ وأبناء قبيلة « تاراهيومارا » كانوا يسكنون الطير بأن يلقوا لباب البندق على ألياف قوية ويربطوه بتلك الألياف التي يغرسونها إلى نصفها في التراب ، فيقتات الطير من اللباب ، ثم يقتات « التاراهيوماريون » من الطير (٥) .

إن الصيد عند كثرتنا الغالبة اليوم ضرب من اللهو ، نستمد فيه اللذة - فيما أظن - من بعض الذكريات الغامضة الراسخة في دمائنا والتي تعيد لنا تلك الأيام القديمة حيث كان الصيد عند الصائد والمصيد كليهما أمراً تتعلق به الحياة أو الموت ، ذلك لأن الصيد لم يكن سبيلاً إلى طلب القوت وكفى ، بل كان كذلك حرباً يراد بها الطمأنينة والسيادة ، حرباً لو قرنت إليها كمل ما عرفه التاريخ المدون من حروب ، ألفت هذه الحروب بالقياس إليها بمثابة اللغظ اليسير . وما يزال الإنسان في الغابة يقاتل في سبيل الحياة ، لأنه على الرغم من أن الحيوان هناك لا يكاد يهاجم مختاراً إلا إذا اضطره إلى ذلك الجوع الشديد أو الحرف من الوقوع فريسة لا يجد لنفسه مهرباً يلوذ به ، فليس في الغابة قوت يكفي الجميع ، وأحياناً لا يظفر بطعامه إلا المقاتل أو الذي يستخدم لنفسه حيواناً مقاتلاً ، وها هي ذى متاحفنا تعرض أمام أبصارنا بقايا تلك الحرب التي نشبت بين الإنسان وسائر الأنواع الحيوانية ، إذ تعرض أمامنا العُدى والهراوات والرماح والقسى وحبال الصيد والأفخاخ والمصائد والسهام والمقابع التي استطاع بها الإنسان الأول أن يفرض سيادته على الأرض ، ويمهد السبيل أمام خلتف لا يعترف بالجميل ، ليحيا حياة آمنة من كل حيوان إلا الإنسان . وحتى في يومنا هذا ، بعد كل ما نشب من حروب تستبعد العاجز عن الحياة لتبقى على القادر ، انظر كم من صنوف

الكائنات الحية ما يزال على وجه الأرض يسعى ! لقد يحدث أحياناً إذا ما مشى الإنسان خلال الغابة متريضاً ، أن تأخذه الدهشة العميقة لكثرة ما سمع هناك من لغات ، ولكثرة ما يرى من أنواع الحشرات والزواحف وآكلة اللحوم والطيور . إن الإنسان ليحسُّ عندئذ أنه متطفل قد أقحم نفسه إقحاماً على هذا الشهد بما فيه من زحمة الأحياء ، وأنه مخوف يخشاه الحيوان جميعاً ويمقتة الحيوان جميعاً مقتاً لا يذتهى . ومن يدري فلعل يوماً يُقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف من ذوات الأربع في دمدمة أصواتها ، وهذه الحشرات التي كأنما هي اليوم تستدر عليها عطف الإنسان ، وهذه الجراثيم الضئيلة التي تنوّه بما عساها أن تصنعه ، لعل يوماً يقبل على الدنيا فإذا هذه الصنوف جميعاً تلتمه الإنسان التهاماً بكل ما صنعتُهُ يدها وأنشأتْ ، فتنقذ الكوكب الأرضى من هذا الحيوان ذى الساقين الذى لا يفتأ يجول ناهباً سالباً ، وهذه الأسلحة العجيبة المصنوعة ، وهذه الأقدام التي تجوس في غير حذر !

لم يكن الصيْدُ والسمائة مرحلتين من مراحل التطور الاقتصادى ، بل كانا وجهين من أوجه النشاط التي كتب لها أن تظل باقية في أعلى صور المجتمع المتحضر . لقد كانا ذات يوم مركز الحياة ، وهما الآن بمثابة أساسيّها الخبيثين ، إذ يكمن وراء أولئك الصيادين الأشداء كل ما لنا من أدب وفلسفة وفن وشعائر عبادة ، فكأنما نوذتى اليوم صيْدنا بوساطة غبرنا نُنيبُهُ عنا ، إذ تعوزنا جرأة القلب التي نقتل بها طرائدنا عسكناً في الفضاء المشكوف ؛ لكن ذكريات الصيد القديم ما تزال تعاودنا حينما نغيبط بمطاردتنا للضعيف أو للذى يلوذ منا بالفرار ، بل إنها تعاودنا في ألعاب أطفالنا - حتى الكلمة التي نطلقها اليوم على اللعب هي نفسها التي تدل على الصيد(*) وإذن فأخر ما نصل إليه في تحليل المدنية هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه فإن رأيت فخامة الفن في الكاتندراية

(*) لفظة Game بالإنجليزية تعنى الصيد وتعنى اللعاب أيضا . (المرعب)

أو مبنى الكابيتول ، وإن شهدت متحفاً للفن أو حفلة موسيقية ، وإن صادفت مكتبة أو جامعة ، فاعلم أن هذه كلها واجهة البناء التي تخفي وراءها أشلاء القتال .

ولم يكن الإنسان مبتكراً حين اصطنع الصيد وسيلة لعيشه ، ولو حصر الإنسان جهده في نطاق الصيد لما كان أكثر من حيوان آكل للحم يضاف إلى قائمة أكلتة الحيوان ، وإنما بدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق ، إلى مرحلة أكثر اطمئناناً وأوثق اتصالاً واطّراداً ، وأعنى بها حياة الرعى ، التي اقتضت ميزات عظيمة الخطر ، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن . إننا لانعرف كيف بدأ استئناس الحيوان ولا متى بدأ - فربما كان ذلك حين أبقى الصائدون على صغار الحيوان القليل في حلبة الصيد ، حين لم يروا لها تيك الصغار حوّلاً ولا قوّة ، فساقوها إلى مقرّ سكنهم ليتخذها أطفالهم لُعباً يلهون بها^(٦) ، ولقد لبث الإنسان يأكل الحيوان الذي يمسك به على هذا النحو ، واكن بعد إمهاله فترة من الزمن ؛ وأخذ يستخدمه أداة للنقل لكنه مع ذلك كاد أن يسلكه في مجتمعه الإنساني كأنما هو منهم ، فهو زميل ، وهو شريك في العمل والإقامة ؛ ثم تلا ذلك أن أدرك الإنسان معجزه التناسل بين صنوف حيوانه ، فأخضعها لإشرافه ، استطاع بعدئذ من ذكر وأنثى يمسك بهما أن ينشئ لنفسه قطعاً كاملاً ، كذلك تخفّ عن النساء حمل الرضاعة فترة طويلة ، بأن استعملن لأطفالهن ابن الحيوان بعد سنٍ معيّنّة ، وبهذا قلّت نسبة الوفيات في الأطفال وظفر الإنسان بمورد جديد مضمون من موارد الطعام ؛ أدى ذلك كله إلى تكاثر الناس وازدادت الحياة ثباتاً واطّراداً ، وأصبحت سيادة هذا الكائن المحدث الوجيل ، أعنى الإنسان ، أصبحت سيادته على الأرض أكثر اطمئناناً .

وكانت المرأة أثناء ذلك في طريقها إلى أكبر كشف اقتصادي بين تلك الكشوف جميعاً ، وهو معرفة ما يمكن لتربة الأرض أن تخرجه من طيبات ؛ فبينما

كان الرجل في صيده كانت هي تنكت الأرض حول الخيمة أو الكوخ لتلتقط كل ما عساها أن تصادفه فوق الأرض من مأكول ؛ ففي استراليا كان العرف القائم هو أنه إذا ما غاب الزوج في رحلات صيده ، أخذت الزوجة تحفر الأرض بحثاً عن جذور تؤكل ، وتقطف الثمار والبندق من الشجر ، وتجمع العسل والفطر والحبّ والغلال التي تنبتا بالطبيعة^(٧) ؛ ولا تزال بعض القبائل في استراليا حتى يومنا هذا تحصد الغلال التي تنبت بالطبيعة دون أن تحاول درّسَ الحبوب وبذرها ؛ ولبث هنود وادي نهر ساكرامنتو عند هذه المرحلة لا يجاوزونها أبداً^(٨) وهكذا لن يتاح لنا إلى آخر الدهر أن نعلم متى أدرك الإنسان لأول مرة وظيفة الحبوب بحيث يتحول من جمعها إلى بذرّها في الأرض ، فهذه البدايات هي أسرار التاريخ التي سنظل نضرب حولها بمجرد الإيمان والحدس ، لكننا يستحيل أن نعلم عنها علم اليقين ، فيجوز أنه حين أخذ الإنسان في جمع الحبوب النابتة بطبيعتها ، كانت تسقط منها حبّات وهو في طريقه من مكان النبات إلى حيث يقيم فنسبته أخبراً إلى السر العظيم الكامن في نمو النبات ، فألقى الناسُ من قبيلة « جوانج » البذور في الأرض وتركوها تشق لنفسها طريقها إلى الغضاء ، وأما أهالي « بورنيو » فكانوا يضعون الحبّ في حفرات يحفرونها بعصاة مديبة إذ هم سائرون عبّرَ الحقول^(٩) ، فكانت هذه العصاة أو « الحافرة » أبسط ما عرفه الإنسان من أدوات زراعة الأرض ، وقد كان الرحّالة في مدغشقر منذ خمسين عاماً يرون النساء وقد امتشقن هذه العصى المديبة ، ووقفن في صفّ كأنهن الجنود ، ثم تصدّرهن إشارة البدء فيأخذن في حفر الأرض بعصيتهن ، وتلبّس التربة ووضع البذور ثم تسوية التربة بأقدامهن من جديد ، وبعدهن يعضين إلى خطّ آخر من خطوط الحقل^(١٠) ، والمرحلة التي تلت ذلك في تقدم الفلاحة وأدواتها مرحلة استعملت فيها الفأس في الحرث ، وذلك بأن ركّب الإنسان عظمة في طرف العصاة الحافرة ، وربط فيها قطعة أخرى مستعرضة لتكون سالحة

لضغطها بالقدم ، فلما وصل « كونيكيوستادوريس » إلى المكسيك وجدّ الأزارقة لا يعرفون غير الفأس أداة لحرث الأرض حتى إذا ما استؤنس الحيوان وطُرفت المعادن أمكن استعمال أدوات أثقل ، فكبرت الفأس حتى أصبحت محراثاً يضرب في الأرض أعمق مما كانت تضرب للفأس ، فأنكشفت بذلك خصوبة الأرض الدفينة ، بحيث تغيرت سيرة الإنسان تغيراً كاملاً ، فزرع أنواعاً من النبات كانت تستعصى عليه من قبل ، واستئنت أنواعاً أخوي ، وأصلح الأنواع التي كان يزرعها قبل ذلك .

وأخيراً تعلم الإنسان عن الطبيعة فن التحوط للمستقبل ، وفضيلة التبصر في العواقب(*) كما تعلم فكرة الزمن ؛ فلما لاحظ الإنسان الطيور النقارة تخزن البندق في الشجر ولاحظ النحل تخزن العسل في الخلايا ، أدرك - وربما جاء لإدراكه هذا بعد ألوف من سنين قضائها في همجية لا تعرف للحظيرة معنى - أدرك فكرة اختزان الطعام للمستقبل ؛ وكشف عن بعض السبل التي تمكنه من حفظ اللحم ، بتسخينها وبتعليقها وبتبريدها ؛ وخير من ذلك في سبيل التقدم ما بناه لنفسه من أهراء للغلال تحفظها من المطر والرطوبة والحشرات والصوص ، فكان يحتفظ في تلك الأهراء بطعام يأكله في أشهر السنة العجاف ؛ وهكذا تبين على مر الأيام أن الزراعة يمكن أن تكون مورداً للقوت أجود نوعاً وأثبت اطراداً من الصيد ، فلما أن تحقق الإنسان من هذا ، سخط إلى الأمام إحدى الخطوات الثلاث التي نقلته من الحيوانية إلى المدنية - وتلك الخطوات هي الكلام والزراعة والكتابة .

ولأيجوز لك أن تتصور الإنسان وقد قفز من الصيد إلى حرث الأرض بوثبة واحدة ، فكثير من القبائل - مثل الهنود الأمريكيين - جملوا في مرحلة

(*) تلاحظ العلاقة اللغوية بين الألفاظ الثلاثة التي معناها على التتابع « حيلة للمستقبل »

و « تدبير » و « تبصر » وهي بالإنجليزية Prudence و Providence و Provision

الانتقال لا يتحولون عنها ، فلبث الصيد مهنة الرجال والحراث مهنة النساء ؛
لا بل لا يكفي أن تقول عن هذا التحول إنه تم بخطوات متدرجة ، إنما يلغى
أن تضيف إلى ذلك أنه لم يكمل حتى تمامه ، ولك أن تقول إن الإنسان بحرثه
للأرض إنما أضاف طريقة جديدة لاختزان الطعام إلى جانب الطريقة
القديمة ، ثم ظل طوال عصور التاريخ يغلب عليه أن يؤثر لنفسه طعام
المرحلة الأولى على طعام المرحلة الثانية ، ويمكننا أن نصور لأنفسنا
الإنسان الأول إذ هو يُجرى التجارب على ألوف الأصناف التي تخرجها
له الأرض من جوفها ، حتى لقد عانى في سبيل ذلك ما عانى من ضيق
ألمٍّ بجوفه ، لعله واجد أى صنف من هاتيك المنتجات يمكن أكله بحيث
يكون مأمون العواقب ، ثم أخذ يجرى التجارب تلو التجارب في مزج
هذه الصنوف بالفاكهة والتمر وباللحم والسّمك اللذين اعتادها من قبل ؛
لكنه خلال تلك التجارب كلها لم ينفك مشوقاً لأكل غنائم الصيد ؛ وإنك
لترى الشعوب البدائية محبة للحم في طعامها إلى حد الإفتراس ، حتى وإن كان
طعامهم الرئيسي في الواقع هو الغلال والخضّر واللبن (١١) فإذا ما صادفهم
حيوان ميت لم يَطلُّ أمد موته ، فالأرجح أن يهجموا عليه في نهم
فظيح ، وكثيرا ما يستغنون في ذلك عن عملية الطهي حتى لا يضيعوا من
وقتهم شيئاً ، فيأكلوا فريستهم نيئة ، مسرعين في ذلك ما أسعفتهم
أسنانهم القوية في تمزيقها والتهامها ، وسرعان ما تنتظر فإذا الباقى أمامهم
كومة عن عظام ؛ وإننا نسمع عن قبائل بأسرها تمرح في طعامها
أسبوعاً كاملاً على حوت يلقيه البحر على الشاطئ (١٢) ؛ وعلى الرغم
من معرفة الفويجيين للطهي فإنهم يفضلون اللحم نيئاً ، وإذا أمسكوا
بسمكة قتلوها بععضها خلف خياشيمها ، ثم أكلوها من رأسها إلى ذيلها ،
لا يقومون إزاءها بشيء من الإعداد إطلاقاً (١٣) : إن الشك في اطراد موارد
الطعام جعل هذه الشعوب الفطرية تأكل كل ما يصادفها بمعنى الكلمة الحرفي
تقريباً ؛ يأكلون السمك وقنابد البحر والصفاضع البحرية والبرية والفئران

كبيرها وصغيرها والعناكب والديدان والعقارب والعثة والحشرات والجراد والأساريع والضب والثعابين بأنواعها والكلاب والخيول وجذور النبات والقمل واليرقات وبعض الزواحف والطيور - ليس بين هذه الأنواع نوع إلا وكان في مكان ما لونها من ألوان الطعام اللذيذ المشتهى عند الأقوام البدائية (١٤) ؛ وبين القبائل فريق مهتر في صيد النمل ، وبينها فريق آخر يجفف الحشرات في الشمس ويخزنها لتؤكل في وليمة ، وقوم آخرون يلتقطون القمل بعضهم من رعوس بعض ويأكلونه مستمتعين بما يأكلون ، وإذا ما تجمع من القمل عدد كبير أقبلوا عليه يلتهمونهم وهم يصيحون صيحات الفرح باعتباره عدواً للإنسان (١٥) ؛ إن قائمة الطعام عند القبائل الدنيا لا تكاد تختلف في شيء عنها عند القرود العليا (١٦) وجاء الكشف عن النار فحدد هذا النهم الذي لا يفرق بين طعام وطعام ، وتعاونت النار والزراعة على تحرير الإنسان من اعتماده على الصيد ؛ فطهى الطعام أذاب للإنسان مادتي « السليوز » والنشاء الموجودتين في آلاف الأصناف من النبات فتجعلانها غير قابلة للهضم إذا ما تراكمت فجأة على حالتها ، وأخذ الإنسان يزداد اعتماده على الغلال والخضر ويجعل منها غذاءه الرئيسي ؛ ولو أن الطهي بتلبيته لمواد الطعام الصلبة ، قلل من الحاجة إلى المضغ ، فبدأ فساد الأسنان الذي هو من وصمات المدنية .

ثم أضاف الإنسان إلى صنوف الطعام التي أسلفنا ذكرها صنفاً آخر كان ألقها وأشهاها - وهو زميله الإنسان ، ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يوماً شائعاً بين الناس جميعاً ، فقد وجدناه في كل القبائل البدائية تقريباً ، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخياً مثل سكان إيرلندة وإيريا وجماعة الهكت ، بل بين أهل الدانمارك في القرن الحادى عشر (١٧) ؛ كان اللحم البشرى من لوازم العيش بين قبائل كثيرة ولم يكن الناس يعرفون الجناز ؛ بل قد كان الأحياء في الكنفج الأعلى يباعون ويشترون رجالاً ونساء وأطفالاً ، كانوا يباعون ويشترون

علنا على اعتبار أنهم من مواد الطعام (١٨) ، وأما في جزيرة بريطانيا الجديدة فقد كان اللحم البشرى يباع في دكاكين كما يبيع القصابون اللحم الحيوانى اليوم ؛ وكذلك في بعض جزر سليمان كانوا يسمنون من يقع في أيديهم من الضحايا البشرية - وخصوصاً النساء - ليولوا بلحومهم الولائم كأنهم الخنازير (١٩) ؛ وكان الفويجيون ينزلون النساء منزلة أعلى من الكلاب لأن « الكلاب كان مذاقها رديئاً » كما كانوا يقولون ؛ ولما مرَّ « بيير لوتى » بجزيرة تاهيتى ، أخذ رئيس كهل من رؤساء الهوليزيين يشرح له طعامه فقال : « إن مذاق الرجل الأبيض إذا ما أحسن شواؤه كذاق الموز الناضج » ، أما الفيجيون فلم يعجبهم لحم البيض زاعمين أنه زائد في ملحه عما ينبغى ، وقوى الألياف ، فالبحار الأوربى إذا ما وقع لهم كاد في رأيهم ألا يصاح للطعام ، وعندهم أن الرجل من پولينزيا ألد طعاماً (٢٠) .

فما أصل هذه العادة ؟ ليس هنالك ما يثبت قطعاً أنها نشأت - كما ظن الناس من قبل - بسبب قلة في أنواع الطعام الأخرى ، ولو كان ذلك كذلك لاذن فقد بقى التلذذ بمذاق اللحم البشرى بعد زوال القحط في مواد الطعام الأخرى ، لأن العادة قد تكونت وأصبحت مما يستميل الآكل (٢١) وها هى ذى الطبيعة ، أرسل فيها البصر تبرّ الدم البشرى طعاماً شهيماً لا يُقدم عليه اللاعق في جزع قط ، حتى النباتيون البدائيون كانوا سرعان ما يعتادونه يشغف عظيم ؛ ولطالما شرب أهل القبائل دم الإنسان ، مع أنهم يكونون في غير هذا الظرف رقيقى القلوب كرام النفوس - يشربونه تارة باعتباره دواء ؛ وطوراً باعتباره شعيرة دينية أو وفاء بعهد ، ويشربونه عادة على عقيدة منهم أنه سيضيف إلى الشارب القوة الحيوية التى كانت للمأكول (٢٢) . ولم يكن أحد ليشعر بشيء من الحجل في إثارة للحم البشرى ، والظاهر أن البدائيين لم يكونوا يفرقون في حكمهم الأخلاقى بين أكل الإنسان وأكل الحيوان ، بل إنه لمدعاة للفخار في ميلانيزيا أن يدعو

الرئيس أصدقائه إلى أكلة يُقدّم فيها إنسان مشوى ، وفي ذلك قال رئيس برازيلي فيلسوف : « ما دمتُ قد قتلْتُ عدوِّي ، فلا شك أنه من الخير أن آكله بدل أن أتركه فيضيع خسارة لا يفيد منها أحد . . . ليس أسوأ الحالات أن يؤكل الإنسان ، لكن أسوأها أن يموت ، فإذا ما قُتِلتُ فسواء لدىّ أأكلني عدو القبيلة أم تركني ؛ على أنني لا أجد بين صنوف الصيد جميعاً ما هو ألد مذاقا من طعم الإنسان . والحق أنكم أيها البيض قد بلغتم الغاية في حسن المذاق » (٢٣٢)

ومما لا يب فيه أن هذه العادة قد كان لها حسنات اجتماعية معينة ؛ فقد سبقت إلى الوجود الخطة التي اقترحها « سؤفنت » في شأن الانتفاع بالأطفال الزائدين عن الحاجة ، ثم أفسحت أمام الكهول مجالا وهو أن يموتوا موتا فيه نفع للآخرين ؛ أضف إلى ذلك وجهة النظر التي لا ترى في الجنائز إلا إسرافاً لا تدعو إليه ضرورة ؛ ولقد كان من رأى « مونثينسي » أن تعذيب الإنسان حتى يُسلم الروح تحت قناع من الورع والتقوى - كما كانت الحال في عصره - أفضح وحشية من طهيه وأكله بعد موته ؛ إنه لواجب علينا أن يحترم كل منا أوهام الآخر .

الفصل الثاني

أسس الصناعة

النار - الآلات البدائية - النسيج وصناعة
الخزف - البناء والنقل - التجارة وشئون المال

لئن بدأت إنسانية الإنسان بالكلام ، وبدأت المدنية بالزراعة ، فقد بدأت الصناعة بالنار التي لم يخترعها الإنسان اختراعاً ، بل الأرجح أن قد صنعت له الطبيعة هذه الأعجوبة باحتكاك أوراق الشجر أو غصونه ، أو بلمعة من البرق أو باندماج شاعته المصادفة لبعض المواد الكيماوية ، ولم يكن لدى الإنسان في ذلك إلا الذكاء الذي يقلد به الطبيعة ويزيدها كمالاً ؛ ولما أدرك الإنسان أعجوبة النار استخدمها على ألف صورة ، وأولها فيما نظن أن اتخذ منها شعلة يقهر بها عدوه الخيف ، ألا وهو الظلام ، ثم استعملها بعد ذلك للتدفئة ، وبذلك استطاع أن يتحرك مبعداً عن مناطقه الاستوائية إلى مناطق أقل منها إرهاباً للقوى ، وبهذا الانتقال أخذ شيئاً فشيئاً يعمر الكوكب الأرضي فيجعله مسكناً للإنسان ، ثم بعد ذلك أخذ يستعمل النار في المعادن فيليها ويطرقها ويمزجها في هيئة أشد صلابة وأكثر مرونة مما وجدها عليه أول ما وجدها ؛ لقد بلغت النار في أعين البدائيين من الغرابة ومن النفع حداً جعلها لديه إحدى المعجزات التي تستحق أن تُتخذ لإلهاً وتُعبَد ، ولذلك أقام لها ما لا يحصى عدده من الحفلات التعبديّة ، وجعل منها مركزاً لحياته وبيته ؛ وكان كلما انتقل من مكان إلى مكان ، حملها معه معنيّاً بها ، لا يرضى لها قط أن تخمد ؛ بل إن الرومان أنفسهم أعدموا العذراء الطاهرة عقاباً لها على إهمالها الذي كان من شأنه أن تنطق النار المقدسة .

على أن الإنسان ، إذ هو لم يزل في مراحل الصيد والوعى والزراعة ، ما انفك

مخترعاً ، فكان الإنسان البدائي يشحذ زناد عقله لعله يجيب لنفسه إجابات عملية عما تثيره الحياة الاقتصادية في وجهه من مسائل ؛ فقد كان الإنسان بادئ ذي بدء راضياً — في ظاهر الأمر — بما تقدمه له الطبيعة — كان راضياً بثمار الأرض طعاماً ، وبجلود الحيوان وفرائه لباساً ، وبالكهوف في سفوح التلال مأوى ، ثم تلا ذلك ، فيما نظن (فبعظم التاريخ ظنٌ وبقية من إملاء الهوى) أن أخذ في تقليد آلات الحيوان وصناعاته ؛ فلقد رأى القرد وهو يقذف بالحجارة وثمار الفاكهة على أعدائه ، أو يكسر الجوز والمخار بالحجر ، ثم رأى كلاب الماء تبنى لنفسها السدود والطيور تبنى الأعشاش والعرائش ، والشبانزى تقيم بيوتاً شبيهة جداً بما يقيم الإنسان من أكواخ ؛ فحسدها على ما لها من قوة في مجالها وأسنانها وأنيابها وقرونها ، وعلى صلابة جلودها ، فأخذ من فوره يُعد لنفسه آلات وأسلحة على غرار ما للحيوان منها ، بل تفوقها ، فالإنسان — كما قال فرانكلن — حيوان صانع للآلات (٢٤) لكن هذه الميزة أيضاً — كسائر ما نُصنّفه على الإنسان منميزات تُزهي بها ونفخر — إن هي إلا تفوق على الحيوان في الدرجة وحدها لا في النوع .

وكان النبات الذي يحيط بالإنسان البدائي مصدراً لكثير من الآلات ، فمن الخيزران صنع الإنسان السهام والمدى والإبر والقوارير ؛ ومن فروع الشجر صنع الملاقط والماسك ؛ ومن لحاء الشجر وأليافه صنع الحبال والثياب في صنوف شتى ؛ وفوق هذا كله صنع الإنسان لنفسه العصا ؛ ألا ما أبسطها اختراعاً لكنها من كثرة النفع بحيث لبث الإنسان ينظر إليها رمزاً للقوة والسلطان ، من العصا السحرية عند عرائش الجن وعكازة الراعي إلى عصا موسى أو هارون ، والعصا العاجية التي كان يمسك بها القنصل أيام دولة الرومان ، والقضيب الذي يلوح به المنبثون بالغيب ثم الصولجان يمسك به القاضي أو الملك ؛ ولقد انقلبت العصا في الزراعة فأساً ، أما في الحروب فقد أصبحت حرباً أو سهماً أو رمحاً أو سيفاً

أو سنهكياً^(٢٥) . وكذلك استغلَّ الإنسان المعادن وصاغ الصخر أسلحة وأدوات هي اليوم تحفة المعارض ، فصنع منها المطرقة والسندان والوعاء يغلى فيه الماء ، والسكين ، ورأس الرمح ، والمشار ، والصفائح ، والخوابير ، والروافع ، والفئوس ، والمثاقب ؛ وكذلك من دنيا الحيوان صنع أدواته ، فصنع المغارف ، والملاعق ، والأواني والأطباق ، والأقداح ، والمواسي ، والمشابك ؛ صنع هذا كله من قواقع الشاطئ ، كما صنع غير ذلك من الأدوات الغليظة والدقيقة من قرون الحيوان وأنيابه وأسنانه وعظامه وشعره وجلده ؛ وكان لمعظم هذه الأدوات المصنوعة مقابض من خشب شددت إليها بطرق تدل على مهارة صانعيها ، فقد كانوا يربطون هاتيك المقابض بصفائر من الألياف أو الحبال أو عصب الحيوان ، وأحياناً كانوا يلصقونها بغراء مصنوع من مزيج عجيب من الدماء ؛ إن مهارة الإنسان البدائي توازى على الأرجح - بل ربما تفوق - مهارة الإنسان المتوسط في عصرنا الحديث ، فلئن كنا نختلف عن هؤلاء الأولين ، فما ذاك إلا بفضل ما تجمع لدينا من معارف وأدوات ومواد ، ولا يُعزى الفرق بيننا وبينهم إلى تفوق فكريّ امتازت به طبائعنا من دونهم ؛ الحق أن أبناء الطبيعة أولئك يغبطون أيما غبطة كلما سيطروا على موقفٍ اعترضهم ، سيطرة أعملوا فيها أذهانهم المبدعة ؛ فبين وسائل اللهو المحببة إلى الاسكيمو أن يذهبوا إلى أماكن وعرة مهجورة ، ثم يتسابقون هناك في ابتكار الوسائل التي يواجهون بها ضرورات الحياة التي ليس لديهم ما يستعينون عليها به من أدوات^(٢٦) .

وتبدت مهارة الإنسان البدائي في فن النسيج على صورة جديرة منه بالفخر ، وها هنا أيضاً اهتدى الإنسان بالحيوان في طريق السير ، فنسيج العنكبوت وعش الطائر ، وتشابك الألياف والأوراق وتقاطعها في اللسيج الطبيعي الذي تراه في الغابة ، كل ذلك أقام للإنسان نموذجاً بارزاً يحتذيه ، وإنه لنمذج بلغ من الوضوح خدأً يجعلنا نرجح أن قد كان النسيج من أول الفنون التي اصطنعها الجنس البشري ،

ففسج اللحاء والأوراق والألياف والحشائش ليصنع منها ثياباً وبُسْطاً وأغطية
لجدرانه ، ولقد أتقن صنعها في بعض المواضع بحيث لا تجد من صناعة
اليوم ما يفوقها بكل ما للصناعة اليوم من مُعِينات وآلات ؛ فنساء « ألوشيا »
قد ينفقن عاماً كاملاً في نسج ثوب واحد ؛ والهنود في أمريكا الشمالية
يصنعون البطاطين والأردية فيزخر فونها بالتهُدُّب ويوشونها بالشعر وخبوط
القصب المصبوغة بناصع الألوان التي استقطروها من الثوت ، حتى لقد قال
عنها « الأب ثيودى » Father Théodut : « إنها من النصوص بحيث
لا أظن أن ألوأنا تدنومنها » (٢٧) ؛ فقد بدأ الفن حيث انتهت الطبيعة ؛
فهذه هي عظام الطيور والأسماك ، وهذه هي قصبات الخيزران الدقيقة ،
قد تناولها الإنسان بالصقل حتى جعل منها إبراً ، ثم هذه أعصاب الحيوان
قد شدت خيوطاً بلغت من الرقة حداً تنفذ به من سمّ الخياط مهما بلغ
هذا من دقته وضيقه ؛ وكذلك جعل الإنسان من اللحاء فراشاً وقماشاً ،
وجفف جلود الحيوان ليصنع منها رداء وحذاء ، وضفر الألياف نسيجاً
قوياً ، ونسج الغصون اللينة والألياف الملونة سلالاً أجمل مما ينتجه العصر
الحديث في هذا الباب (٢٨)

وصناعة الخزف مربية الشبه بصناعة السلال ، بل ربما كانت مأخوذة
عنها ، فهم يصنعون العجينة على إطار من أغصان الصفصاف المجدولة حتى
لا تحترق هذه الأغصان ، وبذلك يتصلب الطين غلافاً لا يقبل الاشتعال ،
ويحفظ بهيته بعد أن يزال عنه إطار الصفصاف (٢٩) ، ربما كان هذا أول مرحلة
من مراحل طريق أخذ يتطور حتى بلغ القمة في الصناعة الخزفية المثل المعروفة باسم
« البورسلان » أوربا . جففت أشعة الشمس قطعاً من الطين ألقيت فيها ؛ فكان
ذلك منها الإنسان إلى فن الخزف ؛ فما عليه بعد ذلك إلا أن يخطو خطوة
واحدة ، وهي أن يستبدل بالشمس ناراً ، ثم يصنع لنفسه من تربة الأرض آية
مختلفة الصور يستخدمها في شتى جوانب العيش - يستخدمها للطهي ، وللخزن ،

وللتقل ، وأخيراً يستخدمها للأبهة والزينة ، والزخارف التي كان يطبعها بأظفاره أو بالآلاته على الطينة وهي بعدُ عجينة طرية ، كانت إحدى صور الفن في أول نشأته ، وربما كانت كذلك في إحدى مصادر الكتابة الأولى .

ومن الطين الذي جففته الشمس صنعت القبائل البدائية الآجرَّ وأقامت الدُّور ، ثم سكنت فيما يصح أن نسميه بيوتا من خزف ، لكن هذه البيوت الخزفية لم تكن أول صورة من صور البناء ، التي أخذت تتطور في رقيها من الكوخ الطيني الذي سكنه « الهمجي » إلى أن بلغت أحجار البناء الراقية في مباني نينوى وبابل ؛ ولقد تسلسل هذا التطور حلقة بعد حلقة يتأسك بعضها ببعض بحيث تؤدي الواحدة إلى التي تليها ، فبعض الشعوب البدائية - مثل الفيداويين في جزيرة سيلان - لم يكن لهم دور للسكنى ، واكتفوا بالأرض وطاء ، والسما غطاء ؛ وبعضها - مثل أهل تسانيا - أووا إلى جذوع الشجر الخاوية ؛ وبعضها - مثل سكان جنوبي ويلز الجديدة - اتخذوا الكهوف مسكناً ؛ وبعضها - مثل البوشمن - كانوا يتقون الريح بحواجز يقيمونها هنا وهناك من أغصان الشجر ، وأحياناً نادرة كانوا يغرزون في الأرض أحجاراً ثم يغطونها بالطحلب وفروع الشجر ؛ ومن هذه الحواجز التي أقيمت لاتقاء الريح ، خرجت الأكواخ حين أضيفت إلى الحواجز جوانب عند أطرافها ، وإنك لترى الكوخ في كل مراحل تطوره مائلاً بين سكان استراليا الأصليين ، تراه من بدايته حيث كان يقام صغيراً من الغصون والأعشاب والتراب ، ولا يسع إلا لشخصين أو ثلاثة ، إلى الأكواخ الكبيرة التي تؤوى ثلاثين شخصاً أو يزيد .

وأما البدوي ، صائداً كان أوعياً ، فقد آثر لنفسه خيمة في مستطاعه حلها معه أينما انتهى به طرادُه لصيئده ؛ لكن الطبقات العليا من القبائل الفطرية ، مثل الهنود الأمريكيين ، استخدمت الخشب في بنائها ؛ وكذلك كانت قبيلة «إراكوا» تبني من الحطب الذي لا يزال مغطى بقشوره ، أبنيه فسيحة طولها خمسمائة قدم ،

وتووى عدداً كبيراً من الأسر ؛ وأخيراً ترى أهل « أوقيانوسيا » يشيدون دُوراً حقيقية من ألواح الخشب التي اتقن قَطْعُهَا وبهذه الدُور وصل التطور في المساكن الخشبية أكمل مراتبه (٣٠) .

لم يبق أمام الإنسان البدائي إلا ثلاث خطوات في طريق التطور لتتم له ضرورات المدنيّة الاقتصادية كلها : آلات النقل ، وعمليات التجارة ، ووسائل التبادل ، إنك إذا أبصرت بالحمّال يحمل المتاع من طيارة حديثة لينزله على الأرض ، فقد رأيت صورة النقل في أول مراحلها وفي آخر مراحلها معا ؛ فلا شك أن قد كان الرجل في بداية الأمر يحمل أثقال نفسه بنفسه ، اللهم إلا إذا تزوج (فتكون الزوجة حاملة أثقاله) بل إن الإنسان إلى يومنا هذا ، في آسيا الجنوبية والشرقية ، تراه في الأعم الأغلب عربية وحماراً وكل شيء ؛ ثم اخترع الإنسان الحبال والروافع وبكرات البحر ؛ سيطر على الحيوان واستخدمه ناقلاً لأحماله ؛ ثم صنع أول ما شهد التاريخ من جرّارات حين جعل ماشيته تجر على الأرض غصونا طويلة وضع عليها متاعه(*) ؛ ثم وضع جذوعاً من الشجر تحت الحرارة كأنها عجالات ؛ ثم قطع الجذوع شرائح مستعرضة وابتكر بذلك أعظم اختراع آلي ، وهو العجلة ، لأنه وضع العجلات تحت الحرارة وصنع بذلك عربة ؛ ومن جذوع الشجر كذلك صنع الأطواف يربط الجذوع بعضها ببعض ، كما صنع الزوارق بحفر الجذوع وتفريغ أجوافها ، ولما تم له ذلك أصبحت مجارى الماء أيسر طرق النقل ؛ وأما على اليابس فقد شق لنفسه الطريق بادئ ذي بدء عبر المروج والتلال التي لم يكن فيها طريق ؛ ثم عبّد لنفسه سبيلاً ثم رصف آخر الأمر طريقاً ، ودرس النجوم وأخذ يعدئد يسير بقوافله عبر الجبال والصحراوات مهتدياً إلى طريقه بالنظر إلى السماء ؛ وطفق الإنسان يسبح بزورقه دافعاً إياه بالمجداف والشرع حتى عبر البحر في شجاعة من جزيرة إلى جزيرة ، وأخيراً قطع

(*) الهنود الأمريكيون قد اكتفوا بهذه المرحلة ولم يستخدموا العجلات .

المحيطات لينشر ثقافته المتواضعة من قارة إلى قارة ؛ ففي هذا الصدد أيضا حُلِّتْ المشكلات الرئيسية قبل أن يبدأ التاريخ المدوّن .

ولما كانت الكفايات البشرية والموارد الطبيعية موزعة على الأرض في غير مساواة ، فقد ترى شعبا من الشعوب قادراً بفضل ما تطور لديه من استعدادات خاصة ، أو بفضل قُربه من المواد المطلوبة ، تراه قادراً على إنتاج أشياء معينة لا يكلفه إنتاجها ما يكلف جيرانه ؛ فيمضى في صنع هذه الأشياء حتى يصنع منها أكثر من حاجته ، وعندئذ يقدم فائض إنتاجه لجيرانه في مقابل ما ينتجونه هم ، وهذا التبادل هو أصل التجارة ؛ فهنود شِبْشَا في كولومبيا كانوا يصدرون صخور الملح التي تكثر في بلادهم ، ويستوردون مقابل ذلك الغلال التي يستحيل استنباتها في أرضهم القاحلة ؛ وبعض القرى التي يسكنها الهنود الأمريكيون كاد أن يتخصص في صناعة رعوس الرماح ، بينما يتخصص بعض القرى في غانة الحديد في صنع الأواني الخزفية ؛ كذلك في أفريقيا ترى من هذه القبائل ما يجعل الحدادة صناعته ، ومنها ما يجعل صناعته الزوارق أو الرماح ؛ ومثل هذا التخصص في القبائل أو القرى كثيراً ما أكسبها اسم صناعتها ، (فيطلق عليها الحدّاد ، أو السّمّاك أو الخزّاف ...) ، ثم انتقلت هذه الأسماء مع الزمن إلى الاسر التي اقتصت نفسها بهذه الصناعة أو تلك (١٣٠) ؛ والتجارة بفائض الإنتاج كانت في أول أمرها تبادلاً بالهدايا ، بل إنك ترى في أيامنا هذه التي تحسب كل شيء بالأرقام أنه قد تكون الهدية (حتى ولو كانت دعوة على طعام) مقدّمة لصفقة تجارية أو خاتمة لها ؛ ومما ييسّر التبادل الحروبُ والسراقات والجزية والغرامات والتعويض ، فكل هذه وسائل عملت على انتقال السلع من مكان إلى مكان ، إذ لم يكن للإنسان مندوحة عن ذلك ؛ ثم أخذ نظام للتبادل ينشأ رويداً رويداً ، فأقيمت مراكز التجارة والأسواق والمتاجر - أقيمت أول الأمر آنأ بعد آن في غير نظام ، ثم أقيمت على فترات معلومة ، ثم أصبحت دائمة - وفي هذه الأماكن جعلَ مَنْ يملك

سلعة فائضة عن حاجته يعرضها مقابل سلعة هو بحاجة إليها (٣١) .

لبثت التجارة أمداً طويلاً وهي لا تزيد عن هذا التبادل ، ومضت قرون قبل أن تحتزع وسيلة متداولة ذات قيمة فتعمل على سرعة الحركة التجارية ؛ فقد كان الرجل من قبيلة « دياك » يجوز له أن يظل جاثلاً في أنحاء السوق ممسكاً بيده كرة من شمع العسل ، وباحتاً عن زبون في استطاعه أن يقبلها منه مقابل شيء يمكن أن يكون أنفع له (٣٢) ؛ وأول وسائل التبادل كانت سلعاً يطلبها كل إنسان ويقبلها كل بائع ثمناً لبضاعته : كالبلح والملح والجلود والفراء والحلي والآلات والأسلحة ؛ وفي مثل هذا التبادل المدّيتان تساويان زوجاً من الجوارب ، والثلاثة معاً تساوي بطانية ، والأربعة كلها تساوي بندقية ، والخمسة جميعاً تساوي جواداً ؛ كذلك كان أيتلان صغيران يساويان مِهْرًا ، وثمانية أمهْرٍ تساوي زوجة (٣٣) ؛ إنك لا تكاد تجد شيئاً لم يستعمله الناس استعمالهم للنقود هنا أو هناك ، وفي هذا الزمن أو ذاك : الفول وشص السمك والقواقع واللؤلؤ والخرز وجوز الهند والحب والشاي والفلفل ، وأخيراً الأغنام والخنازير والأبقار والعبيد ؛ وكانت الماشية معياراً مناسباً لقياس القيمة ووسيلة للتبادل بين الصائدين والرعاة ، فهي تربح بالتربية وهي سهلة الحمل لأنها تنقل نفسها ؛ فتجد الناس والأشياء حتى عهد هومر يقومون بالماشية : فدرع « ديومديز » قيمتها تسعة رعوس من الماشية ، وعبء ماهر يساوي أربعة ؛ واللفظتان اللتان استعملهما الرومان للماشية وللمال متشابهتان ، فلأولى استعملوا لفظة Pecus وللثانية Pecunia ؛ وكذلك طبعوا صورة ثور على نقودهم القديمة ؛ بل إن الكلمة التي تستعملها اللغة الإنجليزية لرأس المال وهي Capital ترتد في تاريخها عن طريق اللغة الفرنسية إلى الكلمة اللاتينية Capitale ومعناها ملك ، وهذه الكلمة بدورها مشتقة من Caput التي تعني « رأس » والمقصود رأس من الماشية ، فلما أن استنجمت المعادن أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل سائر الأشياء في استعمالها معياراً للقيمة ، مثال ذلك النحاس والبرونز والحديد ، وأخيراً الذهب

والفضة لأنهما يمثلان قيمة كبيرة في حيز صغير ووزن قليل ، فأصبحت وسيلة التعامل للإنسان كافة ، وهذا الانتقال من السلع المعيارية في التبادل إلى العملة المعدنية لم يتم على أيدي البدائيين في أرجح الظن ، إنما هي خطوة خطاها الناس لإبان التاريخ المدون ، فاخترعوا العملة وابتكروا الدين ، وهكذا زادوا ثروة الإنسان ورخاءه حين يسروا تبادل فيض ما ينتجون(٣٤) .

الفصل الثالث

التنظيم الاقتصادي

الشيوعية البدائية - أسباب زوالها -
أصول الملكية الخاصة - الرق - الطبقات

كانت التجارة أعظم مثير للعالم البدائي ، لأنه لم يكن هناك ملك ، وبالتالي لم يكن هناك من نظم الحكم إلا قليل ، قبل أن تدخل في حياة الناس وتجروا وراءها ذبولها من أموال وأرباح ، ففي المراحل الأولى من التطور الاقتصادي كانت الملكية محصورة - في الأعم الأغلب - في حدود الأشياء التي يستخدمها المالك لشخصه ، وكان معنى الملكية هذا من القوة بحيث لازمت الأشياء المملوكة مالكيها ، فغالباً ما دفنت معه في قبره (وانطبق هذا على الزوجة نفسها) ، وأما الأشياء التي لا تتعلق بشخص المالك ، فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة إليها مثل هذا الفهم القوي ، فلا يكفي أن تقول إن فكرة الملكية ليست فطرية في الإنسان ، إنما يجب أن تضيف إلى ذلك أنها في مثل هذه الأشياء البعيدة عن شخصية المالك ، كانت من الضعف في أذهان الناس بحيث تحتاج إلى تقوية مستمرة وتلقين مستمر .

فتكاد تجد الأرض في كل الشعوب البدائية ملكاً للمجتمع بأسره ، فالهنود في أمريكا الشمالية ، وأهالي بيرو ، وقبائل الهنود التي على تل تشيتاجونج ، وأهل بورنيو ، وسكان الجزر في البحر الجنوبي ، مثل هؤلاء - فيما نرجح - كانوا يملكون الأرض جماعة ويحرقونها جماعة ويقسمون الثمار جماعة ، وفي ذلك قال هنود أوماها : « إن الأرض كالماء والهواء لا يمكن أن تباع » ، وكذلك لم يكن بيع الأرض معروفاً في ساموا قبل قدوم الرجل الأبيض ، ولقد وجد الأستاذ ريفرز

شيوعية الأرض لا تزال قائمة في مالينزيا وپولينزيا ، ويمكنك أن تلحظها اليوم قائمة في داخل لپيريا (٣٥) ۞

وأما شيوعية القوت فقد كانت أقل من ذلك انتشاراً ، فن المألوف عند « الهمج » أن من يملك طعاما يقسمه مع من لا يملك منه شيئاً ؛ كما كان من المألوف كذلك للمسافرين إذا ما أرادوا طعاما أن يقفوا عند أى دار يشاءون في طريقهم ، بل كان من المألوف أن تستعين الجماعات التى ينزل بها القحط بجيرانها (٣٦) ، وكان إذا ما جلس إنسان فى الغابة ليأكل وجبته ، توقع منه الناس أن يصبح لمن أراد أن يشاطره الطعام قبل أن يبدأ هو فى تناوله ، وبغير ذلك لا يكون الصواب فى جانبه (٣٧) ؛ فلما قص « تيرنر » على رجل من « ساموا » قصة فقير فى لندن ، سأله « الهمجى » فى دهشة : « وكيف هذا ؟ أليس هناك طعام ؟ أليس له أصدقاء ؟ أليس فى المكان بيت للسكنى ؟ أين إذن نشأ هذا الفقير ؟ أليس لأصدقائه منازل » (٣٨) ؟ والجائع من الهنود ما عليه إلا أن يسأل فيجاب سؤاله بالعطاء ، فهما يكن مورد الطعام ضئيلا عند المعطى ، فإنه لا بد أن يعطى منه هذا السائل ما دام محتاجا ؛ « فيستحيل أن تجد إنسانا يعوزه القوت مادامت الغلال موجودة فى مكان بالمدينة » (٣٩) ؛ وكانت العادة عند الهوتنتوت أن يقسم من يملك أكثر من سواه هذه الزيادة حتى يتساوى الجميع ؛ وقد لاحظ الرحالة البيض أثناء رحلاتهم فى أفريقيا قبل أن تدخلها المدنية ، لاحظوا أن « الرجل الأسود » إذا ما قدمت له هدية من طعام أو غيره من الأشياء ذوات القيمة ، فإنه يقسمها بين ذويه فوراً ؛ وإذا ما أعطى المسافر بدلة لأحد هؤلاء السود ، فسرعان ما يرى الموهوب يلبس من الهبة جزءا كالقبعة مثلا ، ثم يرى صديقا له يلبس السراويل وصديقا آخر يرتدى السترة ، وكذلك الإسكيمولا يرون للصائد حقا شخصيا فى امتلاك صيده ، بل يلزم توزيعه على أهل القرية جميعاً ، وكانت الآلات والمخزون من الطعام ملكا مشاعا بين الجميع وقد وصف « كابتين كارفر » Captain Carver

هنود أمريكا الشمالية فقال « إنهم لا يعرفون من فوارق الملكية شيئاً سوى الأدوات المنزلية ... وهم أنحياء بعضهم لبعض غاية السخاء ، وإذا ما فاض عند أحدهم فيض ونقص عند الآخر ما يحتاج إليه ، فلا بد أن يسد الأول بفيضه نقص زميله » وكذلك كتب مبشر ديني يقول : « إن ما يثير الدهشة العميقة أن تراهم يعاملون بعضهم بعضاً برقة ومجاملة قتل أن تراهما عند أكثر الأمم تحضراً ؛ وذلك بغير شك يرجع إلى أن لفظي « ملكي » و « ملكك » اللتين قال عنهما القديس كريسوستم Chrysostom إنهما تخمدان في قلوبنا شعلة الإحسان وتشعلان نار الجشع ، لا يعرفهما هؤلاء الهمج » ويقول شاهد آخر : « لقد رأيتهم يقتسمون الصيد إذا كان لديهم ما يُقسَّم ، لكني لا أذكر مثلاً واحداً لتنازعهم أو لتوجيههم النقد لطريقة التقسيم كأن يقولوا إنه غير عادل أو غير ذلك من أوجه الاعتراض ؛ إن الواحد منهم ليؤثر أن يرقد على معدته الخاوية ، على أن يُتهم بأنه أبي أن يعين المحتاج ... إنهم يعدون أنفسهم أبناء أسرة واحدة كبيرة » (٤٠) .

لماذا اختلفت الشيوعية البدائية حين نهض الإنسان إلى ما نطلق عليه في شيء من التحيز اسم المدنية ؟ يعتقد « سَمْنَر » Sumner أنها دلت على أنها ليست بيولوجية في اتجاهها لأنها عقبة في سبيل تنازع البقاء ، وأنها لم تحفز الناس بما يكفي لتشجيعهم على الاختراع والنشاط والاقتصاد ، وأن عدم مكافأتها للأقدر وعقابها لمن هو أقل قدرة سوى بين الكفائيات تسوية تعاند النمو وتعارض التنافس الناجح مع سائر الجماعات (٤١) ، وكتب « لوسكييل » Loskiel عن بعض القبائل الهندية في الشمال الشرقي يقول : « إنهم من الكسل بحيث لا يزرعون شيئاً بأنفسهم ، بل يعتمدون كل الاعتماد على احتمال أن غيرهم لن يرفض أن يقاسموه في إنتاجه ؛ ولما كان النشيط لا يتمتع من ثمار الأرض بأكثر مما يتمتع الحامل ، فإن إنتاجهم يتبل عاماً بعد عام » (٤٢) ؛ ومن رأى دارون أن المساواة التامة بين الفويجيين تقضى على كل أمل في تحضُّرهم (٤٣) أو ربما قال الفويجيون في ذلك إن المدنية

إذا ما أتهم فإنها ستقضى على المساواة القائمة بينهم ؛ نعم إن الشيوعية طمأنت هؤلاء الذين خلصوا بحياتهم من حوادث الفقر والجهل وما يترتب عليهما من مرض في المجتمع البدائي ، لكنها لم تنتشلهم من ذلك الفقر انتشاراً ، وأما الفردية فقد جاءت بالثراء ، لكنها كذلك جرّت معها القلق والرق ، نعم إن الفردية حركت في الممتازين من الرجال قواهم الكامنة ، لكنها كذلك نفخت نار التنافس في الحياة فأشعلتها ، وجعلت الناس يحسون الفقر إحساساً مريعاً ، مع أن هذا الفقر لم يكن ليؤذى أحداً حين استوى فيه الجميع (*) .

(*) ربما كان من الأسباب التي تميل بالشيوعية إلى الظهور في بداية المدنية أنها تزدهر ازدهاراً سريعاً في أوقات القحط التي يتدمج فيها الفرد في جماعة مدفوعاً بعامل الخطر المشترك الذي يهدد الجميع بالموت حوفاً ؛ أما إذا كُثرت الخيرات وزال الخطر ، فإن التماسك الاجتماعي بين الأفراد تقل شدته ، بمقدار ما تزداد الفردية ، فكأنما تنتهي الشيوعية حين يبدأ الترف ؛ وإذا ما ازدادت حياة المجتمع تقدماً ، وأخذ تقسيم العمل بين الناس يقسمهم في أعمال مختلفة وصناعات مختلفة ، يصبح من المتعذر - وتزداد الصعوبة شيئاً فشيئاً - أن تكون كل هاتيك الخدمات التي يقوم بها الأفراد على قدم المساواة من حيث قيمتها للمجتمع ؛ وإذن فلا مناس من أن الفريق الذي مكنته زيادة قدرته عن الآخرين من القيام بالأعمال التي هي أكثر أهمية ، سيأخذ من الثروة التي تنتجها الجماعة أكثر مما يقضى به التبادل في التقسيم ؛ فكل مدنية نامية إن هي إلا متهد تتكاثر فيه وجوه التفاوت بين الناس ، إذ تتحد الفوارق الطبيعية الكائنة بين جهود الأفراد مع الفوارق الناشئة في الفرص السانحة ، فتنتجان فوارق أخرى صناعية في الثروة والقوة ؛ فإذا لم يكن هنالك قوانين ، أو إذا لم يكن هنالك طاعة ، يعمل على كبح هذه الفوارق الصناعية ، فإنها تضلّ الأمر إلى درجة الانفجار ، حين لا يجد الفقراء في أيديهم ما يخافون من ضياعه إذا ما أعلنوا العصيان فتهب الثورة بفوضاها التي تسوى بين الناس من جديد في فقر شامل .

ومن هنا نرى حلم الشيوعية كامناً في كل مجتمع حديث ، لأنه ذكرى انحدرت للناس من حياة آباؤهم الأولين حيث الحياة أبسط من حياتنا وأقرب إلى المساواة ؛ فإذا ما وجد الناس أنفسهم في تفاوت يفرق بينهم وفي حالة من القلق على أرزاقهم ، بحيث لم يعودوا يحتملون هذا القلق وذلك التفاوت ، فإنهم يرحبون بالعودة إلى الماضي الذي يفيضون عليه من خيالهم مجالاً بأن يذكروا ما كان فيه من مساواة ويلبسوا ما كان يسوه من فقر ؛ لهذا كله ترى الأرض يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام سواء بحكم التشريع أو بمنهاضته ، سواء أتم هذا التقسيم الجديد بفضل « الجراشي » في روما أو اليعقوبيين في فرنسا أو الشيوعيين في روسيا ؛ وكذلك ترى الثروة يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام ، سواء أتم ذلك بمصادرة الأملاك بمصادرة بالقوة ، أم بفرض الضرائب على الدخول والتركات بحيث تؤدي إلى المصادرة في نهاية الأمر ؛ وبعدئذ يبدأ السباق في سبيل =

تستطيع الشيوعية أن تعيش في سهولة أكثر في مجتمعات دائمة الانتقال ، لا يزول عنها الخطر والعوز ؛ فالصائدون والرعاة ليس بهم حاجة إلى ملك يحفظون به ، لكن لما أصبحت الزراعة صورة الحياة المستقرة ، لم يلبث الناس أن تبينوا أن العناية بالأرض تبلغ أقصاها من حيث غزارة الثمر إذا ما عاد جزء تلك العناية إلى الأسرة التي قامت بها ؛ فنتج عن ذلك بحكم الانتخاب الطبيعي الكائن بين النظم الاجتماعية والأفكار ، كما هو كائن بين الأفراد والجماعات ينتج أن الانتقال من الصيد إلى الزراعة استتبع تحولا من الملكية القبليّة إلى ملكيّة الأسرة ؛ وبذلك أصبحت أكثر الوحدات الاجتماعية اقتصاداً في نفقات الإنتاج ، هي كذلك وحدة الملكيّة ؛ فلما أخذت الأسرة شيئاً فشيئاً تتخذ الصورة الأبوية التي تركز السلطة كلها في أكبر الذكور سناً ، أخذت الملكيّة كذلك يزداد تركزها شيئاً فشيئاً في أيدي أفراد ، ثم نشأ التوريث لشخص معين عن شخص معين ؛ ولما كان كثيراً ما يحدث لفرد مغامر أن يغادر مرفأ الأسرة الآمن ، ليضرب بمغامراته خارج الحدود التي وقف عندها ذووه ، ثم ينتهي به العمل المتصل الشاق أن يستولى على قطعة أرض من الغابة أو الحرج أو المستنقع ؛ فإنه يحرص عليها حرصاً شديداً لا يسمح لغيره بانتزاعها لأنها ملكه الخاص ، حتى لتضطرب الجماعة في النهاية أن تعترف بحقه فيها ، وهذا نشأ ضرب آخر من ضروب الملكيّة الفردية (٣١) ومثل هذا الاستيلاء على الأراضي أخذ يزداد اتساعاً حين ازداد السكان واستنفدت قوة الأرض القديمة ، حتى وصل الأمر في المجتمعات

من الثروة والمتاع والقوة من جديد ، ويتشكل الناس بحكم قدراتهم المختلفة في هيئة الهرم مرة أخرى فهما يكن من أمر القوانين الموضوعة ، فلا بد الأقدر من الناس أن يظفروا بالتربة الأخضر بوجه من الوجوه ، وأن يحتلوا المكانة الأعلى ويأخذوا نصيب الأسد ؛ وسرعان ما تبيح لهم قوتهم أن يسيطروا على الدولة وأن يمدوا سن القوانين أو يمدوا شرحها بحيث تتفق وهوامهم ، فيأتي يوم يشتد فيه التفاوت بين الناس كما كان قبل ؛ فالتاريخ الاقتصادي كله - في هذا الصدد - إن هو إلا نبضات قلب الكائن الاجتماعي ؛ هو انقباض لهذا القلب الكبير ثم انبساط ، يتمثلان في تركيز الثروة تركزاً طبيعياً ثم انفجار الثروة انفجاراً طبيعياً كذلك .

الأكثر تعقداً من سواها ، إلى أن باتت المِلْكِيَّة الفرديَّة هي النظام السائد ، ثم جاء اختراع المال فساعد هذه العوامل بتيسيره لجمع الثروة ونقلها وتحويلها ؛ واتخذت حقوق القبيلة القديمه وتقاليدها صورة المِلْكِيَّة بمعناها الدقيق ، وأما المالك عندئذ فهو أهل القرية جماعةً أو الملك ، ثم خضعت المِلْكِيَّة لإعادة التوزيع حيناً بعد حين ؛ ومضى هذا العصر الذي جعل أمر المِلْكِيَّة يتذبذب فيه على هذا النحو من طرف إلى طرف ، بين النظام القديم والنظام الجديد ، وبعدئذ استقرت المِلْكِيَّة الفرديَّة الخاصة استقراراً لا شُبُهة فيه ، وأصبحت هي النظام الاقتصادي الأساسي الذي أخذت به المجتمعات في العصور التي دون أخبارها التاريخ .

لكن بينما كانت الزراعة تُنشئُ المدينةَ لإنشاءً ، فإنها إلى جانب انتهائها إلى نظام المِلْكِيَّة ، انتهت كذلك إلى نظام الرق الذي لم يكن معروفاً في الجماعات التي كانت تقيم حياتها على الصيد الخالص . لأن زوجة الصائد وأبناءه كانوا يقومون بالأعمال الدنيئة ، وكان فيهم الكفاية لذلك ، وأما الرجال فقد كانت تتعاقب في حياتهم مرحلة تضطرب بنشاط الصيد أو القتال يتلوها مرحلة من فتور الاسترخاء والدعة بعد الإجهاد والعناء ؛ وأهل ما تنطبع به الشعوب البدائية من كسل قد بدأ - فيما نظن - من هذه العادة ، عادة الاستجمام البطيء بعد عناء القتال والصيد ؛ ولو أنها لم تكن عندئذ كسلاً بمقدار ما كانت راحة واستجماماً ؛ فلكي تتوَلَّ هذا النشاط المتقطع إلى عمل مطرد ، لا بد لك من شيئين : العناية بالأرض عناية تتكرر كل يوم ، وتنظيم العمل .

وأما تنظيم العمل فيظل مُسْتَحْلَلٌ العُرَى لَدُنِّيَّ النشاط ما دام الناس يعملون لأنفسهم ؛ لكنهم إذا كانوا يعملون لغيرهم فإن تنظيم العمل لا بد أن يعتمد في النهاية على القوة والإرغام ؛ وذلك أن نشأة الزراعة وحدوث التفاوت بين الناس انتهى إلى استخدام الضعفاء اجتماعياً بواسطة الأقوياء اجتماعياً ، ولم يتنبه الظافر في القتال قبل ذلك إلى أن الأسير الذي ينفعه هو الأسير الحي ، وبذلك قتلت

المجازر وقلّ أكل الناس بعضهم لحوم بعض ، كلما زاد نظام الرق اتساعاً؛^(٤) وإذن فقد تقدم الإنسان من حيث الأخلاق تقدماً عظيماً حين أقلع عن قتل زميله الإنسان أو أكله ، واكتفى من أعدائه باسترقاقهم ؛ وإنك لترى تطوراً كهذا يتمُّ اليوم على نطاق واسع ، إذا أقلعت الأمم الظافرة عن الفتك بالعدو المغلوب ، واكتفت باسترقاقه عن طريق التعويض الذى تقتضيه إياه ؛ ولما استقر نظام الرق على أسسه وبرهن على نفعه ، أخذ يزداد نطاقه بأن أضيف إلى الرقيق طوائف أخرى غير الأسرى ، فأضيف إليهم المدّينون الذين لا يوقّون الدّين ، والمجرمون اللذين يعاودون الإجرام ، هذا إلى إغارات تُشنُّ عمداً لاجتلاب الرقيق ؛ وهكذا كانت الحرب بادئ الأمر عاملاً على نشأة الرق ، ثم أصبح الرق عاملاً على شنِّ الحروب .

ولعل نظام الرق حين امتدّت به القرون قد أكسب الجنس البشرى تقاليد وعاداته من حيث العمل ، فلن تجد بيننا أحداً يقدم على عمل شاق عسير إذا كان في مقدوره أن يتخلص منه بغير أن يتعرض لشيء من العقاب البدنى أو الاقتصادى ، وإذن فقد بات الرق جزءاً من النظام الذى استعد به الإنسان للقيام بالصناعة ، هذا فضلاً عن أنه عمل على تقدم المدينة بطريق غير مباشر ، بأن زاد من الثروة فتخلّق الفراغ لفئة قليلة من الناس ، ولما متّصت قرون على هذا النظام ، جعل الناس ينظرون إليه كأنه نظام فطرى لا غنى عنه ، بهذا قال أرسطو وكذلك بارك القديس بولس هذا النظام الاجتماعى الذى لا بد أن يكون قد بدا لعينيه فى عصره نظاماً قضى به الله .

هكذا أخذت الزراعة وأخذ نظام الرق ، كما أخذ تقسيم العمل وما يقتضيه من اختلاف بين الناس ، أخذ كل هذا يستبدل شيئاً فشيئاً بالمساواة التى كانت قائمة فى الجماعة الطبيعية تفاوتاً وانقساماً إلى طبقات « فى الجماعة البدائية لا ترى — على وجه العموم — فارقاً بين حرّ وعبد ، ولا تجد فيها رقاً ولا طبقات ، ثم

لاتدرك من الفوارق بين الرئيس وتابعيه إلا قدراً ضئيلاً»^(٤٥) . وبالتدريج ازدادت الآلات والصناعات تعقداً ، فعمل ذلك على إخضاع الضعيف العاجز إلى مشيئة القوى الماهر ، وكان كلما ظهر اختراع جديد ، أصبح سلاحاً جديداً في أيدي الأقوياء ، فزاد من سلطانهم على الضعفاء واستغلّاهم لهم^(*) ثم عمل نظام التوريث على اتساع الهوة بأن أضاف إلى الامتياز في الفُرص السانحة امتيازاً في الأملاك ، فقَسَمَت المجتمعات التي كانت يوماً متجانسة إلى عدد لا يحصيه النظر من طبقات وأوساط ، وأحسَّ الأغنياء والفقراء بغناهم أو فقرهم لإحساساً يؤدي إلى التشاحن ، وأخذت حرب الطبقات تسرى خلال عصور التاريخ كأنها خيط أحمر ، فاقضى هذا النزاع بين الطبقات قيام الدولة التي لم يَعد عن قيامها محيص لتنظيم تلك الطبقات ولحماية الأملاك ولشنّ الحروب ولتنظيم السلام .

(*) وكذلك في عصرنا أدى سيل الاختراعات الذي نسميه بالثورة الصناعية إلى توسيع التفاوت الطبيعي بين الناس .

الباب الثالث

العناصر السياسية في الحضارة

الفضل الأول

أصول الحكومة

الفريزة الاجتماعية - الفوضى البدائية - القبيلة والعشيرة - الملك - الحرب

ليس الإنسان حيواناً سياسياً عن رضى وطواعية ، فالرجل من الناس لا يتحد مع زملائه مدفوعاً برغبته بقدر ما يتحد معهم بحكم العادة والتقليد والظروف القاهرة ؛ فهو لا يحب المجتمع بقدر ما يخشى العزلة ، ولذلك نواه يتحد مع غيره من الناس لأن اعتزاله يعرضه للخطر ، ولأن ثمة أشياء كثيرة يمكن أن يتجود أداؤها بالتعاون أكثر مما يتجود بالانفراد ، وعلى ذلك فالرجل من الناس وحشىٌ في صميمه يتصدى للعالم كله تصدى العدو لأعدائه بكل ما يتطلب ذلك من بطولة ؛ فلو قد جرت الأمور على ما يشتهى الإنسان المتوسط لكان الأرجح ألا تقوم للدولة قائمة ؛ بل إنك لتراه في يومنا هذا يمقت الدولة مقتاً ، ولا يفرق بين الموت وجباية الضرائب ؛ ويتحرق شوقاً لحكومة لا تحكم من أموره إلا أقلها ؛ ولو رأته يطلب بزيادة في القوانين فما ذاك إلا لأنه يعتقد أن سجاره لا بد له من تلك القوانين أما هو إذا ما ترك لهواه ، فينزع إلى الفوضى التي لا يضبطها تفكير فلسفى ، ويظن أن القوانين - فيما يختص بحالته - زائدة لا حاجة إليها .

ولونظرت إلى أبسط المجتمعات تكويناً لأوشكت ألا ترى فيها حكومة على أمة صورة من الصور ، فالصائدون البدائيون لا يميلون إلى قبول التقنين إلا حين

ينضمون إلى جماعة الصيد ويستعدون لدور النشاط ؛ أما في غير هذا فترى قبيلة البوشين تعيش عادة في أسرّات معزول بعضها عن بعض ؛ وكذلك أقزام أفريقيا وأهل استراليا الفطريين لا يقبلون التنظيم السياسي إلا مؤقتاً ، حتى إذا ما فرغت مهمته انتشروا من جديد في أسرّات كل منها قائم بذاته ؛ وليس لأهل تسمانيا رؤساء ولا قوانين ولا حكومة دائمة ، والفيديون من سكان سيلان انقسموا جماعات على أساس الروابط العائلية ، لكن لم يكن عليهم حكومة ، والكوبيون في سومطره « يعيشون بغير سلطان » وتحكم كل أسرة نفسها ؛ وقلما تجدد الفويجيين في جماعات تزيد عن اثني عشر ؛ وكذلك التنجييون يجتمعون اجتماعات متفرقة لا تزيد الجماعة منها عن عشر خيمات أو ما يقرب من ذلك ، ولا يزيد « الحشد » من الاستراليين عن ستين شخصاً إلا في القليل النادر (١) ، ولا تلتم هذه الجماعة ولا تتعاون إلا لأغراض خاصة مثل الصيد ، دون أن تتحد في نظام سياسي دائم .

كانت القبيلة أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم - ونقصد بالقبيلة جماعة من أسرّات ترتبط باواصر القربى ، وتشغل بقعة من الأرض على سبيل الشيوخ ولها طوطم مشترك وتحكمها حكومة بعينها وفق قوانين معينة ؛ فإذا ما اتحدت عدة قبائل تحت رئيس واحد تكونت بذلك العشيرة ؛ فالعشيرة هي الخطوة الثانية نحو تكوين الدولة ؛ لكن التطور في هذه السبيل كان بطيئاً إذ كان كثير من الجماعات بغير رؤساء (٢) وجماعات أخرى كثيرة لم تقبل نظام الرئاسة - فيما نظن - إلا في وقت الحرب (٣) فالديمقراطية ليست من مزايا عصرنا التي يُزهى بها على العصور السوالف ، لأنها تظهر على خير وجوها في كثير من الجماعات البدائية حيث لا تكون الحكومة القائمة عليها سوى ما يشير به رؤساء الأسر في العشيرة - ولم يُسمح قط بقيام السلطة جزافاً (٤) فالهنود من قبائل « إراكوا » و« دلاوير » لم يعترفوا بشيء من القوانين أو الضوابط خارج نطاق النظام

الطبيعى الذى تقضى به الأسرة أو العشيرة ؛ ولم يتمتع رؤسائهم إلا بسلطة متواضعة فى مقدور شيوخ العشيرة أن ينسخوها فى أى وقت شاءوا ؛ وكان يقوم على هنود « أوماها » « مجلس السبعة » الذى يظل أعضاؤه يتشاورون فى الأمر حتى يصلوا إلى إجماع فى الرأى ؛ فإذا أضفت إلى هذا جمعية الأراكوا المشهورة ، التى تم فيها الاتفاق بين قبائل كثيرة ، فارتبطت القبائل بما اتفقت عليه من عهود فى حفظ السلام ، لم تجدها حقيقة تفصل بين هؤلاء « الهميخ » وبين الدول الحديثة التى تتعهد بنشر السلام فى جمعية الأمم تعهداً قد يخلطون به .

لكنها الحروب هى التى تخلق الرئيس وتخلق الملك وتخلق الدولة ؛ كما أن هؤلاء جميعاً هم الذين يعودون فيخلقون الحروب ؛ ففى « ساموا » كانت للرئيس سلطة إبان الحرب ؛ أما فى غير ذلك فلم يكن يأبه له الناس كثيراً ؛ وقبيلة « دياك » لم تكن تعرف من الحكومة إلا ما لرأس الأسرة على أسرته من سلطان ، فإن نشب القتال كانوا يختارون أشجع مقاتليهم فيولونه القيادة ويطيعونه طاعة غمياء ، حتى إذا ما فرغوا من قتالهم ، نزعوه وأرجعوه إلى عمله السابق بمعنى هذه العبارة الحرفية (٥) ؛ وأما فى فترات السلم فقد كان أكثر الساطة والنفوذ للكاهن أو رئيس السحرة ؛ فلما تطور نظام الحكم ، وأصبحت الملكية هى الصورة المألوفة لدى أغلب القبائل ، اشتقت الملكية وظائفها من وظائف هؤلاء ، وجمعت تلك الوظائف كلها فى يدها : وظائف المقاتل والشيخ الوالد والكاهن ؛ وإنك لرى الجماعات تحكمها قوتان : تحكمها الكلمة فى وقت السلم ، ويحكمها السيف إبان الشدائد ؛ وإذن فالقوة لا تعمل إلا حينما يفشل الإرشاد بالقول ؛ ولقد سبر القانون والعقائد الأسطورية جنباً إلى جنب خلال العصور ، يتعاونان معاً على حكم البشر ، أو يتعاقبان الواحد بعد الآخر ، ولم تجرؤ دولة من الدول حتى يومنا هذا أن تفصل بينهما ، ومن يدرى لعلهما يعبردان فيتحدان غدا .

ولكن كيف انتهت الحرب إلى قيام الدولة ؟ لم يكن ذلك لأن الإنسان ميال بفطرته للحروب ، فبعض الشعوب المتأخرة غاية في حب السلام ، ولم يستطع الأسكيمو أن يفهموا لماذا يطارد الأورييون بعضهم بعضاً كأنهم الحيتان - مع أنهم يدينون جميعاً بعقيدة مسالمة واحدة - ولماذا يسرق بعضهم أرض بعض ، ولذا قالوا في تمجيد أرضهم : « ألا ما أجمل أن يكون غطاؤنا ثلجاً وجليداً ! ما أجمل أن يكون الذهب والفضة اللذين إن كانا كامنين في صدورنا - الذهب والفضة اللذين يتكالب عليهما المسيحيون تكالبا جشعا - فإنهما يكونونان تحت غطاء كثيف من الثلج بحيث لا يستطيعون الوصول إليهما ! إن عقم أرضنا عن الإثمار مؤدباً إلى سعادتنا ومنقذنا من اعتداء المعتدين » (٦) ومع ذلك فحياة البدائيين قد تخللتها حروب لا تنقطع ؛ فالصائدون كانوا يقاتلون من أجل المصائد التي لم تزل عامرة بصيدها ، كما كان الرعاة يقاتلون في سبيل المراعى الجليد من أجل قطعانهم ، والزارعون يقاتلون ليستولوا على التربة العذراء ؛ وكل هؤلاء وأولئك كانوا يقاتلون حيناً بعد حين ليثأروا لقتل ، أو لينشئوا ناشئتهم على الصلابة والنظام ، أو ليجددوا الحياة الرتيبة المملولة ، أو ليظفروا بغنيمة يسلبونها أو أسيرة يخطفونها ، وقليلاً ما حارب هؤلاء وأولئك من أجل الدين ؛ نعم لقد كان بينهم أنظمة وعادات تحدد القتل ، كما هي الحال بيننا - فعينوا ساعات بعينها أو أياماً أو أسابيع أو أشهراً لا يجوز للهمجي الكريم النفس أن يقتل أحداً خلاها ؛ كذلك حددوا بعض القواعد لا يجوز عصيانها ، وبعض الطرق لا ينبغي أن يُعتدى عليها ، وبعض الأسواق والمستشفيات لا ينشب فيها قتال ؛ ومن هذا القبيل أن عملت « جمعية الأراكوا » على قيام « السلم الأعظم » مدى ثلاثمائة عام (٧) ، لكن الحرب مع هذا كله كانت هي الأداة المختارة للانتخاب الطبيعي بين الأمم والجماعات البدائية .

ولم يكن للنتائج المترتبة على الحروب نهاية تقف عندها فقد كانت عاملاً

لا يرحم في اقتلاع الشعوب الضعيفة والقضاء عليها ، ورفعت مستوى الإنسان من حيث الشجاعة والعنف والقسوة والذكاء والمهارة ؛ وحفزت الإنسان على الاختراع ، وأدّت إلى صنع آلات أصبحت فيما بعد أدوات نافعة ، ولّى اصطناع فنون للحرب سرعان ما انقلبت فنونا للسلام ؛ (فكم من السكك الحديدية اليوم تبدأ على أنها جزء من خطة القتال ، ثم تنتهى وسيلة من وسائل التجارة !) وفوق هذا كله عملت الحرب على انحلال الشيوعية والفوضى اللذين سادا الجماعات البدائية وأدخلت في الحياة نظاما وقانونا ، وأدت إلى استرقاق الأسرى وإخضاع الطبقات وقيام الحكومات ؛ فالدولة أمّها الميانكية وأبوها القتال .

الفصل الثاني

الدولة

باعتبارها تنظيماً للقوة - المجتمع القروي - الأركان النفسية للدولة

يقول نيتشه : « إن جماعة من الوحوش الكواسر شقراء البشرة » جماعة من الغزاة السادة ، بكل ما لها من أنظمة حربية وقوة منطّمة ، تنقض بمخالبها الخيفة على طائفة كبيرة من الناس ، ربما فاقتها من حيث العدد إلى حد بعيد ، لكنها لم تتخذ بعد نظاماً يحدد أوضاعها ... ذلك هو أصل الدولة « (٨) ، ويقول « لِسْتِرْ وورد » Lester Ward : « تبدأ الدولة - باعتبارها مخالفة عن النظام القبلي - بأن يغزو جنس من الناس جنساً آخر » (٩) ؛ ويقول « أو بنيمر » Oppenheimer : « إنك ترى أينما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدى على حدود قبيلة أخرى أقل منها استعداداً للقتال ، ثم تستقر في أرضها مكونةً جماعة الأشراف فيها ، ومؤسسة لها الدولة » (١٠) ؛ ويقول « راتسنهوفر » Tatzenhofer « العنف هو الأداة التي خلقت الدولة » (١١) ويقول « جيمبلووش » Gumplawicz إن الدولة نتيجة الغزو ، هي قيام الظافرين طبقة حاكمة على المهزومين (١٢) . ويقول « سَمْنِر » Sumner « إن الدولة نتيجة القوة وهي تظل قائمة بسند من القوة » (١٣) .

وهذا الإخضاع العنيف إنما يقع عادة على جماعة زراعية مستقرة ، من قبيلة من الصائدين والرعاة (١٤) لأن الزراعة تعلم الناس الأساليب المسالمة ، وتروضهم على حياة رتيبة لا يختلف يومها عن أمسها ، وتنهكهم بيوم طويل من عمل مجهد ؛ مثل هؤلاء الناس يجمعون ثروة ، لكنهم ينسون فنون الحرب ومشاعرها ؛ أما الصائد وأما الراعي ، وقد ألفا الخطر ومهراً في القتل ، فإنهما ينظران إلى الحرب

كأنها ضرب آخر من مطاردة الصيد ، لا تكاد تزيد عن المطاردة في خطرها ؛ فإذا نصب معين الغابات ولم يعد يمدح بما شتهون من صيد ، أو إذا ما قلت قطعانهم بسبب اضمحلال المراعى : فإن رجال الصيد والرعى عندئذ ينظرون بعين الحسد إلى حقول القرية بما تحوى من ثمار ، وسرعان ما يتحولون تبريراً للهجوم شأنهم في ذلك شأن المحدثين في استسهال هذا الانتحال ؛ ثم يغزون فيغلبون فيسترقون فيحكمون(*) الدولة مرحلة متأخرة في سلم التطور لم تكد تظهر قبل عهد التاريخ المدون ، لأن قيام الدولة يقتضى تغيراً في مبدأ التنظيم الاجتماعى من أساسه فيكون المبدأ هو أن يكون الحكم لمن يسيطر بدل أن يكون لذوى القرى كما كانت القاعدة السائدة في المجتمعات البدائية ، وإنما يكون نظام السيطرة في أنجح حالاته إذا ما ربط عدة جماعات طبيعية مختلفة ، بعضها ببعض برباط يفيدها من نظام وتجارة ؛ وحتى وهو في هذه الحالة تراه لا يدوم طويلاً إلا في القليل النادر ، اللهم إلا إن كان التقدم في الاختراع قد زاد من قوة القوى بأن وضع في يديه أدوات وأسلحة تمكنه من كبت الثورة إذا اشتعلت ؛ وفي حالة السيطرة الدائمة ترى مبدأ التسلط يميل إلى إخفاء نفسه حتى ليكاد يدس نفسه في ثنايا اللاشعور ؛ فلما ثار الفرنسيون سنة ١٧٨٩ أوشكوا ألا يتبينوا - حتى ذكّرهم بالحقيقة كاميل ديمولان Camille Desmolin - أن طبقة الأشراف كانت تحكمهم منذ ألف عام جاءتهم من ألمانيا وأخضعتهم لسلطانها بالقوة ؛ حقا إن الزمن ليخلع على كل شيء مسحة من قدسية ، حتى أُنخبث السرقات حين أن يبدو في أيدي أحفاد اللص الذى سرق ، ملكياً مقدساً لا يجوز عليه

(*) هذا القانون ينطبق على الجماعة الأولى وحدها ، لأنه حين تتمتع ظروف الحياة الاجتماعية ، يتدخل في الأمر عوامل أخرى هي التي تحدد الموقف : كازدياد الثروة وجودة السلاح والتفوق في الدكاء ، فصر لم ينفذها الهكسوس والآثيوبيون والعرب والأترك فحسب موكلهم من البدو - بل غزتها كذلك مدنات مستقرة من أشور وفارس واليونان وروما وانجلترا - وأوان هذه الأمم لم تغزها إلى حين انقلبت صائدة بدوية على نطاق الاستعمار الواسع .

اعتداء ؛ إن كل دولة تبدأ بالقهر لكن سرعان ما تصبح عادات الطاعة هي مضمون الضمير ثم سرعان ما يهتز كل مواطن بشعور الولاء للعلم .

والمواطن في ذلك على صواب ، فهما تكن بداية الدولة فسرعان ما تصبح دعامة لا غنى عنها للنظام ، لأنه إذا ما ربطت التجارة طائفة من القبائل والعشائر ، نشأت بين الناس علاقات لا تعتمد على القرابة بل تعتمد على ما بين الناس من اتصال ، وإذن فلا بد. لمثل هذه العلاقة من أساس للتنظيم يُصطنع لها اصطناعا ، ونستطيع أن نسوق مجتمع القرية مثلا لذلك : فالقرية هي التي حلت محل القبيلة والعشيرة وأصبحت هي صورة التنظيم الاجتماعي المحلي ؛ فأقامت لنفسها حكومة بسيطة تكاد تكون ديمقراطية ، حكومة قوامها مناطق صغيرة يجتمع عنها رؤساء الأسر ؛ لكن مجرد وجود هذه الجماعات وكثرة عددها ، استلزم تدخل قوة خارجية تنظم ما بينها من علاقات ، وتنسجها جزءاً من شبكة اقتصادية أوسع ، والدولة هي التي سدّت هذه الحاجة مهما يكن فيها مما يخيف ويُنزع أول أمرها ؛ لأنها لم تعد قوة منظّمة وكفى ، بل أصبحت كذلك أداة توأمت بين مصالح مئات الجماعات المتضاربة التي منها يتألف المجتمع في صورته المركبة ، ولما تم للدولة ذلك مدّت حبالها من سلطان وقانون وأخذت توسّع نطاقها شيئاً فشيئاً ؛ وعلى الرغم من أنها صيرت الحرب الخارجية أكثر تخريباً مما كانت قبل تكوينها ، إلا أنها استطاعت أن توسّع السلام الداخلي وتثبت أركانه ؛ ولك أن تعرف الدولة بأنها سلام في الداخل استعداداً للحرب في الخارج ؛ ولم يلبث الناس أن يتبينوا أن دفع الضرائب للدولة خير لهم من التقاتل بعضهم مع بعض ، خير لهم أن يدفعوا الجزية للص وياخذ عظيم من أن يدفعوا الرشوة للجميع ، وإذا أردت أن تعلم ماذا عسى أن يقع في مثل هذا المجتمع إذا خلا من الحاكم لفترة من الزمن ؛ فانظر ماذا تصنع جماعة « الباجنندا » التي اضطر كل رجل فيها حين مات الملك أن يسلم نفسه ،

لأن الخارجين على القانون أنشبوأ أظفار الفوضى والقتل والنهب أرجاء البلاد جميعاً^(١٥) ؛ وقد صدق « سبنسر » حين قال : « إنه بغير حكم أوتوقراطي كان يستحيل على تطور المجتمع أن يبدأ مراحلها »^(١٦) .

على أن الدولة التي تعتمد على القوة وحدها سرعان ما يتقوض بناؤها ، لأن الناس وإن يكونوا بطبعهم أغراراً ، فهم كذلك بطبعهم ذوو عناد ؛ والقوة مثل الضرائب تبلغ أكثر نجاح لها إذا ما كانت خفية غير مباشرة ؛ ومن هنا بلحات الدولة - لكي تبقى على نفسها - إلى أدوات كثيرة تستخدمها وتصطنعها في بث تعاليمها - كالأسرة والكنيسة والمدرسة - حتى تبتز في نفس المواطن عادة الولاء للوطن والفخر به ؛ ولقد أغناها هذا التنشيط عن مئات من رجال الشرطة ، وهيئة الرأي العام للتماسك في طاعة وانصياع ، فمثل هذا التماسك لا بد منه في حالة الحرب ؛ وفوق هذا كله فإن الأقلية الحاكمة حاولت أن تحول سيادتها التي فرضتها على الناس فرضاً بقوتها إلى مجموعة من القوانين من شأنها أن تُبَسِّطَ سلطانها من جهة ، وأن تقدم للناس ما يرحبون به من أمن ونظام من جهة أخرى وهي تعترف بحقوق « الرعية »^(*) اعترافاً تستميلها به إلى قبول القانون ومناصرة الدولة .

(*) الكلمة بالإنجليزية Subject وفيها معنى الخضوع ، ولذلك كتب المؤلف هامشا يقول : لاحظ كيف تكشف هذه الكلمة عن أصل الدولة . (المعرب)

الفصل الثالث

القانون

انعدام القانون - القانون والعادة - الثأر - الغرامات
المحاكم - المحنة - المبارزة - العقاب الحرية البدائية

يأتى القانون مصاحباً للملكية والزواج والحكومة ؛ فأحط المجتمعات
تُدبّر أمرها بغير قانون ؛ يقول « ألفرد رسل ولاس » : « لقد عشت مع
جماعات الهمج في أمريكا الجنوبية وفي الشرق ، ولم أجد بينهم قانون ولا محاكم
سوى الرأى العام الذى يعبر عنه أهل القرية تعبيراً حراً ، فكل إنسان يحترم
حقوق زملائه احتراماً دقيقاً ، فالاعتداء على هذه الحقوق ينذر وقوعه
أو يستحيل ، إن الناس جميعاً في مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً » (١٧) ؛
وكذلك كتب « هرمان ملفيل » Herman Melville شيئاً كهذا عن أهل
جزيرة ماركساس Marquas فقال : « أثناء وجودى بين قبيلة « النابى »
Typees لم يُقدّم أحد قط للمحاكمة بتهمة الاعتداء على غيره من الناس ؛
وسار كل شىء في الوادى سيراً هادئاً متسقاً على صورة لا تجد لها مثيلاً في
الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها خيرها وأصفها وأتقها ؛ وإن في هذا
القول منى لجرأة أستبيحها لأنه قول الصدق » (١٨) ؛ ولقد أقامت حكومة
الروسيا القديمة دوراً للمحاكم في جزر ألوشيا لكنها لم تصنع شيئاً قط مدى
خمسین عاماً ، ويقول « برنتن » Printon : « كانت الجرائم والاعتداءات
في قبيلة إراكوا من القلة في ظل نظامهم الاجتماعى بحيث تكاد لا تجد
ما يبرر أن تقول إن لهم قانوناً للعقوبات » (١٩) ، هذه هى الظروف المثالية
أو ربما كانت صورتها المثالية من خلقنا نحن - التى يتمنى الفوضويون عودتها

لكن هذه الصورة يجب أن تعدّل بعض التعديل ؛ فالجماعات الفطرية تتمتع بحرية نسبية من قيود القانون ؛ أولاً لأنها محكومة بعادات هي في صرامتها وفي استحالة الخروج عليها كأى قانون ، وثانياً لأن جرائم العنف في أول الأمر تعتبر مسائل خاصة يُتَمَسَّحُ فيها بالتأثر الشخصى الذى تُسْفَح فيه الدماء .

إن التقاليد لتكوّن أساساً ثابتاً مكيناً تراه مستقراً تحت الظواهر الاجتماعية كلها ؛ فهى بمثابة الصخرة الراسخة فى أسفل البناء ، وقوامها ألوان الفكر وضروب الفعل التى خلع عليها مرّ الزمان هالة من تقديس ، وهى تُمَدُّ للمجتمع بشيء من الثبات والنظام إذا ما انتفى القانون أو تغير أو اضطرب ؛ فالتقاليد فيما تعطيه للجماعة من استقرار تشبه الوراثة والغرائز فيما تعطيه من استقرار للنوع البشرى ، كما تشبه العادات بالقياس إلى الفرد الواحد ؛ والتقاليد هى الاطراد المكرور الذى يحفظ للناس عقولهم فى رءوسهم لأنه إذا لم تكن لدى الإنسان هذه القنوات التى ينزلق فيها التفكير والعمل انزلاقاً لا شعورياً يسيراً ، لاضطر العقل أن يتردد لزاء كل شيء وسرعان ما يلوذ بالحنون مهرباً ؛ والغرائز والعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية كلها تتحدد وفق قانون اقتصادى يستغنى بالقليل عن الكثير ، لأن العمل الآلى هو أنسب طريقة يستجيب بها الإنسان للمثير الخارجى إذا تكرر ، أو للموقف المعين إذا تجدد حدوثه ؛ أما التفكير الأصيل والتجديد فى السلوك فهو اضطراب فى مجرى الاطراد ، ولا يستطيعه الإنسان إلا فى الحالات التى يريد فيها أن يغيّر من سلوكه المألوف بحيث لا يتم الموقف الذى يحيط به ، أو فى الحالات التى يأمل فيها أن يكافأ على تجديده وتفكيره كسباً موفوراً .

فإذا أضيف إلى هذا الأساس الطبيعى وهو التقاليد ، تأمين يأتيه من السماء عن طريق الدين ، وأصبحت تقاليد آبائنا هى كذلك ما تريده لنا الآلهة من سلوك ، عندئذ تصبح التقاليد أقوى من القانون ، ويبعد الإنسان عن حرّيته البدائية بعداً جوهرياً ؛ إنك إذا تجاوزت حدود القانون فقد كسبت إعجاب نصف

الناس الذين يحسدون في أعماق نفوسهم كل من يستطيع أن يتغلب بذكائه على هذا العدو القديم ؛ أما إذا تجاوزت حدود التقاليد فأنت حين أن تصطدم بمقت الجميع لأن التقاليد تنشأ من الناس أنفسهم ، بينما يفرض عليهم القانون فرضاً من أعلى ؛ القانون عادة مرسوم قضى به السلطان ، أما التقاليد فهي الانتخاب الطبيعي لألوان السلوك التي ثبتت صلاحيتها في خبرة المجتمع ، والقانون يأخذ في حلوله محل التقاليد حين تحل الدولة محل الأسرة والقبيلة والعشيرة والمجتمع القروي ، وكلها أنظمة طبيعية ؛ ثم يتم حلول القانون محل التقاليد حين تظهر الكتابة ، وتندرج القوانين في انتقالها من تشريع يهبط إلى الخلف عن طريق ذاكرات الشيوخ والكهنة ، إلى نظام تشريعي صريح مكتوب على ألواح ، لكن حلول القانون محل التقاليد لم يكتمل في يوم من الأيام ؛ وستظل التقاليد حتى النهاية هي القوة الكامنة وراء القانون حين يقرر الإنسان أى نوع من السلوك ينبغي أن يسلك ، وحين يحكم على أنواع السلوك بالخير والشر ؛ ستظل التقاليد حتى النهاية هي القوة الكامنة وراء العرش ، « هي الحكم الأخير الذى يقضى في حياة الإنسان » .

وأول المراحل في تطور القانون أخذ الإنسان لنفسه بالتأثر فيقول الرجل من البدائيين : « إن الثأر ثأرى وسأردّ عن نفسى ما لحقّ بي » ، وكل فرد من القبائل الهندية التي تسكن « كالفورنيا السفلى » هو لنفسه الشرطي وهو الذى يقيم لنفسه ميزان العدل بما تسعفه قوّته من الثأر ؛ ففي مجتمعات بدائية كثيرة إذا حدث لشخص « ا » أن اغتال شخصاً آخر هو « ب » كانت النتيجة أن يُقتل « ا » على يد ابن « ب » أو صديقه . ولترمز له بالحرف « ح » ، ثم يُقتل هذا الابن أو الصديق على يد شخص رابع هو « د » يكون ابن « ا » أو صديقه وهكذا حتى تنهى أحرف الهجاء ، وإنك لترى أمثلة للثأر في أنبي العائلات الأمريكية دماً في يومنا هذا ، ولقد امتد الثأر ما امتد القانون نفسه في عصور

التاريخ ، وهو يظهر في « القصاص » المذكور في القانون الروماني ؛ والقصاص يلعب دوراً كبيراً في تشريع حورابي ، وتراه في أمر « موسى » بأن تكون « العين بالعين والسن بالسن » وهو ما يزال كامناً وراء الكثرة الغالبة من العقوبات القضائية حتى اليوم .

والخطوة الثانية نحو القانون والمدنية من حيث التصرف إزاء الجريمة ، هي الأخذ بالتعويض بدل الثأر ، فكثيراً جداً ما استعمل الرئيس سلطته أو نفوذه لكي يحافظ على حُسن العلاقات بين أفراد جماعته - ليحمل الأسرة الراجعة في الأخذ بالثأر على أن تستبدل بالدم المطلوب ذهباً أو متاعاً ؛ ثم ما هو إلا أن نشأت « تعريفة » قانونية ، تحدّد كم من المال ينبغي أن يدفع ثمناً للعين وكم للسن وكم للذراع وكم للحياة ، وقد توسع حورابي في تشريعه على هذا الأساس ؛ وقد كان أهل الحبشة غاية في الدقة في العقوبة بالقصاص بحيث إذا سقط صبي من أعلى الشجرة على زميله وقتله ، فإن القاضى يحكم بأن ترسل الأم الثكلي ابناً آخر من أبنائها ليسقط من أعلى الشجرة على عنق الصبي الذى اقترف الذنب أول مرة (٢١) ، والعقوبات التى تُفدّر في حالة التعويض . قد تختلف باختلاف جنس المعتدى والمعتدى عليه ، وعمره ومنزلته ، فالفيجيون - مثلاً - يعتبرون السرقة الطفيفة يأتيا إنسان من سواد الناس ، أشنع إجراماً من القتل يقترفه الرئيس (٢٢) وهذا ما حدث طوال تاريخ القانون ، فقداحة الجريمة كانت دائماً تقبل بعلو منزلة المجرم (*) ولما كانت هذه الغرامات أو التعويضات التى تدفع اجتناباً للثأر ، تتطلب تقديراً للجريمة وللتعويض بحيث يتلاءمان ، اتخذت خطوة ثالثة نحو القانون ، وهى قيام المحاكم ، حيث كان الرؤساء أو الكهنة أو الشيوخ يجلسون مجلس القضاة ليقضوا فيما ينشب بين الناس من خلاف ، ولم تكن هذه المحاكم

(*) يجوز لنا أن نستثنى من ذلك البراهما الذين اقتضاهم تشريع مانر أن تتحملوا عقوبة أعظم مما تنزل بأفراد الطبقات الدنيا على نفس الجريمة لكن هذا القانون لم يؤخذ به فعلاً .

دائماً مجالس تقضى كما يقضى القضاة ، بل كثيراً ما كانت مجالس لإصلاح ذات البين ، فكانت تصل بالمتخاصمين إلى حل يرضيهما معاً بصورة ودية(*) ؛ ولبت الالتجاء إلى المحاكم اختيارياً لدى كثير من الشعوب منذى قرون طوال ، وكان المعتدى عليه إذا لم يرضه الحكم الصادر في شأنه ، يباح له أن يأخذ ثأره بيده(٢٢) .

وفي حالات كثيرة كان البتُّ في أمر الخصومات يتم في صورة عراك يجرى على مرأى من الناس بين المتخاصمين ، وكان هذا العراك يختلف في مدى إراقتة للدماء ، من مباراة في الملاكمة لا يترتب عليها شيء من الأذى -- كما هي الحال بين الأسكيمو الحكماء -- إلى مباراة تنتهى بالموت ؛ وكثيراً ما لجأ البدائيون إلى اصطاع الخنة في فضِّ مشكلاتهم ، غير أنهم لم يقيموها على أساس النظرية التي سادت في القرون الوسطى بأن الله سيكشف عن الجرم عن طريق الخنة بقدر ما أقاموها على أساس من أمل بأن الخنة مهما بلغت من بعدها عن العدل ، ستختم نزاعاً قد تضطرب له القبيلة أجيالاً عدة إذا لم يُلجأ في فضِّه إلى الخنة ؛ ومن أمثلة ذلك أن المتهمَّ والمتهمَّ كليهما يطلب إليهما أن يختار كل منهما صحيفة طعام من بين صحفتين لإحداهما مسمومة ، وقد ينتهى هذا الاختيار بأن يأخذ الصحيفة المسمومة من هو برىء (والعادة ألا يكون أثر السم مما يستحيل الخلاص منه) لكن الخصومة تنتهى بهذا ، ما دام الفريقان يعتقدان في غير إرغام بعدالة مبدأ الخنة ؛ وقد كانت العادة عند بعض القبائل أن المذنب إذا اعترف بذنبه منذ ساقه للمعتدى عليه ليطعنها برمح ؛ أو يُطلب إلى المتهمَّ أن يصمد للرمح يقذفه بها متهموه ، فإذا أخطأته الرماح جميعاً ، أعلنت براءته ، أما إذا أصابه ولورمح واحد ، حكم بإدانته وفُضَّ الخلاف(٢٣)

وهكذا هبط مبدأ الخنة خلال العصور ، بادئاً من تلك الصور البدائية إلى

(*) : بعض المدن الحديثة جداً تحاول اليوم أن تحيي هذا النظام القديم الذى يوفر الوقت .

قوانين موسى وحمورابي ثم إلى العصور الوسطى ؛ والمبارزة ضرب من ضروب المحنة ، وقد ظن المؤرخون أنها قد انقضى عهدا ، لكنها في طريقها إلى العودة من جديد في أيامنا هذه ، وهكذا ترى الفارق بين الإنسان البدائي والإنسان الحديث ضيقاً صغيراً في بعض جوانب الحياة ، وإن تاريخ المدينة لقصير .

ورابع الخطوات التي خطاها القانون في تطوره ، هي أن تعهد الرئيس أو تعهدت الدولة أن يحول دون الاعتداء وأن يُنزل العقاب بالمعتدى ؛ وليس بين فض النزاع وإنزال العقاب بالمعتدين وبين محاولة اتقاء وقوع النزاع إلا خطوة واحدة ؛ وهذا لم يَعمدُ الرئيس قاضيا وكفى ، بل أصبح إلى جانب ذلك مشرعا يسنُّ القوانين ، وأضيفت إلى مجموعة القوانين العامة الشائعة بين الناس ، والتي استمدوها من تقاليدهم مجموعة أخرى من « القوانين الوضعية » التي مصدرها مراسيم الحكومية ؛ ففي الحالة الأولى تصعد القوانين من أسفل ، وفي الحالة الثانية تهبط على الناس من أعلى ؛ وفي كلتا الحالتين ترى القوانين مصطبغة بمسحة السلف الغابر ، وتشمّ فيها رائحة الأخذ بالثأر الذي جاءت تلك القوانين بديلا له ؛ لقد كان العقاب في الجماعات البدائية قاسياً (٢٤) لأن تلك الجماعات لم تكن آمنة على حياتها ، ولذلك ترى صرامة العقاب تقلّ كلما ازداد النظام الاجتماعي قرارا .

وتستطيع القول بصفة عامة إن « حقوق » الفرد في المجتمع الفطري أقل منها في حالة المدنية ؛ فأينما وجهت النظر وجدت الإنسان يولد مكبلاً بالأغلال : أغلال الوراثة والبيئة والتقاليد والقانون ، والفرد في الجماعة البدائية يتحرك في شبكة من القوانين التي تبلغ بصرامتها وتفصيلاتها حداً يجاوز المعقول ، فألف تحريم يحدد سلوكه وألف إرهاب يشل إرادته ؛ إن أهل زيلنده الجديدة كانوا فيما يبدو للعين يعيشون بغير قانون ، لكنهم في حقيقة أمرهم كانت التقاليد تتحكم في كل مظهر من مظاهر حياتهم ؛ كذلك أهل البنغال تسيرهم التقاليد التي لا قبل لهم بتغييرها أو معارضتها ، فتحدد لهم طريقة الجلوس والقيام والوقوف والمشى والأكل والشرب

والنوم ؛ فالفرد أوشك ألا يكون في عرفهم كائناً مستقلاً بذاته في البيئة
القطرية ، ولم يكن يتمتع بالوجود الحق إلا الأسرة وإلا القبيلة والعشيرة
والمجتمع القروي ، فهذه الهيئات هي التي تملك الأرض أو تباشر السلطان ، ولم
يصبح للفرد وجود واقعي متميز من وجود مجموعته إلا بعد أن ظهرت الملكية
الخاصة التي هيأت له سلطاناً اقتصادياً ، وبعد أن ظهرت الدولة التي اعترفت
له بوجود قانوني وحقوق محددة (٢٥) ؛ إن الحقوق لا تأتي من الطبيعة ،
لأن الطبيعة لا تعرف من الحقوق إلا الدهاء والقوة ؛ إنما الحقوق مزايا
منحتها الجماعة للأفراد على اعتبار أنها تؤدي إلى الخير العام ؛ ولذا فالحرية
تُرفُّ اقتضاه اطمئنان الحياة ، والفرد الحر ثمرة أنتجتها المدينة ،
وعلامة تميّزها .

الفصل الرابع

الأسرة

وظيفتها في المدنية - موازنة القبيلة والأسرة - نمو العناية الأبوية -
عدم أهمية الوالد - انفصال الجنسين - حق الأمومة - منزلة المرأة
- وظائفها - أعمالها الاقتصادية - الأسرة الأبوية - إخضاع المرأة

لما كانت الحاجات الأساسية للإنسان هي الجوع والحب ، كانت الوظائف الرئيسية للتنظيم الاجتماعي هي تهيئة الموارد الاقتصادية ودوام البقاء من الوجهة البيولوجية ؛ فاتصال النسل في سلسلة من الأبناء حيوي كاتصال الطعام ؛ لهذا ترى المجتمع يضيف دائماً إلى الأنظمة الاجتماعية التي من شأنها أن تهيئ الراحة المادية والنظام السياسي ، أنظمة أخرى من شأنها أن تديم بقاء الإنسان في نسله ؛ ولقد لبثت القبيلة - حتى قيام الدولة قُرب بداية المدينة التاريخية بحيث أصبحت للنظام الاجتماعي مركزاً رئيسياً دائماً - لبثت القبيلة حتى ذلك العهد تتولى هذه المهمة الدقيقة ، مهمة تنظيم العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال المتعاقبة ؛ بل إنه حتى بعد قيام الدولة ، ظلت مقاليد حكومة الإنسان مستقرة في تلك الجماعة التي هي أعمق الأنظمة التاريخية جذوراً - وهي الأسرة ، إنه لبعيد الاحتمال أن يكون الإنسان الأول قد عاش في أسرات متفرقة ، حتى في مرحلة الصيد ؛ لأن ضعف الإنسان في أعضائه الفسيولوجية التي يدافع بها عن نفسه ، كان قميماً أن يجعل منه فريسة للكواسر التي لم تنزل تجوس في مناكب الأرض ؛ فالعادة في الطبيعة أنه إذا ما كان الكائن العضوي ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد ، لجأ إلى الاعتصام بأفراد من نوعه ، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء في عالم تمتلئ جنباته بالأنياب والمخالب والجلود التي يستحيل ثقسها ، وأغلب الظن أن

قد كانت هذه هي حالة الإنسان أول أمره ، فأنقذ نفسه بالتمسك في جماعة الصيد أولاً فالقبيلة ثانياً ؛ فلما حلت العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل القرى كبدأ للتنظيم الاجتماعي ، فقدت القبيلة مكانتها التي كانت تجعل منها قوام المجتمع ؛ وحل محلها في أسفل البناء الأسرة ، كما حلت الدولة محلها في قمته ، وعندئذ تولت الحكومة مشكلة استتباب النظام ، بينما أخذت الأسرة على نفسها أن تعيد تنظيم الصناعة وأن تعمل على بقاء الجنس .

ليس من طبيعة الحيوانات الدنيا أن تعنى بنسلها ، لذلك كانت إنائها تقذف بيضها في كميات كبيرة ، فيعيش بعضها وينمو ، بينما كثرتها الغالبة تُلْتَهَم أو يصبها الفساد ؛ إن معظم السمك يبيض مليون بيضة في العام ؛ وليس بين السمك إلا أنواع قليلة تبتدى شيئاً من العطف على صغارها ، وترى في خمسين بيضة تبيضها الواحدة منها في العام عدداً يكفي أغراضها ؛ والطيور أكثر من السمك عناية بالصغار ، فيفقس الطائر كل عام من خمس بيضات إلى اثنتي عشرة كل عام ؛ وأما الحيوانات الثديية التي تدل باسمها على عنايتها بأبنائها ، فهي تسود الأرض بنسل لا يزيد عن ثلاثة أبناء في المتوسط لكل أنثى في العام الواحد^(٢٦) ؛ إن القاعدة العامة في عالم الحيوان كله هي أن خصوبة النسل وفناءه يقلان معاً كلما ازدادت عناية الأبوين بالصغار ؛ والقاعدة العامة في عالم الإنسان من أول نشأته هي أن متوسط المواليد ومتوسط الوفيات يهبطان معاً كلما ازدادت المدنية صعوداً ؛ إن عناية الأسرة بأبنائها إذا ما حسنت ، مكنت النشء من مدة أطول يقيمونها تحت جناح الأسرة فيكمل تدريبهم ونموهم إلى درجة أكبر ، قبل أن يُقذف بهم ليعتمدوا على أنفسهم ، وكذلك قلّة المواليد تصرف الجهود البشرية إلى أوجه أخرى من النشاط بدل استنفاده كله في عملية النسل .

ولما كان يُعهد إلى الأم بأداء معظم ما تقتضيه العناية بالأبناء من خدمات ، فقد كان تنظيم الأسرة في أول أمرها (ما استطعنا أن ننفذ بأبصارنا خلخال ضباب

التاريخ) قائماً على أساس أن منزلة الرجل في الأسرة كانت نافهة وعارضة ،
بينما مهمة الأم فيها أساسية لا تعلوها مهمة أخرى ؛ والدور الفسيولوجي
الذى يقوم به الذكر في التناسل ، لا يكاد يستوقف النظر في بعض القبائل
الموجودة اليوم ، وربما كان الأمر كذلك في الجماعات البشرية الأولى ، شأن
الرجل من الإنسان في ذلك شأن الذكر من صنوف الحيوان التي تنادىها الطبيعة
للتناسل فيطالب العشير عشيره ويتكاثر النسل دون أن يورق وعيهم
أن يحلوا هذه العملية إلى أسباب ونتائج ؛ فسكان جزائر « تروبرياندا »
Trobian لا يعزون حمل النساء إلى الاتصال بين الجنسين بل يعلونه
بدخول شبح في جوف المرأة ، وإن هذا الشبح ليدخل جوفها عادة إذ هي
تستحم ؛ فتقول الفتاة في ذلك « لقد عَصَّتْنى سمكة » ويقول مالينوفسكى
Malinowski : وسألتُ من يكون والد طفلٍ وُلِدَ سفاحاً ، أجابونى
كلهم بجواب واحد : إنه طفلٌ بغير والد لأن الفتاة لم تتزوج ، فلما سألتُ
في تعبير أصرح : من ذا اتصل بالمرأة اتصالاً فسيولوجياً فأنتسكت ، لم
يفهموا سؤالى . . . ولو أجابوا كان الجواب : إنه الشبح هو الذى وهبها
طفلها » ؛ وكان لسكان تلك الجزيرة عقيدة غريبة وهى أن الشبح أسرع
إلى دخوله امرأة أسلمت نفسها لكثير من الرجال فى غير تحفظ ؛ ومع ذلك
فإذا ما أراد النساء أن يجتنبن الحمل ، آثرن ألا يستحممن فى البحر إذا علا
مدُّه ، على أن يمتنعن عن اتصالهن بالرجال (٢٧) وإنها لعقيدة ممتعة لا بد أن
قد أراحت الناس من عناء كبير كلما أعقب استسلام المرأة للرجل نتيجة
تسبب شيئاً من الحيرة ، وما كان ألدها عقيدة لو أنها انتسحت للأزواج
كما انتسحت لعلماء الأجناس البشرية .

وأما أهل ماليزيا فقد عرفوا أن الحمل نتيجة الاتصال بين الجنسين ، لكن
الفتيات اللاتي لم يتزوجن يُصْرِرْنَ على أن حملهن قد سببه طن لون من الطعام
أكلته (٢٨) وحتى بعد أن أدركوا وظيفة الذكر فى التناسل ، كانت العلاقات الجنسية

من الاضطراب بحيث لم يكن يسيراً عليهم أن يحددوا لكل طفل أباه ؛ ونتيجة ذلك هي أن المرأة البدائية الأولى قلّما كانت تعنى بالبحث عن يكون والد طفلها ؛ إن الطفل طفلها هي ، وهي لا تنتمي إلى زوج بل إلى أبيها - أو أخيها - وإلى القبيلة ، لأنها إنما تعيش مع هؤلاء ، وهؤلاء هم كل الأقارب الذكور الذين يعرفهم الطفل^(٢٩) على أنهم ذوو قرباه ، لهذا كانت روابط العاطفة بين الأخ وأخته أقوى منها بين الزوج وزوجته ، وفي كثير من الحالات كان الزوج يقيم مع أسرة أمه وقيبتها ، لا يرى زوجته إلا زائراً متستراً ، وحتى في المدينة القديمة كان الأخ أعزّ عند المرأة من زوجها ، فزوجة « انتافرنيز » أنقذت أخاها لا زوجها من غضبة « دارا » كذلك « انتجوننا » ضحّت بنفسها من أجل أخيها لا من أجل زوجها^(٣٠) « فالفكرة القائلة بأن زوجة الرجل هي أقرب إنسان في الدنيا إلى قلبه ، فكرة حديثة نسبياً ، ثم هي فكوة لا تراها إلا في جزء صغير نسبياً من أجزاء الجنس البشري »^(٣١) .

إن العلاقة بين الوالد والأبناء في المجتمع البدائي هي من الضعيف بحيث يعيش الجنسان منفصلين في عدد كبير من القبائل ؛ ففي اسراليا وغيانا البريطانية الجديدة ، وفي إفريقيا وميكرونيزنا ، وفي أسام وبورما ، وبين الأوشيين والإسكيمو والساموديين ، وهنا وهناك من أرجاء الأرض ، قد ترى إلى اليوم قبائل لا تجد فيها للحياة العائلية أثراً فالرجال يعيشون معتزلين النساء ، ولا يزورونهن إلا لماماً ، حتى الطعام ترى كلا من الفريقين يأكل بعيداً عن الآخر ؛ وفي شمالى پاپوا لا يجوز للرجل أن يُرى مجتمعاً بامرأة أمام الناس حتى وإن كانت تلك المرأة أم أبنائه ؛ والحياة العائلية ليست معروفة في « تاهيتى » على الإطلاق ، ومن انفصال الجنسين على هذا النحو تنشأ العلاقات السرية - عادة الاتصال بين الرجال والرجال - التي تراها في كل الأجناس البدائية ، وهي مهترّب يلوذ به الرجال في

كثير من الحالات فراراً من المرأة^(٣٢) ؛ وهذه العلاقات السرية لها شبيهة في حياتنا الحاضرة وإن اختلفت في وجهها فهذه وايدة تلك .

إذن فأبسط صور العائلة هي الأم وأبناؤها تعيش بهم في كنف أمهم أو أخيها في القبيلة ؛ وهذا النظام نتيجة طبيعية للأسرة عند الحيوان ، التي تتكون من الأم وصغارها ، وهو كذلك نتيجة طبيعية للجهل البيولوجي الذي يتصف به الإنسان البدائي ؛ وكان لهذا النظام العائلي بديل آخر في العهد الأول ، وهو « الزواج الذي يضيف الزوج إلى أسرة زوجته » ، إذ يقضى هذا النظام أن يهجر الزوج قبيلته ليعيش مع قبيلة زوجته وأسرته ويعمل من أجلها أو معها في خدمة والديها ؛ فالأنساب في هذه الحالة يُقتَمَى أثرها في جانب الإناث ، والتوريث يكون عن طريق الأم ؛ حتى حق العرش أحياناً كان يهبط إلى الوارث عن طريق الأم لا عن طريق الزوج^(٣٣) ؛ على أن هذا الحق الذي للأومومة ليس معناه سيطرة المرأة على الرجل^(٣٤) ؛ لأنه حتى إن ورثت الأم أبناءها فليس لها على ملكها هذا الذي تُورثه إلا قليلاً من السلطان ؛ وكل ما في الأمر أن الأم كانت وسيطة تتعقب الأنساب ، لأنه لولا ذلك لأدّى إهمال الناس عندئذ في العلاقات الجنسية وإباحيتهم إلى انبهاام معالم القرْبى^(٣٥) ، نعم إن للمرأة نفوذاً في أى نظام اجتماعي كائناً ما كان ولو إلى حد محدود ، هو نتيجة طبيعية لخطر مكانتها في المنزل ، ولأهمية وظيفتها في التصرف في الطعام ولاحتياج الرجل إليها وقدرتها على رفضه ؛ ولقد شهد التاريخ أحياناً حاكمات من النساء بين بعض قبائل أفريقيا الجنوبية ، ولم يكن في مستطاع الرئيس في جزر « بليو » أن ينجز شيئاً هاماً إلا إذا استشار مجلساً من عجائز النساء ، وكان للنساء في قبيلة « إراكوا » حق يعادل حق الرجال في إبداء الرأي وفي التصويت إذا اجتمع مجلس القبيلة^(٣٦) ؛ وكان للنساء بين هنود سنكا قوة عظيمة قد تبلغ بهن حق اختيار الرئيس ، هذا كله صحيح ، لكنها حالات نادرة لا تقع إلا قليلاً ، أما في أكثر الحالات فنزلة المرأة في

الجميعة البدائية كانت منزلة الخاضع التي تدنو من الرق ؛ فمعجزها الذي يعاودها مع الحيض ، وعدم تدريبها على حمل السلاح ، واستنفاد قواها من الوجهة البيولوجية بسبب الحمل والرضاعة وتربية الأطفال ، كل ذلك عاقها في حرها مع الرجال ، وقضى عليها أن تنزل منزلة دنيا في كل الجماعات إلا أذناها وأرقاها ؛ ولم يستتبع تقدم المدنية بالضرورة أن ترفع مكانة المرأة ، ففي اليونان أيام بركليز كتب عليها أن تكون مكانتها أقل من مكانتها بين هنود أمريكا الشمالية ؛ إن مكانة المرأة ترتفع أو تهبط تبعاً لاختلاف أهمية الرجل في القتال ، أكبر منها تبعاً لازدياد ثقافة الرجال وتقدم أخلاقهم .

كانت المرأة في مرحلة الصيد تكاد تؤدي الأعمال كلها ما عدا عملية الصيد نفسها ؛ وأما الرجل فكان يسترخي مستريحاً معظم العام في شيء من الزهو بنفسه ، لقاء ما عرض نفسه لمصاعب الطراد وأخطاره ، كانت المرأة تلد الأطفال بكثرة وتربهم وتحفظ الكوخ أو الدار في حالة جيدة ، وتجمع الطعام من الغابات والحقول وتطهى وتنظف وتصنع الثياب والأحذية^(٣٧) ؛ فإذا انتقلت القبيلة من مكان لم يكن الرجل ليحمل سوى أسلحته لأنه كان مضطراً أن يكون على أهبة الاستعداد للملاقاة العدو إذا هجم ، وإذن فقد كان على النساء أن يحملن كل ما بقي من متاع ، والنساء من قبيلة « البوشمن » كن يُستخدمن خادمات وحاملات للأثقال ، فإذا تبين أنهن أضعف من أن يسايرن الركب في رحلته ، تُركبن في الطريق^(٣٨) ، ويروى أن سكان نهر ميري الأدنى حين رأوا قطعاً من الثيران ظنوا أنها زوجات الرجال البيض^(٣٩) ، وإن ما تراه بين الرجال والنساء اليوم من تفاوت في قوة البدن لم يكده يكون له وجود فيما مضى ، وهو الآن نتيجة البيئة وحدها أكثر منه أصيلاً في طبيعة المرأة والرجل : كانت المرأة إذ ذاك - لو استثنيت ما يقعدها أحياناً من عوامل بيولوجية - مساوية للرجل تقريباً في طول قامته ، وفي القدرة على الاحتمال وفي سعة الحياة والشجاعة ؛

ولم تكن بعد قد أصبحت مجرد زينة وتحفة ، أو مجرد لعبة جنسية ، بل كانت حيوانا قوى البنية قادراً على أداء العمل الشاق مدى ساعات طويلة ، بل كانت لها القدرة - إذا دعت الضرورة - على المقاتلة حتى الموت في سبيل أبنائها وعشيرتها ؛ قال رئيس من رؤساء قبيلة « تَشِيْوَا » Chippewas « خلق النساء للعمل ، فالواحدة منهن في وسعها أن تجرّ من الأثقال أو تحمل منها ما لا يستطيعه إلا رجلان ، وهن كذلك يُقِمْنَ لنا الخيام ويصنعن الملابس ويُصَلِّحُنَّها ويُدْفِئُنَّنا في الليل . . . إنه ليستحيل علينا أن نرحل بغيرهن ، فهن يعملن كل شيء ولا يُكَلِّفُنَّ إلا قليلا ؛ لأنهن ما دمن يقمن بالطهي دائماً ، فإنهن يقمن في السنين العجاف بلعن أصابعهن » (٤٠)

إن معظم التقدم الذي أصاب الحياة الاقتصادية في المجتمع البدائي كان يُعزى للمرأة أكثر مما يعزى للرجل ؛ فبينما ظل الرجل قرونا مستمسكا بأساليبه القديمة من صيد ورعى ، كانت هي تُطَوِّرُ الزراعة على مقربة من محالّ السكنى ، وتباشر تلك الفنون المنزلية التي أصبحت فيما بعد أهم ما يعرف الإنسان من صناعات ؛ ومن « شجرة الصوف » - كما كان الإغريق يسمون نبات القطن - جعلت المرأة تغزل الخيط وتنسج الثياب القطنية (٤١) ؛ وهي التي - على أرجح الظن - تقدمت بفنون الحياكة والنسج وصناعة السلال والخزف وأشغال الخشب والبناء ، بل هي التي قامت بالتجارة في حالات كثيرة (٤٢) ؛ والمرأة هي التي طَوَّرَتِ الدار ، واستطاعت بالتدرج أن تضيف الرجل إلى قائمة ما استأنسته من حيوان ، ودرّبتة على أوضاع المجتمع وضروراته التي هي من المدينة أساسها النفسى وميلاطها الذى يمسك أجزاء البناء ؛ لكن لما تقدمت الزراعة وزاد طرحها ، أخذ الجنس الأقوى يستولى على زمامها شيئاً فشيئاً (٤٣) ؛ وكذلك وجد الرجل في ازدياد تربية الماشية مصدراً جديداً للقوة والثروة والاستقرار ؛ حتى الزراعة التي لا بد أن تكون قد بدت لعالمقة العصر القديم الأشداء عملاً بارداً ، أقبل عليها الرجل آخر الأمر بعد

أن كان يضرب جَوًّا في مناكب الأرض ، وبذلك انتزع الرجال من أيدي النساء زعامتهن الاقتصادية التي توفرت لهن حيناً من الدهر بسبب الزراعة ؛ وكانت المرأة قد استأنست بعض الحيوان ؛ فجاء الرجل واستخدم هذا الحيوان نفسه في الزراعة ، وبذلك تمكن من أن يحل محلها في الإشراف على زراعة الأرض ؛ هذا إلى أن استبدال المحراث بالمِعْرَقة قد تطلب شيئاً من القوة البدنية ، وبذلك مكّن للرجل أن يؤكد سيطرته على المرأة ؛ أضف إلى ذلك أن ازدياد ما يملكه الإنسان مما يمكن تحويله من مالك إلى مالك ، كالماشية ومنتجات الأرض ، أدى إلى إخضاع المرأة للرجل إخضاعاً جنسياً ، لأن الرجل طالبها بالإخلاص له إخلاصاً يبرر له أن يورث ثروته المتجمعة إلى أبناء تزعم له المرأة أنهم أبناؤه ؛ وهكذا نتقّد الرجل بالتدريج خطته ، واعترف للأبوة في الأسرة ، وبدأت الملكية تهبط في التوريث عن طريق الرجل ، واندحر حق الأمومة أمام حق الأبوة ، وأصبحت الأسرة الأبوية - أي التي يكون أكبر الرجال سناً على رأسها - هي الوحدة الاقتصادية والشرعية والسياسية والحلقية في المجتمع ؛ وانقلب الآلهة وقد كانوا قبلُ نساء في أغلبهم ، انقلبوا رجلاً ذوى لحى هم للناس بمثابة الآباء ، يحيط بهم من النساء « حرّيم » كالذي كان يحلم به ذوو الطموح من الرجال في عزلتهم .

كان هذا الانتقال إلى الأسرة الأبوية - الأسرة التي يحكمها الوالد - ضربة قاضية على منزلة المرأة ؛ فقد باتت هي وأبناؤها ، في أوجه الحياة الهامة جميعاً ، مملوكاً لأبيها أو لأخيها الأكبر ، ثم مملوكاً لزوجها ، إنها اشتريت في الزواج كما كان العبد يشترى في الأسواق سواء بسواء ؛ وهبطت ميراثا كما يهبط سائر المملك عند وفاة الزوج ، وفي بعض البلاد (مثل غانه الجدلدة ، وهبرديز الجدلده ، وجزر سليمان ، وفيجي ، والهند وغيرها) كانت تشق وتدفن مع زوجها الميت ، أو كان يطلب إليها أن تنتحر ، لكي تقوم على خدمته في الحياة الآخرة^(٤٤) وأصبح

للوالد الحق في أن يعامل زوجاته وبناته كما يشاء ويهوى إلى حد كبير جدا ،
فيهن ، ويبيعهن ، ويغيرهن ، لا يحده في استعمال حقه هذا إلا الظروف
الاجتماعية التي تفسح المجال لآباء غيره في استعمال حقوق مثل حقه ، وبينما
احتفظ الرجل بحقه في الاتصال الجنسي خارج داره ، طولبت المرأة - في
ظل الأنظمة الأبوية - وبالعبء التامة قبل الزواج ، وبالإخلاص التام بعد
الزواج ، وهكذا نشأ لكل جنس معيار خاص يُحكّم به على عمله .

إن خضوع المرأة بصفة عامة ، وقد كان موجودا في مرحلة الصيد ،
ثم ظل موجودا - في صورة أخف - خلال الفترة التي ساد فيها حق
الأمومة في الأسرة ازداد الآن صراحة وغلظة ؛ ففي روسيا القديمة ،
كان الوالد عند زواج ابنته يضربها ضربا رقيقا بسوط ، ثم يعطى السوط
للزوج (٤٥) ليذلّ بذلك على أن ضربها قد نيطت به منذ اليوم يتدّ لا يزال
الشباب يجرى في عروقتها ؛ وحتى الهنود الأمريكيون الذين ظل حق الأمومة
ساندا فيهم لم يرتفع عنهم قط ، كانوا يعاملون نساءهم معاملة خشنة
ويكلفونهم بأقذر الأعمال ، وغالبا ما ينادونهم بلفظ الكلاب (٤٦) وحياء
المرأة في كل مكان على وجه الأرض كانت تقوم بثمن أرخص من ثمن الرجل ،
وإذا وُلدت الأمهات بنات ، فلا تقام الأفراح التي تقام عند ولادة البنين حتى
أن الأمهات أحيانا ليقتلن بناتهن الوليدات ليخلصن من الشقاء ؛ والزوجات
في فيجي يشترهن الرجال كما يشاءون ، وغالبا ما يكون الثمن المدفوع بندقية (٤٧) ،
وفي بعض القبائل لا ينام الرجل وزوجته في مكان واحد خشية أن يُضعِفَ
تفَسُّ المرأة من قوة الرجل ، بل إن أهل فيجي لا يرون من المناسب أن ينام
الرجل في بيته كل ليلة ، وفي كاليدونيا الجديدة تنام المرأة في حظيرة بينما ينام
الرجل في الدار ، وفي فيجي كذلك يسمح للكلاب بالدخول في بعض المعابد ،
أما النساء فمحرام عليهن دخول المعابد إطلاقا (٤٨) وهذا الإقصاء للمرأة
عن المجتمعات الدينية موجود في الإسلام حتى يومنا هذا ، نعم إن المرأة

بغير شك قد تمتعت في كل العصور بهذا الضرب من السيادة الذى ينشأ عن استمرار الحديث ، وقد تفلح المرأة فى إخصجال الرجل أو لإرباكه أو هزيمته أحياناً (٤٩) لكن الرجل مع ذلك هو السيد والمرأة هى الخادمة ، فكان الرجل من قبيلة « الكفير » يشتري النساء كما يشتري الرقيق ، وإنما يشتريهن ليكنَّ له ضمان الحياة حتى مماته ، لأنه إذا حاز عدداً من الزوجات كافياً ، فسيظل ما بقى له فى الحياة من سنين مستريحاً من عناء العمل ، وعلين العمل كله ، ويعتبرُ بعض القبائل فى الهند القديمة نساء الأسرة جزءاً من الأملاك التى تورث جنباً إلى جنب مع الحيوان الداجن (٥٠) ؛ حتى الوصية الأخيرة من وصايا « موسى » لم توضح الفرق فى هذا الصدد توضحاً ظاهراً ، وفى بلاد الزنوج الإفريقية كلها ، لا يكاد النساء يختلفن عن الرقيق إلا فى كونهن مصدرراً للمتعة الجنسية إلى جانب النفع الاقتصادى ؛ ولقد كان الزواج فى بدايته صورة من صور القوانين التى تضبط الملكية ، وجزءاً من التنظيم الاجتماعى الذى يدبرُّ أمر العبيد (٥١) .

الباب الرابع

العناصر الخلقية في المدنية

لما كان المجتمع يستحيل قيامه بغير نظام ، والنظام لا يكون بغير قانون ، فلنا أن نعمها قاعدة من قواعد سير التاريخ ، بأن قوة التقاليد تناسب تناسباً عكسياً مع كثرة القوانين ، كما أن قوة الغريزة تناسب تناسباً عكسياً مع كثرة الأفكار ؛ وبعض القواعد لا بد منه حتى يعيش الناس بعضهم بعضاً ، وقد تختلف هذه القواعد في الجماعات المختلفة ، لكنها ينبغي أن تكون في جوهرها واحدة في الجماعة الواحدة ؛ وقد تكون هذه القواعد مواضع اتفق عليها الناس أو تقاليد أو أخلاقاً أو قوانين ؛ فأما المواضع فهي صور من السلوك وجدّ الناس أنها نافعة لحياتهم ، والتقاليد مواضع قبلتها الأجيال المتعاقبة ؛ والأخلاق هي التقاليد التي ترى الجماعة ألا غنى عنها لسعادتهم وتقدمهم بعد أن تعلمت من الانتخاب الطبيعي الذي يُبقى على الصالح ويزيل الفاسد خلال ما يصادفه الناس من تحارب يُجرونها في الحياة فيخطئون هنا وهناك ، هذه التقاليد الحيوية أو الأخلاق في الجماعات البدائية التي لا تعرف قانوناً مكتوباً تنظم كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية ؛ وتكسب النظام الاجتماعي اطراداً وثباتاً ؛ وهذه التقاليد إذا ما انقضت عليها الزمن وخلع عليها سحره شيئاً فشيئاً ، فإنها بطول تكرارها تصبح للفرد طبيعة ثانية ؛ إن جاوز حدودها شعر بالخوف أو القلق أو العار — وذلك هو أصل الضمير أو الحس الأخلاقي الذي اختاره داروين ليكون أظهر فاصل يفرق بين الحيوان والإنسان^(١) والضمير في مراحل تطوره العليا يصبح وعياً اجتماعياً — أي شعور الفرد بأنه ينتمي إلى جماعة معينة وأنه مدين لها بشيء من الولاء والاحترام ؛ وما الأخلاق سوى تعاون الجزء مع الكل ، ثم تعادل كل جماعة مع كل أعظم فالمدنية ، بطبيعة الحال كانت تستحيل بغير أخلاق ؛

الفصل الأول

الزواج

معنى الزواج - أصوله البيولوجية - الشيوعية الجنسية
زواج التجربة - زواج الجماعة - زواج الفرد - تعدد
الزوجات - قيمته في تحيين النسل - الزواج من غير
العشيرة - الزواج مقابل الخدمة - وبالأسر -
وبالشراء - الحب البدائي - وظيفة الزواج الاقتصادية

أول مهمة تؤديها التقاليد التي هي قوام التشريع الخلقى لجماعة من
الجماعات ، هي أن تنظم العلاقة بين الجنسين لأنها مصدر دائم للنزاع
والاعتداء وإمكان التدهور ؛ والصورة الأساسية لهذا التنظيم الجنسي هي
الزواج الذي يمكن تعريفه بأنه اتحاد العشيرين للعناية بالنسل ؛ وهو تنظيم
يختلف ويتغير من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان حتى لقد اجتاز
خلال تاريخه كل صورة ممكنة وكل تجربة ممكنة ، من العناية التي كان
يبدونها البدائيون بالنسل دون أن يكون بين العشيرين اتحاد في المعيشة ، إلى
ما نراه في عصرنا الحديث من اتحاد العشيرين في المعيشة بغير نسل يعنينا به .

كان الزواج من ابتكار أجدادنا من الحيوان ؛ فبعض الطيور فيما يظهر يعيش
معيشة الأزواج التي تنسل في رباط بين الزوجين لا يعرف الطلاق ، وبين الغورلا
والأورانجوتان يدوم اتصال الوالدين حتى نهاية فصل الإنسال ، ولاتصالها هذا
علامات كثيرة تشبه فيه بنى الإنسان ، وكل محاولة تحاولها الأنثى في اتصالها بذكر
آخر ، يعاقبها عليها عشيرها عقابا صارما^(٢) . ويقول « دى كرسپيني »
De Crespigny عن الأورانج في بورنيو « إنها تعيش في أسر : الذكر والأنثى
وصغيرهما » يقرر الدكتور سافدج Dr. Savage عن الغورلا « إنه من المؤلف

أن ترى الوالدين جالسين تحت شجرة يتسليان بالفاكهة يأكلانها وبالسنمر
يَسْنَمُرَان به ، بينما يأخذ أبناؤهما في القفز حولها والوثب من غضن إلى غضن
في مزح وزناط»^(٣) ولإذن فالزواج أعمق في التاريخ من بنى الإنسان .

والمجتمعات التي تخلو من الزواج نادرة ، لكن الباحث الخبيث يستطيع
أن يجد منها عددا يكفيه ليصور به مرحلة انتقال من الفوضى الجنسية التي
تسود الحيوان الأدنى إلى صنوف الزواج التي أخذ بها الإنسان البدائي ؛ ففي
« فوتونا » Futuna و « هواي » معظم الناس لم يتزوجوا إطلاقاً^(٤) ، وأهل
« لوبو » Lubu تعاشرُوا في إباحية وبغير اختيار أو تحديد ، ولم يكن في
رموسهم فكرة الزواج ، وكذلك بعض القبائل في بورنيو كانت تعيش
حياتها الجنسية بغير أن يكون الزواج هو الرباط الذي يربط الزوجين ، ولذلك
كانت العلاقة بين العشيرين أسهل انحلالاً مما نراه بين الطيور ، ولدى بعض
شعوب روسيا البدائية « كان الرجال يستعملون النساء بغير تمييز ، بحيث
لم يكن لامرأة زوجٌ معلومٌ » .

ولقد وصف الواصفون أقزام أفريقيا بأنهم لا يصطنعون أنظمة الزواج
في حياتهم ، بل تراهم « يشبعون غرائزهم الحيوانية إشباعاً كاملاً بغير
ضابط^(٥) » ؛ لكن هذا « التأميم للنساء » الذي يقابل الشيوعية البدائية في
الأرض والطعام ، زال في مرحلة مبكرة بحيث لم يعد من آثاره اليوم إلا
قليلاً ، ومع ذلك فقد لبثت بعض ذكرياته عالقة في الأذهان في صور
مختلفة : في شعور كثير من الشعوب الفطرية بأن وحدانية الزوجة - التي
يعرفونها بأنها احتكار رجل واحد لامرأة - يناق الطبيعة ويجافي الأخلاق^(٦) ،
وفي الأعياد التي نقيمها على فترات معلومة ونتحلل فيها من القيود الجنسية
موقتاً (ولا يزال هذا الشعور موجوداً بصورة ضعيفة في بعض أعيادنا) ،
وفي مطالبة المرأة بأن تُسَلِّم نفسها لأي رجل يطلبها قبل أن يُسْمَح لها
بالزواج^(*) - كما هي الحال في « معبد مايلتسا » Mylitta في بابل - ،

(*) راجع ذلك في الجزء الخاص ببابل في أجزاء هذا الكتاب .

وفي عادة إعارة الزوجة ، وهي عادة ضرورية بالنسبة إلى كثير من أخلاق الكرم كما يعرفها البدائيون ؛ وفي حق الليلة الأولى ؛ وهو حق كان يتمتع به الشريف في أوائل العهد الإقطاعي في أوروبا ، وربما كان الشريف في ذلك يمثل حقوق القبيلة القديمة ، وذلك الحق هو أنه يجوز للشريف أن يتفُضَّ بكارة العروس قبل أن يوذن للعريس بمباشرة الزواج (٦) .

ثم حلت بالتدرّج محل هذه العلاقات التي لم تعرف التحديد ألوان من اتحاد الرجل والمرأة كانت بمثابة التجريب ، فعند قبيلة « أورانج ساكاي » Orang Sakai في ملقا ، كانت المرأة تعاشر كل رجل من رجال القبيلة حيناً ، حتى إذا ما أتممت الدورة بدأت من جديد (٧) ، وبين قبيلة « ياكوت » Yakuts في سيبيريا ، وقبيلة « بوتوكودو » Botocudos في جنوب أفريقيا ، والطبقات الدنيا في التبت ، وكثير غير هذه من الشعوب ، كان الزواج تجريبياً خالصاً بمعنى أن كلاً من الزوجين له الحق في فضِّ العلاقة إذا شاء وبغير أن يبدي لذلك سبياً أو يطالب بالسبب ؛ وعند قبيلة « بوشمن » « يكنى أقل خلاف بين الزوجين لانحلال الزوجية ، ولا يلبث الزوجان أن يجد كل منهما زوجاً آخر » ، وعند قبيلة « داماترا » Damatras فيما يروى « سير فرانسز جولتُن Sir Francis Galton - « يتبدل الزوج مرة كل أسبوع تقريباً ، وقلّما استطعتُ أن أعرف إلا بعد استقصاء وبحث - مَنْ ذا كان زوجاً مؤقتاً لهذه السيدة أو تلك في وقت معين » وكذلك في قبيلة « بايلا » ينتقل النساء من رجل إلى رجل ويتَّرنَّ كُنَّ زوجاً لينتقلن إلى زوج آخر بمحض اختيارهن ؛ والفتيات اللاتي كيدن لا يجاوزن العشرين ، تجد للواحدة منهن في كثير من الحالات أربعة أزواج أو خمسة كلهم أحياء (٨) وكلمة الزواج في هواي معناها في الأصل « تجربة » (٩) ، وقد كان الزواج في تاهيتي منذ قرن حراً من القيود وينحلّ بغير سبب ما دام الزوجان لم يتسبلا ، أما إن أنجبا طفلاً فلهما أن يقتلاه دون أن يقع عليهما لوم من المجتمع ،

أو هما يقومان على تربيته وبذلك يبدأ حياة دائمة الصلات ، بحيث يتعهد الرجل للمرأة أن يعولها في معايل رعايتها للطفل ، التي أخذتها الآن على عاتقها (١٠) .

وكتب « ماركوپولو » عن قبيلة في آسيا الوسطى ، كانت تسكن إقليم بين Peyn (وهي تعرف الآن باسم كيريا) Keriya) في القرن الثالث عشر ، يقول : « إذا سافر رجل متزوج بحيث يبعُدَ عن بلده ليغيب في رحلته عشرين يوماً ، فلزوجته الحق - إذا شاءت - أن تتزوج من رجل آخر ؛ والمبدأ صحيح كذلك بالنسبة للرجال ، فيتزوجون حيث أقاموا » (١١) وهكذا ترى الأساليب الجديدة التي أدخلناها في زواجنا وأخلاقنا حديثاً قديمة في أصلها ؛ يقول « لِسْتِرْنُو » Letourneau عن الزواج : « لقد جُرِّبَتْ كل صورة من صور الزواج ، مما يتفق مع طول بقاء المجتمعات الهمجية والوحشية ، ولا يزال بعضها اليوم قائماً لدى أجناس مختلفة ، دون أن يطوف بأذهان أهلها أية فكرة من الأفكار الخلقية التي تسود أوروبا عادة » (١٢) ، فهناك تجارب أجريت في العلاقة بين الزوجين إلى جانب التجارب التي أجريت لاختبار مدة الزواج ؛ ففي حالات قليلة نرى « زواجاً جَمَاعِيّاً » بمعنى أن تتزوج طائفة من رجال ينتمون إلى جماعة من طائفة من النساء تنتمين إلى جماعة أخرى ، بحيث يكون الزواج جَمَعِيّاً بين الطائفتين (١٣) ؛ وفي التبت مثلاً كانت العادة أن تتزوج طائفة من الأشقاء طائفة من الشقيقات ، بحيث تقوم الشيوعية الجنسية بين الطائفتين ، لكل رجل أن يعاشر كل امرأة (١٤) ؛ ولقد روى قيصر عادة شبيهة بهذه في بريطانيا القديمة (١٥) وكان من بقاياها عادة الزواج بزوجة الأخ بعد موته ، وقد شاعت عند اليهود الأقدمين وغيرهم من الشعوب القديمة (١٦) ، وضاق لها صدر « أونان » ضيقاً شديداً .

فما الذي حدا بالناس أن يستبدلوا بالحالة البدائية التي كان الزواج فيها أقرب شيء إلى القوضى ، زواجاً فردياً ؟

إنه مما لا شك فيه أن الشهوة الجسدية ليست هي التي دفعت الناس إلى نظام الزواج ، لأنك لا تجد في الكثرة الغالبة من الشعوب الفطرية إلا قليلاً - ذلك إن وجدت شيئاً على الإطلاق - من القيود المفروضة على العلاقات الجنسية قبل الزواج ؛ ولأن الزواج بكل ما يسببه من مضايقات نفسية وبكل ما فيه من قيود ، يستحيل عليه أن ينافس الشيوعية الجنسية في إشباعها للميول الجنسية عند الإنسان ؛ كلا وليس نظام الزواج الفردى بمهيئ في بدايته جراً لتربية الأطفال يبدو بالبداية أنه خير لتربيتهم من رعاية الأم وأسرتها وعشيرتها ؛ إذن فلا بد أن يكون الدافع إلى الزواج وتطوره عوامل اقتصادية قوية الأثر ، وأرجح الظن (وهنا ينبغي أن نتذكر مرة أخرى أننا لا نعرف من بدايات الأشياء إلا قليلاً) أن هذه العوامل التي دفعت إلى نظام الزواج كانت مرتبطة بنشأة نظام الملكية .

جاء الزواج الفردى نتيجة لرغبة الرجل في أن يسترق لنفسه رقيقاً بضمن رخيص ، ونتيجة أيضاً لرغبته عن توريث ممتلكاته لأبناء غيره من الرجال ؛ وظهر من صور الزواج صورة تبيح للعشير أن يتعدد عشراؤه ، فالتخذت صورة تعدد الأزواج للزوجة الواحدة - كما هي الحال في قبيلة «تودا» Todas وبعض قبائل التبت (١٧) ، وإنما تظهر هذه العادة حينما زاد عدد الرجال على عدد النساء زيادة كبيرة (١٨) ، لكنها عادة سرعان ما تنتفي على يد الرجل القوي الغلاب ، ولم نعد نفهم من نظام تعدد العشاء للعشير الواحد إلا إحدى صورتيه . ألا وهي تعدد الزوجات للزوج الواحد ؛ ولقد ظن رجال الدين في العصور الوسطى أن تعدد الزوجات للزوج الواحد نظام ابتكره محمد ابتكاراً لم يسبق إليه ، لكنه في الواقع نظام سابق للإسلام بأعوام طوال ، لأنه النظام الذي ساء العالم البدائي (١٩) وهناك من الأسباب عِدَّة عملت كلها على تعميم هذا النظام ونشره . أولها أن حياة الرجال في المجتمع الأول كانت أشد عنفاً وأكثر تعرضاً للخطر بسبب اضطلاعهم بالصيد والقتال ، ولذا زاد الموت في الرجال عليه في النساء ، واطراد

الزيادة في عدد النساء يضع أمام المرأة اختياراً بين حالتين : فإما تعدد الزوجات للرجل الواحد ، وإما عزوبة عقيمة ليس عنها محيص لبعض النساء ، لكن مثل هذه العزوبة للمرأة لا تَنظَرُ إليها بعين الرضى شعوباً تريد نسبة عالية من الولادة تقابل بها نسبة عالية في الوفاة ، ولذا ترى أمثال تلك الشعوب تزدري المرأة العانس والمرأة العقيم ، وثانى هذه الأسباب أن الرجال يميلون إلى التنوع ، فالأمر كما عبّر عنه زواج أنجولا أنهم : « لم يكن في وسعهم أن يأكلوا دائماً طعاماً واحداً » ، كذلك يجب الرجال أن تكون عشيراتهم في سن الشباب ، والنساء يكتهن بسرعة في المجتمعات البدائية ، بل إن النساء أنفسهن كنّ أحياناً يُحَبِّدُن تعدد الزوجات ، حتى يباعِدُن بين فترات الولادة دون أن يُنْقِصُنَّ عند الرجل شهوته وحبّه للنسل ، وأحياناً ترى الزوجة الأولى ، وقد أمهظها عبء العمل ، تشجع زوجها على الزواج من امرأة ثانية حتى تقاسمها مشقة العمل ، وتنسل للأسرة أطفالاً يزيدون من إنتاجها وراثتها (٢٠) ، فالأبناء عند هؤلاء الناس كسب اقتصادى ، والرجال بمثابة من ينتفع بالزوجة انتفاعه برأس المال ، يستولدها الأبناء الذين يقابلون الربح في رأس المال ؛ ففي الأسرة الأبوية ، لا تكون الزوجة وأبناؤها إلا بمنزلة العبيد لرأس الأسرة وهو الرجل ، وكلما ازداد الرجل زوجات ازداد مالا ؛ وقد كان الفقير يتزوج من زوجة واحدة ، لكنه كان ينظر إلى ذلك نظرتة إلى وصمة العار . وينتظر اليوم الذى يعلو فيه إلى المنزلة العالية التى ينزلها صاحب الزوجات الكثيرة فى أعين الناس (٢١)

ولا شك أن تعدد الزوجات لاعم حاجة المجتمع البدائى فى ذلك الصدد أتم ملاءمة ، لأن النساء فيه يزدن عدداً على الرجال ؛ وقد كان لتعدد الزوجات فضل فى تحسين النسل أعظم من فضل الزواج من واحدة الذى نأخذ به اليوم ، لأنه بينما ترى أقدر الرجال وأحكمهم فى العصر الحديث هم الذين يتأخر بهم الزواج عن سواهم ، وهم الذين لا ينسلون إلا لأقل عدد من الأبناء ، ترى العكس فى ظل تعدد

الزوجات ، الذى يتيح لأقرب الرجال أن يظفروا - على الأرجح - بخير النساء ، أن ينسلوا أكثر الأبناء ، ولهذا استطاع تعدد الزوجات أن يطول بقاؤه بين الشعوب الفطرية كلها تقريباً ، بل بين معظم جماعات الإنسان المتحضر ، ولم يبدأ فى الزوال فى بلاد الشرق إلا فى عصرنا الحاضر ؛ لأنه قد تأمرت على زواله بعض العوامل ؛ فحياة الزراعة المستقرة حَدَّتْ من عنف الحياة التى كان يحياها الرجال وقلَّلتْ من أخطارها ، فتقارب الجنسان عدداً ؛ وفى هذه الحالة أصبح تعدد الزوجات المكشوف ، حتى فى الجماعات البدائية ، ميزة تتمتع بها الأقلية الغنية وحدها^(٢٢) أما سواد الناس فلا يجاوزون الزوجة الواحدة ؛ ثم يخففون وطأة ذلك على نفوسهم بالزنا ، بينما ترى أقلية أخرى آثرت العزوبة راضية أو كارهة ، فعادلت بهذا الامتناع ما يستولى عليه الأغنياء من زوجات كثيرات ، وكان عدد الجنسين كلما اقترب من التعادل زادت الغيرة فى الرجل على زوجته ، والحرص فى الزوجة على زوجها ؛ لأنه لما كان العدد قريباً من التساوى فى الجنسين تعذر على أقوياء الرجال أن يعددوا زوجاتهم ، لأنهم فى مثل هذه الحالة لا يجدون كثرة من الزوجات إلا إذا اغتصبوا زوجات الآخرين أو من سيكن زوجات للآخرين ، وإلا إذا أساءوا (فى بعض الحالات) إلى زوجاتهم ؛ نقول إنه فى مثل هذه الحالة يتعذر تعدد الزوجات بحيث لا يستطيعه إلا أوسع الرجال حيلة ، هذا إلى أنه لما ازداد تراكم الثروة فى أيدي بعض الرجال ، وكره هؤلاء أن يبعثوا ثروتهم هذه فى توريث عدد كبير من الأبناء لا يصيب الواحد منهم إلا قدر ضئيل ، آثر هؤلاء أن يفرقوا بين الزوجات « فزوجة رئيسية » ومحظيات ، حتى لا يقتسم الإرث إلا أبناء الزوجة الرئيسية ، ولبث الزواج على هذه الحالة فى آسيا حتى عصرنا الذى عاصرناه بجيلنا ، ثم أصبحت الزوجة الرئيسية بالتدريج هى الزوجة الواحدة ، وأما المحظيات فقد تعرضن لإحدى حالتين ، فإما بقين خليلات وراء الستار ، وإما عدل عنهن إطلافاً ، وذلك فضلاً عن أثر المسيحية حين دخلت

عاملاً جديداً ؛ فجعلت نظام الزوجة الواحدة في أوروبا - بدل تعدد الزوجات - هو النظام الذي يرتضيه القانون ، وهو الصورة التي تظهر فيها العلاقة الجنسية ؛ لكن نظام الزوجة الواحدة - شأنه شأن الكتابة ونظام الدولة - نظام صناعي نشأ والمدنية في وسطى مراحلها ، وليس هو بالنظام الطبيعي الذي يتصل بالمدينة في أصول نشأتها .

ومهما يكن أمر الصورة التي يتخذها الزواج فقد كان إجباراً بين الشعوب البدائية كلها تقريباً ، ولم يكن للرجل الأعزب منزلة في المجتمع ، أو عهداً مساوياً لنصف رجل فحسب (٢٣) . كذلك كان إجباراً على الرجل أن يتزوج من غير عشيرته . ولسنا ندري إن كانت هذه العادة قد نشأت لأن العقل البدائي داخله الشك فيما يترتب على زواج الأقارب من سوء النتائج أو لأن التصاهر بين الجماعات أوجد تحالفاً سياسياً مفيداً بينها ، أو زاد هذا التحالف قوة إن كان موجوداً بالفعل ، وبهذا زاد التنظيم الاجتماعي تقدماً وقلل من أخطار الحروب ؛ أو لأن انتزاع زوجة من قبيلة أخرى قد أصبح معدوداً بين الناس من علامات الرجولة التي اكتمل نضوجها ؛ أو لأن نشأة الصبي بين قريباته يقلل من قيمتهن في عينه ، وبعهد القريبات عنه يزيد في سحرهن ؛ وعلى كل حال فقد كان هذا التحديد في اختيار الزوجة عامماً شاملاً لكل الجماعات الأولى تقريباً ؛ وعلى الرغم من أن الفراعنة والبطالسة والإنكا قد وفقوا إلى تحطيمه بأن أقبلوا على زواج الأخ بأخته ، إلا أنه ظل قائماً بين الرومان كما يعترف به القانون الحديث ؛ وهذا التقليد لا يزال له أثره في سلوكنا - عن شعور أو لاشعور - حتى يومنا هذا .

فكيف كان يتاح للرجل أن يظفر بزوجه من قبيلة أخرى ؟ لما كانت الأسرة التي ترأسها الأم هي النظام السائد ، كان يُطلب إلى الزوج في كثير من الحالات أن يعيش مع عشيرة المرأة التي أراد زواجها ؛ فلما تطور نظام الأسرة الأبوية ، سُمح للخطيب أن يأخذ عروسه معه إلى عشيرته ، على شرط أن يقيم

فترة معلومة قبل ذلك في خدمة أبيها ، فثلاً خدام يعقوب لابان في سبيل زواجه من « ليحة » و « راشيل »^(٣٤) لكن الخطيب كان أحياناً يقتضب الأمر باصطناعه للقوة الصريحة الغاشمة ؛ وكان من حسنات الرجل ومميزاته أن يأخذ زوجته من أهلها قسراً ، فذلك يجعل منها أمة رخيصة من جهة ، كما يستولدها عبداً من جهة أخرى ، وهي إذا ما ولدت له هؤلاء الأطفال العبيد ، ازدادت بعبوديتها له صلةً وربطاً ؛ ومثل هذا الزواج الذي يتم بطريق الاغتصاب ، لم يكن القاعدة الشاملة ، لكنه كان يقع في العالم البدائي حيناً بعد حين ، فالنساء عند هنود أمريكا الشمالية جزء من أسلاب الحرب ، ولقد كان هذا السبب للنساء من الشيوخ بحيث ترى الأزواج وزوجاتهم في بعض القبائل يتكلمون لغات مختلفة ، فلا يفهم الزوج لغة زوجته ولا الزوجة لغة زوجها ؛ ولبت السلاف في روسيا والصرب يأخذون بزواج الاغتصاب أحياناً حتى القرن الماضي^(*)(٢٥) ؛ ولا تزال آثار هذه العادة قائمة في قيام العريس بدور المعتصب لعروسه في بعض احتفالات الزواج^(٢٧) ؛ وعلى كل حال فقد كانت نتيجة طبيعية لما كان بين القبائل من حروب كادت لا تنقطع ، كما كانت بداية طبيعية للحرب الناشئة بين الجنسين التي لاتسكن بالمهادنة إلا فترات قصيرة ، ولا تنام فتنتها إلا نوماً قلقاً بغير أحلام .

فلما زادت الثروة بات أيسر على الخطيب أن يدفع لوالد العروس هدية ثمينة - أو مبلغاً من المال - ثمناً لابنته ، من أن يخدم عشيرة غير أهله للحصول عليها ، أو يخاطر بما عسى أن يترتب على اغتصابها من قتال وإراقة للدماء ؛ ونتيجة ذلك أن أصبح الزواج بالشراء تحت إشراف الوالدين ، هو القاعدة

(*) بظن بريفر Briffault أن الزواج بالاغتصاب كان مرحلة انتقال من نظام الأسرة التي تسودها الأم إلى النظام الأبوي في الأسرة . ذلك أن الرجل لما رفض العيش مع عشيرة زوجته اضطرها إلى العيش بين أهله^(٢٦) ، ويرى « لپير » Lippert أن الزواج من امرأة غريبة عن الأسرة كان بديلاً سلمياً لزواج الاغتصاب^(٢٦) كما تطورت المرفة بالتدريج إلى تجارة .

السائدة في المجتمعات الأولى (٢٨) وحَدَّثَتْ خلال ذلك حلقات وسطى تَمَّ فيها الانتقال ؛ فأهل مالينزيا كانوا يسلبون زوجاتهم سلباً ، لكنهم كانوا يعودون بعدئذ فيجعلون هذه السرقة مشروعة بأن يدفعوا الأسرة الزوجة مبلغاً من المال ؛ كذلك عند بعض أهالي غانة الجديدة كان الرجل يخطف الفتاة ، وبينما هما في مخبئهما ، يرسل أصدقاؤه ليساووا أباهما في ثمنها (٢٩) ؛ وإنه لممّا ينير طريق التفكير أمامنا أن نذكر كيف يسهّلُ التغلب بالمال على مقاومة لوضع من الأوضاع الخلقية ؛ فيروى عن أم من قبيلة « ماورى » Maori أنها أخذت تبكي بصوت عالٍ ، وتستنزل أمراً للعنات على الشاب الذي اختطف ابنتها ، حتى جاءها هذا الشاب بهدية هي غطاء من الصوف ، فقالت ؛ « هذا كل ما أردته ، أردت أن أظفر بهذا الغطاء الصوفى فجعلتُ أصبح بالبكاء » (٣٠) ، لكن ثمن العروس كان يزيد عادة على غطاء من الصوف ، فثمنها عند الهوتنتوت ثور أو بقرة ، وعند قبيلة « كرو » Croo ثلاثة أبقار وشاة ، وعند « الكفير » يتراوح ثمنها من ست أبقار إلى ثلاثين ، حسب المنزل التي تنزلها أسرة الفتاة في المجتمع ، وبين « التوجو » Togos ثمنها ستة عشر ريالاً تدفع نقداً ، وستة ريالات تدفع عيئناً (٣١)

والزواج بالشراء يسود أصمق أفريقيا جميعاً ، وهو النظام المألوف في الصين واليابان . وكان شائعاً في الهند القديمة وعند اليهود القدماء ، وفي أمريكا الوسطى قبل عهد كولمبس ، وفي بيرو ، بل لاتزال أمثلة منه في أوروبا اليوم (٣٢) وهو تطور طبيعي لنظام الأسرة الأبوية ، لأن الوالد يملك ابنته ، وفي وسعه أن يتصرف فيها بما يراه مناسباً لا يُحدد حتمه في هذا إلا حدود ضئيلة ؛ ويعبر عن هذا هنود أورنوكرز بقولهم إن الخطيب يجب عليه أن يدفع للوالد ثمن تربيته لفتاة سينتفع بها هو (٣٣) ويحدث أحياناً أن تعرض الفتاة في معرض للعرائس أمام جماعة من الرجال قد يكون منهم لها خطيب ؛ وكذلك من عادة أهل الصومال أن يُزَيَّنوا

العروس أفخر الزينة ، ويعرضوها على ظهر جواد أو ماشية على قدميها ، في جوّ يفوح بالعمور لعلها تستثير الخطّاب فيدفعوا فيها ثمناً أغلى (٣٤) وليس لدينا مدوّنٌ واحد يدل على أن امرأة عارضت في زواجها بالشراء ، بل الأمر على نقيض ذلك ، كان النساء يفاخرن بما يدفع لهن ثمناً ، ويحتقرن المرأة التي تسلم نفسها في الزواج بغير ثمن (٣٥) لأنهن يعتقدن أن الزواج الذي يعقد الحُبُّ أو اصره بغير ثمن مدفوع ، يكون فيه الزوج الشرير كاسباً كسباً عظيماً لم يدفع لقاءه شيئاً (٣٦) ومن جهة أخرى كان من المألوف أن يردّ والد العروس ما دفعه العريس هديةً أخذت ترداد قيمتها على مرّ الأيام حتى قاربت ما يدفعه العريس (٣٧) ؛ ثم أخذ الآباء الأغنياء يتوسعون تدريجاً في هذه الهدايا ، لكن ييسّروا لبناتهم الزواج ، حتى ظهر نظام المهر تدفعه العروس لخطيبها ، وهكذا حلّ شراءُ والد العروس لزوج ابنته محل شراء الخطيب لزوجته ، أو قل إن الشرايين يسيران جنباً إلى جنب (٣٨) .

في شتى هذه الصور والصنوف التي يتخذها الزواج ، لا تكاد تقع فيها على أثر من الحب والعاطفة ؛ نعم قد تجد حالات قليلة من زواج الحب بين قبيلة البابوا في غينا الجديدة ، وكذلك قد تجد بعض حالات الحب في غيرها من الشعوب البدائية (والحُب هنا معناه إخلاص متبادل لا منفعة متبادلة) لكن هذه الحالات النادرة التي تصادفها لاشأن لها بالزواج ، ففي أيام البساطة الأولى كان الرجال يتزوجون ليشتروا عملاً رخيصاً ويكسبوا أبوة مُربّحة ويضمّنوا وجبات منتظمة من الطعام ، يقول «لاندر» Lander : «يحتفل أهل «ياريبا» Yariba بالزواج دون أن يثير ذلك في نفوسهم أقل اهتمام ، فتنكير الرجل في حيازة زوجة لا يزيد على تفكيره في قطع سنبلة من القمح ، لأن الحُب أمر ليس له وجود (٣٩) لأنه لما كانت العلاقة الجنسية أمراً مباحاً قبل الزواج ، فإن عاطفة الرجل لا تجد من السلود ما يحتزنها ، وقلما يكون لها أثر في اختيار الزوجة ؛ وللسبب نفسه ، أعنى تلاحق الشهوة وتنفيذها بغير فاصل من زمن ، ليس لديهم ما يبرر

أن يجلس الشاب مفكراً في طوية نفسه ، في عاطفته التي احتبست في صدره والتي من أجل احتباسها أخذت تُزيّن له الحبيب المُشْتَهَى ، مما يؤدي عادة إلى الحب العاطفي عند الشباب ؛ إن مثل هذا الحب وظهوره مرهون بالمدنيّة التي أقامت الأخلاقَ سدوداً أمام الشهوة ، هسداً إلى أن الثروة وازديادها قد مكنتت بعض الرجال أن يتفوقوا ، وبعض النساء أن يصنعن ، ما يقتضيه الحُبُّ العاطفي من علامات الترف والرقة ؛ فالبدائيون أفقر من أن يعرفوا عاطفة الحب ، ولذلك قلّما تجد في أغانيهم شعراً يدور حول الحب ؛ ولما ترجم المبشرون المسيحيون الكتاب المقدس إلى لغة قبيلة « أَلْجُونْكَوِن » Algonquins لم يجدوا كلمة في لغتهم تعبر عن « الحب » ؛ ويصف الواصفون قبيلة الهوتنتوت بأنهم « باردون في الزواج ولا يأبه أحد من الزوجين بالآخر » وكذلك في ساحل الذهب « لا يظهر بين الزوج وزوجته من علائم الحب شيء حتى ولا مظاهره الخارجية » وقل هذا كذلك في أهل أستراليا البدائيين ؛ يقول « كاييه » Cailië إذ هو يتحدث عن زنجي من السنغال : « سألت بابا لماذا لا يرح أحياناً مع زوجته ، فقال إنه لو فعل لتعذر عليه بعدئذ أن يملك زمامهن » ؛ ولما سئل رجل من أهل أستراليا الوطنيين لماذا أراد أن يتزوج ، فأجاب صادقاً بأنه إنما أراد الزوجة لتهيئ له الطعام والشراب والحطب ، ولتحمّل له المتاع أثناء الرحيل^(٤٠) ، والتقبيل الذي لا يستغنى عنه الأمريكيون فيما يظهر ، لا تعرفه الشعوب البدائية ، أو هم يعرفونه معرفة الشيء المزدري^(٤١) .

وعلى وجه التعميم ، نقول إن « الهمجي » يزاول أموره الجنسية بروح فلسفية ، لا يكاد يزيد عن الحيوان فيما يساوره من قلق ميتافيزيقي أوديني ؛ إنه لا يفكر في الأمر بينه وبين نفسه ، كلا ولا يطير بعاطفته في سماءه ، بل الجسد عنده أمر طبيعي كالطعام سواء بسواء ، ولا يحاول قط أن يُزيّن لنفسه الدوافع ، فليس في الزواج عنده شيء من التقديس ، وقلّما يسرف في الاحتفال به ، بل هو

في رأيه عملية تجارية صريحة ، ولا يخطر بباله أبداً أنه مما ينجله أن يُخضع عاطفته للاعتبارات العملية في اختياره لزوجته ، بل العكس هو أولى عنده بإثارة الخجل ، ولو استباح لنفسه من الغرور ما نستبيحه نحن لأنفسنا ، لتسألنا عما يبرز التقليد الذي جربنا عليه وهو أن نربط رجلاً بامرأة إلى آخر الحياة تقريباً ، لالشيء سوى أن الرغبة الجنسية قد ربطت بينهما ببرقها الخاطف لمحة واحدة من الزمن ، فالزواج عند الرجل البدائي لا يُنظر إليه على أساس التنظيم الجنسي ، بل على أنه تعاون اقتصادي ولذلك كان يريد من المرأة ، بل المرأة تريد من نفسها أن تكون نافعة نشيطة أكثر منها رشيقة جميلة (ولو أنه يقدر هذه الصفات فيها) ، إذ لا بد أن تكون له كسباً اقتصادياً ، لا خسارة لا كسب من ورائها ، وإلا لما فكر «الهمجي» الواقعي في الزواج إطلاقاً ، الزواج عنده شركة تدرُّ ربحاً ، لا ضرب من ضروب الدعارة الخاصة ، إنه طريقة تجعل الرجل والمرأة إذا ما تعاونا في العمل ، أنجح في الحياة منهما أو عمل كلي منهما مستقلاً عن زميله ؛ فحيثما وجددت في تاريخ المدنية مرحلة لا تكون فيها المرأة كسباً في زواجها للرجل ، فاعلم أن الزواج قد انهار بناؤه ، وأحياناً تنهار المدنية بانهاره .

الفصل الثاني

اخلاق الجنس

العلاقات قبل الزواج - الدعارة - العفة - البكارة -
المعيار المزدوج - الحفر - نسيبه الأخلاق - الدور
الذى يلعبه الحفر من الوجهة البيولوجية - الزنا -
الطلاق - الإجهاض - وأد الأطفال - الطفولة - الفرد

إن أهم مهمة تقوم بها الأخلاق هي دائماً تنظيم العلاقة الجنسية ؛ لأن الغريزة التناسلية تخلق مشكلات قبل الزواج وبعد الزواج ولإبّان الزواج ، وهي تهدد في كل لحظة بإحداث الاضطراب في النظام الاجتماعى لإلحاحها وشدتها وازدراءها للقانون وانحرافاتهما عن جادة الطبيعة ؛ وأولى مشكلاتها تقع قبل الزواج ، أتكون العلاقات الجنسية عندئذ مقيدة أم طليقة ؟ وليست الحياة الجنسية بالطليقة من كل قيد حتى في عالم الحيوان ؛ فرفض الأثني للذكر ، إلا في فترات التهييج ، يحصر الحياة الجنسية عند الحيوان في دائرة أضيق جداً من مثيلتها عند الإنسان ذى الشهوة العارمة ، فالإنسان يختلف عن الحيوان - كما يقول بومارشيه - Beaumarchias في أنه يأكل بغير جوع ، ويشرب بغير ظمأ ، ويتصل بالجنس الآخر في كل فصول السنة ؛ وإنك لتجد بين الشعوب البدائية ما يشبه قيود الحيوان أو ما يضادها ، في تحريم الاتصال بالنساء في أيام حيضهن ، ولو استثنيت هذا القيد العام وجدت الاتصال الجنسي قبل الزواج طليقاً إلى حد كبير في الجماعات البدائية الأولى ؛ فعند هنود أمريكا الشمالية ، يتصل الشبان بالشابات اتصالاً حراً دون أن يكون ذلك عائناً للزواج ، وكذلك عند قبيلة پاپوا في غينيا الجديدة تبدأ الحياة الجنسية في سن مبكرة جداً والقاعدة قبل الزواج هي الشيوعية الجنسية (١٣) ، وكذلك توجد مثل هذه الحرية قبل الزواج في قبيلة «السويوت» Soyots في سيبيريا ،

و (إيجوروت) Igorots في الفلبين ، وأهالي بورما العليا ، والكفير واليوشمن في أفريقيا ؛ وقبائل نيجيريا وبوغندا وجورجيا الجديدة وجزائر مري وجزائر أندمان وتاهيتي وبولينزيا وأسام وغيرها (٤٤) ؛

في مثل هذه الظروف لا يُنتظر أن نجد عُهراً كثيراً في المجتمع البدائي ، فهذه المهنة التي هي « أقدم المهن » حديثة نسبياً لأنها لم تنشأ إلا مع المدنية مع ظهور المِلْكية واختفاء الحرية الجنسية قبل الزواج ؛ نعم لقد نجد هنا وهناك فتيات يعن أنفسهن حيناً ليجمعن مهورهن أو ليحصلن مبلغاً يقدمنه إلى المعابد ، لكن ذلك لا يحدث إلا إذا كان التشريع الخلق في الإقليم يوافق عليه باعتباره تضحية تعبدية لمساعدة أبوين مقتصدين أو لإشباع آلهة جائعة (٤٥)

وأما العفة فهي الأثري مرحلة جاءت متأخرة في سير التقدم ، فاللدي كانت تمشاه العذراء البدائية لم يكن فقدان بكارتها ، بل أن يشيع عنها أنها عقيم (٤٦) ، فالمرأة إذا ما حملت قبل زواجها كان ذلك في معظم الحالات معيناً لها على الزواج أكثر منه عائقاً لها في هذا السبيل ، لأن ذلك الحمل يقضى على كل شك في عقمها ، ويبشر بأطفال يكسبون لوالدهم المال ، بل إن الجماعات البدائية التي قامت قبل ظهور المِلْكية ، كانت تنظر إلى بكاره الفتاة نظرة ازدراء لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها ؛ حتى كان العريس من قبيلة « كامشادال » Kamchadal إذا ما وجد عروسه بكرة ثارت ثورته و « طفق بسبب أمها سبباً صريحاً لهذه الطريقة المهملة التي قدمت بها ابنتها إليه » (٤٧) ، وفي حالات كثيرة كانت البكاره حائلاً دون الزواج ، لأنها تلتقي على الزوج عبثاً ثقيلاً على النفس ، وهو أن يخالف أمر التحريم الذي يقضى عليه بالأيريق دم أحد من أعضاء قبيلته ، فكان يحدث أحياناً أن تُسلم البنات أنفسهن لغريب عن القبيلة ليزيل عنهن هذا العائق الذي يحول بينهن وبين الزواج ، ففي التبت تبحث الأمهات في جدّ عن رجال يفضون بكاره بناتهن ، وفي « مكّبار » ترى الفتيات أنفسهن يرجون

المارة في الطريق أن يؤدوا لمن هذه المكربة ، لأنهن ما دمن أبكاراً فهن لا يستطعن الزواج ، وعند بعض القبائل تضطر العروس أن تستلم نفسها لأضياف العرس قبل دخولها إلى زوجها ، وعند بعضها يستأجر العريس رجلاً ليفض له بكاراً عروسه ، وقبائل أخرى في الفلبين يقوم موظف خاص يتقاضى راتباً ضخماً تكون مهمته أن يؤدي هذا العمل نيابة عن اعترموا الزواج (٤٨) من الرجال ،

فما الذي غير النظر إلى البكارية بحيث جعلها فضيلة بعد أن كانت خطيئة ؟ فجعلها بذلك عنصراً من عناصر التشريعات الخلقية في كل المدينيات العالية ؟ لاشك أنها الملية ، حين قام بين الناس نظامها ، هي التي أدت إلى هذا التحول ؛ فالعفة الجنسية بالنسبة إلى البنات قبل الزواج جاءت امتداداً للشعور بالملك الذي أحسه الرجل لزاء زوجته بعد أن أصبحت الأسرة أبوية يرأسها الزوج ؛ وازدادت قيمة البكارية لأن العروس في ظل نظام الزواج كانت تشتري بثمن أغلى إن كانت بكرأ من ثمن أختها التي ضعفت لإرادتها ، إذ البكر يُبشّر ماضيها بالأمانة الزوجية التي أصبحت عندئذ ذات قيمة كبرى في أعين الرجال الذين كان يؤرقهم الهمّ خشية أن يورثوا أملاكهم إلى أبناء السفاح (٤٩) .

وأما الرجال فلم يدُر في خواطرم قط أن يقيدوا أنفسهم بمثل هذا القيد ، ولست تجد جماعة في التاريخ كله قد أصرت على عفة الذكر قبل الزواج ، بل لست تجد في أية لغة من اللغات كلمة معناها الرجل البكر (٥٠) .

بهذا قضى على البنات وحدهن أن يعانين الخوف على بكارتهن ، فأنرفهن هذا الوضع على صورشتى ؛ فقبيلة « توارج » تعاقب البنت أو الأخت التي حادت عن الجادة بالموت ، وزنوج النوبة والحبيشة والصومال وغيرها يضعون على أعضاء التناسل للبنات حلقات أو أقفالاً تمنع أداء العملية الجنسية ، ولا يزال شيء كهذا قائماً إلى يومنا هذا في بورما وسيلان (٥١) ؛ كذلك نشأت ضروب من عزل

البنات عزلاً لا يتيح لمن أن يُغريهن الرجال أو يجيئهن الإغراء من الرجال ، والآباء الأغنياء في بريطانيا الجديدة يحجزون بناتهم خلال الخمس السنوات الخطرة في أكواخ يقيمون عليها حارسات من العجائز الفضليات ، فلا يسمح للبنات بالخروج أبداً ثم لا يؤذن لأحد برويتهن إلا الأقارب^(٥٢) ؛ وليس بين هذه التصرفات كلها ، وبين « البرودة » التي تلبسها المسلمات والمهندوس إلا خطوة واحدة ، وإن هذه الحقيقة لتذكرنا مرة أخرى بقرب المسافة بين « المدنية » و « الحمجية » .

وجاء الخفّر مصاحباً للبكارة ولسيطرة الوالد على أسرته ؛ فهناك قبائل إلى يومنا هذا لا يأخذها الحياء من ترك أجسادها عارية^(٥٣) ، لا بل إن بعضها ليخجله لبس الثياب ؛ ولقد اهتزت جنبات أفريقيا كلها بالضحك حين التمس « لفتنجستون » من مُضيفيه السود أن يضعوا على أجسادهم بعض الثياب قبل قدوم زوجته ؛ وكانت « ملكة بالوندا » Balonda عارية من قبة رأسها إلى إخصص قدمها حين عقدت مجلسها من أجل « لفتنجستون »^(٥٤) ، وبين القبائل أقلية صغيرة تباشر العلاقة الجنسية علناً دون أن يداخلها أثر من الخجل^(٥٥) ؛ وكان أول ظهور الحياء عند المرأة حينما أحست أنها محرمة أيام حيضها ؛ وكذلك حين قام نظام الزواج بالشراء ، وأصبحت بكارة البنت ندر الربح على أبيها ، فولدَ عزل الفتاة وإرغامها على البكارة شعوراً عندها بضرورة احتفاظها بعفتها ؛ أضف إلى ذلك أن الحياء عند الزوجة في ظل نظام الزواج بالشراء ، هو شعورها بتبعية مالية لإزاء زوجها بأن تمتنع عن أية علاقة جنسية خارجية ليس من شأنها أن تعود عليه بشيء من الربح ؛ وها هنا ظهرت الملابس ، إن لم تكن الدوافع إلى التزين وإلى الوقاية قد أنشأتها بالفعل قبل ذلك ؛ ففي قبائل كثيرة لا تلبس المرأة ثياباً إلا بعد زواجها^(٥٥) علامة على حيازة زوجها لها حيازة تامة ، وحتا لا يخول دون سائر الرجال أن تأخذهم شهامة الرجولة ؛ فالرجل البدائي لا يوافق على الرأي الذي

ذهب إليه مؤلف « جزيرة البطريق » من أن الثياب تشجع على الدعارة ؛ وعلى كل حال فليست العفة متصلة بالثياب صلة ضرورية ، فيحدثنا الرحالة في أفريقيا أن الأخلاق هناك تناسب في تقدمها تناسباً عكسياً مع كمية الثياب^(٥٦) فواضح أن ما يستحي من فعله الناس إنما يعتمد على أساس التحريم الاجتماعى والتقاليد التى تسود جماعتهم ، فإلى عهد قريب كانت المرأة الصينية ينجلها أن تعرى عن قدمها ، والعربية ينجلها أن تكشف عن وجهها ، والمرأة من قبيلة « تاورج » ينجلها أن تبدى فيها ، على حين أن النساء فى مصر القديمة ، وفى الهند فى القرن التاسع عشر ، وفى « بالى » فى القرن العشرين (حتى أتاهن الساحون الشهبانيون) لم ينجلهن أبداً أن يكتشفن عن ألدائهن .

لكن لا ينبغي أن ننتهى من ذلك إلى نتيجة هى أن الأخلاق ليست بذات قيمة لأنها تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ، وأنه من الحكمة أن نقيم الدليل على سعة علمنا بالتاريخ بأن نطرح من فورنا التقاليد الأخلاقية فى مجتمعنا ، فالعلم القليل بالأجناس البشرية يُعرض للخطر ؛ نعم لأنه من الحق فى الأساس - كما قال أناتول فرانس فى سخرية - « إن الأخلاق هى مجموعة أهواء المجتمع »^(٥٧) ؛ وكما قال « أناقارسيس » Anacharsis اليونانى ، إنه إذا ما جمعنا كل التقاليد التى تقدها جماعة ما ، ثم حذفنا منها كل التقاليد التى تمجها جماعة أخرى ، ما بقى لنا منها شيء ؛ لكن ذلك لا يدل على تفاهة الأخلاق فى قيمتها ، إنما يدل على أن النظام الاجتماعى قد احتفظ بكيانه بطرائق شتى ؛ ولا يقلل اختلاف الطرق هذا من ضرورة النظام الاجتماعى ، فلا بد من قواعد يراها الناس فى اجتماعهم بعضهم ببعض ، كأتمما الاجتماع لعبة لا مندوحة للاعبين عن مراعاة قواعدهما إن أرادوا المضى فى اللعب ، لا بد للناس أن يعلموا كيف يتصرف زملاؤهم فى ظروف الحياة الحارسة ؛ ومن هنا كان إجماع الناس فى المجتمع الواحد على اضطناع أخلاق معينة فى سلوكهم لا يقل أهمية من مضمون هذه

الأخلاق نفسها ؛ فإذا تصدينا لتقاليد جماعتنا وأخلاقها بالتشكر والخروج عليها ، حين نستكشف في صدر شبابنا أن تلك التقاليد والأخلاق نسبية ، فإنما نكشف بذلك عن يفاعه عقولنا ؛ ولو أمهلنا أنفسنا عقداً آخر من عقود العمر ، نكتشف لنا بعدئذ أن التشريع الخلقى الذى ارتضته الجماعة - وهو يلخص خبرة الأجيال المتعاقبة - فيه من الحكمة أكثر مما يمكن لأستاذ أن يشرحه لطلابه في سلسلة محاضراته في الجامعة ؛ فسنبتين عاجلاً أو آجلاً ما يثير في صدورنا القلق ، وهو أنه حتى هذا الذى لم نستطع فهمه قد يكون صواباً ؛ فالأنظمة والمواضعات والتقاليد والقوانين التى هى قوام المجتمع المتعدد الجوانب ، إنما هى من صنع مئات الأجيال وبلايين العقول ، ولا يجوز لعقل واحد أن يتوقع لنفسه فهمها في مدى الحياة القصير ، دع عنك مدى عشرين عاماً ؛ فيحق لنا إذن أن نختم بقولنا إن الأخلاق نسبية لكنها ضرورة لا غنى عنها .

فلما كانت التقاليد القديمة الأساسية تمثل الانتخاب الطبيعي في طرائق حياة المجتمع بعد قرون قضاهها الإنسان في محاولة وخطأ ، فلا بد لنا أن نرجع بعض الفائدة الاجتماعية ، أو بعض القيمة في مساعدة الجنس على البقاء ، في البكارة والحياء على الرغم من أنهما نسيان ، وأنهما مرتبطان بنظام الزواج بالشراء ، ومن أنهما سبب في الأمراض العصبية ؛ فالحياء أو الختفّر كان بمثابة الكمين في ميدان القتال تلوذ به الفتاة إذا ما تقدم إلى خطبتها الخاطبون ، لتختار من بينهم أصلحهم ، اختياراً قائماً على روية ، أو لتضطر مخاطبها أن يهذب من خصاله قبل أن يظفر بها ؛ على أن السدود التى أقامها ختفّر النساء في وجوه شهوات الرجال ، هى نفسها التى ولدت عواطف الحب الشعري الذى رفع قيمتها في عينيه ؛ واصطناع النظام الذى يهتم بالبكارة قد أدى إلى زوال السهولة واليسر الفطري الذى كانت تتم به الحياة الجنسية البدائية ، لكنه من ناحية أخرى ، بحيلولته دون التطور الجنسي في سن مبكرة ، والأمومة قبل أوانها ، قد ضيق الفجوة بين التضج الاقتصادى والنضج

الجنسى - ولو أن هذه الفجوة تميل إلى الاتساع السريع كلما تقدمت المدينة - وربما أعان نظام البكارة بهذا الذى ينشأ عنه من تأجيل للحياة الجنسية ، ربما أعان على تقوية الفرد جسما وعقلا ، وعلى إطالة أمد المراهقة والتدريب ، وبهذا ينتهى إلى رفع مستوى الجنس البشرى .

لما تطورت المملكية ، تدرج الزنا فأصبح من الكبائر بعد أن كان معدوداً من الصغائر ؛ فنصف الشعوب البدائية التى نعرفها لا تعلق على الزنا أهمية كبرى (٥٨) وعلى ذلك فنشأة المملكية لم تؤدِّ فقط إلى مطالبة المرأة بالوفاء التام لزوجها ، لكنها كذلك ولدت فى الرجل شعوراً بالمملكية إزاء زوجته ؛ حتى حين يعبرها لضيفه ، فهو إنما يفعل ذلك لأنها مملكة جسداً وروحاً ؛ ثم كملَ هذا الاتجاه فى تصور المرأة حين ألزموها أن تهبط إلى قبر زوجها مع سائر أدواته ؛ وعُدَّ الزنا فى الأسرة الأبوية مساوياً للسرقة (٥٩) كأنما هو فى أساسه اعتداء على الامتلاك ، وتفاوت عقاب الزنا فى شدته من أخف العقوبات إلى أقساها ، من عدم المبالاة عند القبائل البدائية إلى بقر بطون الزانيات وإخراج أمعائهن عند بعض قبائل الهنود فى كاليفورنيا (٦٠) وبعد أن مرَّت الجريمة بقرون طويلة من العقاب ، قرَّرتْ فى النفوس فضيلة الوفاء الزوجى عند الزوجة قراراً مكيناً وولدت لها ضميراً فى فؤاد المرأة يرهاها ، حتى لقد أدهشت قبائلُ هنديةٌ كثيرةٌ غزائهم بما لزوجاتهم من فضيلة الوفاء التى يستحيل عندهن التفريط فيها ؛ وتتمنى كثير من الرحالة أن يجيء يوم على النساء فى أوروبا وأمريكا يساوين فيه من حيث الوفاء الزوجى زوجات الزولو والهاپوا (٦١) .

وكان الوفاء الزوجى أيسر على أهل « هاپوا » ، لأنهم كعظم الشعوب البدائية لا يقيمون إلا قليلاً من العوائق التى تعوق الزوج عن طلاق زوجته ، حتى أن الاتحاد الزوجى أوشك ألا يزيد بين الهنود الأمريكيين على عدد قليل من السنين ؛ ويقول فى ذلك « سكولكرافت » Schoolcraft : « إن نسبة كبيرة من الرجال

الكهول أو الشيوخ ، قد اتصلت بزوجات كثيرة حتى أن هؤلاء ليجهلون أبناءهم المنتشرين في أرجاء إقليمهم» (٦٢) ؛ «لأنهم يسخرون من الأوروبيين لاكتفاء الرجل منهم بزوجة واحدة مدى حياته ، وهم يرون أن «الروح الطيبة» قد زاوجت بين الزوجين ليكونا سعيدين ، فلا ينبغي أن يظلا معاً إلا إذا تلاءمت فيهما الاتجاهات والميول» (٦٣) ؛ لهذا ترى الرجال من قبيلة «تشروكي» Cherokees يبدلون الزوجة ثلاث مرات أو أربعاً كل عام ، وأما أهل «ساموا» فيبقون على زوجاتهم ثلاث أعوام لأنهم يميلون إلى المحافظة (٦٤) ؛ لكن لما جاءت الزراعة بما تقتضيه من حياة مستقرة ، امتد أمد الروابط الزوجية ؛ ففي ظل النظام الأبوي للأسرة ، كان الطلاق عملية لا تتفق وقواعد الاقتصاد في رأى الرجل ، لأن طلاق الزوجة معناه في حقيقة الأمر تفريط في أمةٍ تعود على سيدها بالربح (٦٥) ، ولما أصبحت الأسرة هي نواة الإنتاج في المجتمع ، تحرث الأرض وترعاها بالتعاون ، ازدادت ثراء كلما ازدادت نفراً وتماسكا ، على فرض المساواة في سائر الظروف بينها وبين ما هو أصغر منها من الأسر ؛ وتبين للناس ما هو في صالح المجتمع من أن الرابطة الزوجية ينبغي أن تدوم بين الزوجين حتى يفرغا من تربية أصغر الأبناء ؛ واكنهما إذا ما بقيا معا حتى هذه السن ، لم يعد لديهما من نشاط الحياة ما يدفعهما إلى حب جديد . وتصبح حياة الزوجين كأنها نفس واحدة لما اشتركا فيه معا من عمل وضعباب ؛ ولم يعد الطلاق إلى اتساع نطاقه من جديد ، إلا بعد انتقال الإنسان إلى الصناعة في المدن ، وما تبع ذلك من خفضٍ لعدد أفراد الأسرة وقلة في خطرهما .

ويمكن القول بصفة عامة إن الرجال خلال عصور التاريخ كلها أحبوا كثرة الأطفال ؛ ولذا جعلوا الأمومة مقدسة ؛ بينما النساء اللاتي يقاسين مرارة النسل ، قد اضطربت في أنفسهن ثورة خفية على هذا التكليف الثقيل ، فاستخدمن ما لا عدد له من الوسائل ليتخففن من أعباء الأمومة ؛ فالرجال البدائيون

لا يأبهون عادة لعدد السكان أن يزيد إلى غير تحديد ، لأن الأبناء مرجحون لهم في ظروف الحياء السوية ، ولئن أسف الرجل على شيء فذلك أنه يستحيل عليه أن يستولد امرأته البنين بغير البنات ؛ أما المرأة فتقايل هذا من ناحيتها بالإجهاض ووآد الأطفال وضبط النسل - فحتى هذا الأخير قد كان يحدث أنا بعد آن في الشعوب البدائية^(٦٦) ؛ ولأنه لما يثير الدهشة أن نرى شدة الشبه بين الدوافع التي تحرك المرأة « الهمجية » والدوافع التي تحرك المرأة « المتمدنه » إلى اتقاء الولادة ، وهي أن تفلت من عبء تربية الأطفال ، وتحفظ لنفسها بقوام فيه فتوة الشباب ، وتتقى العار الذي يلحقها من أمومة لطفل جاءها من غير زوجها ، وتجتنب الموت ، وغير هذه من شتى الدوافع ؛ وأبسط الوسائل التي تتبعها المرأة لتحديد الأمومة أن ترفض الرجل لبان الرضاعة التي قد تطول مدى أعوام كثيرة ، ويحدث أحياناً - كما هي الحال عند هنود تشيني - أن تأبى المرأة حملاً ثانياً إلا إذا بلغ طفلها الأول عامه العاشر ؛ وفي بريطانيا الجديدة لم تكن المرأة لتنسل الأطفال قبل مرور عامين أو أربعة أعوام بعد زواجها ؛ ويلاحظ أن قبيلة « جوايكورو » Quaycuro في البرازيل كانت تتناقص تناقصاً مطرداً ، لأن نساءها لم يقبلن حمل الأطفال قبل أن يبلغن الثلاثين ؛ والإجهاض شائع بين أهل « بابوا » فيقول نساءهم في ذلك : « عبء الأطفال ثقيل فلقد سئمتهم ، لأنهم ينهكون قوانا » والنساء في بعض قبائل « الماوري » Maori يستعملن أعشاباً أو يسبن في أزحامهن اعوجاجاً ليقين الحمل^(٦٧) .

وإذا فشلت المرأة في إجهاض نفسها ، فقد بقي لها أن تثد طفلها ، ومعظم الشعوب الفطرية تبيح قتل الطفل عند ولادته إذا جاء شائها أو مريضاً أو سفاحاً ، أو إذا ماتت أمه عند ولادته ؛ وكأما يجد الإنسان مبرراً مقبولاً في كل وسيلة تؤدي به إلى ضبط عدد السكان ضبطاً يتناسب مع مواد الرزق ، فترى كثيراً من القبائل التي تقتل الأطفال إذا ما ظنوا أنهم ولدوا في ظروف لا يحالفها السعد ؛

فقبيلة « بُندى » Bondei تختق المولود إذا نزل إلى الدنيا برأسه أولاً ؛ وقبيلة « كامشادال » تقتل الطفل إذا ولد في جوع عاصف ، وقبائل مدغشقر تترك الطفل الوليد في العراء حتى يموت أو تغرقه في الماء أو تئده حياً إذا ما أطل على العالم في مارس أو إبريل ، أو يوم الأربعاء أو جمعة أو في الأسبوع الأخير من أى شهر ، وإذا ما ولدت المرأة توأمين في بعض القبائل ، عدت ذلك برهاناً على اقترافها الزنا ، لأنه يستحيل على رجل واحد أن يكون والد لطفلين في آن واحد ، وعلى ذلك فأحد الأثنين أو هما معاً يقضى عليهما بالموت ؛ وأد الأطفال كان شائعاً بين البدو بصفة خاصة لأنهم كانوا يسبون لهم إشكالا في ترحالهم الطويل ؛ فقبيلة « بانجراج » Bangarang في فكتوريا كانت تقتل نصف أطفالها عند الولادة ؛ وقبيلة « اللنجوا » Lenguas في إقليم شاكو من پاراجواى لم تكن تسمح للأسرة الواحدة بأكثر من طفل واحد كل سبعة أعوام ، وتقتل ما زاد على ذلك ، وقبيلة « أبيفون » Abipones حددت عددها على نحو ما فعل الفرنسيون ، وذلك بأن تنشئ كل أسرة ولداً واحداً وبناتاً واحدة ، وكما نسل غير ذلك يقتل فور ولادته وإذا حلت ببعض القبائل مجاعة أو تهددتهم مجاعة ، قتلوا أطفالهم حديثي الولادة أو أكلوهم ، وكانت البنت عادة هى التى تتعرض للوآد ، وكانت أحياناً تعذب حتى تموت بحجة أن ذلك يجعل روحها تعود إلى الحياة في جسد صبي إذا ما عادت إلى الحياة من جديد^(٦٨) ، وكان وأد الأطفال لا يشوبه في أعينهم بشاعة ولا يستتبع تأنيباً من الضمير ، لأن الأم فيما يظهر لا تحسُّ الحب الغريزى لأطفالها عند ولادتهم مباشرة .

أما إذا سمح للطفل بالحياة أياماً قلائل ، فقد أمينَ القتل ، لأنه سرعان ما تنور في الوالدين عاطفة الأبوة أو الأمومة لما يريانه فيه من بساطة وضعف ، وفي معظم الحالات ، كان الطفل يلقى من الحب في معاملته من أبويه البدائيين ما لا يلقاه الطفل على وجه العموم عند من هم أرقى في المدنية من هؤلاء^(٦٩) ؛ ولأن

اللبن أو غيره من ألوان الطعام الطرى لم يكن يتوفر لديهم ، كانت الأم تقوم على رضاعة طفلها من عامين إلى أربعة أعوام ، بل قد تمتد الرضاعة أحياناً إلى اثني عشر عاماً (٧٠) ، فيحدثنا رحالة عن ولد أخذ في التدخين قبل أن يُفطم عن الرضاعة (٧١) وكثيراً ما كان الصبي يقف لِعَيْبِهِ مع لدائه ، أو يقف ما عسى أن يؤديه من عمل ، لترضعه أمه (٧٢) . والمرأة الزنجية تحمّل رضيعها على ظهرها إبان عملها ، فإذا أرادت له الرضاعة قذفت له - أحياناً - بثديها عَسَبَرٌ كتنفيها (٧٣) ؛ ولم تكن تربية الآباء لأبنائهم بسيئة النتائج على الرغم من إهمالهم إياهم إهمالاً شديداً ذلك لأنهم كانوا يتركون الطفل في سن مبكرة يلاقى نتائج بلاهته ووقاحته ومشاكسته ، فكان الطفل يزداد علماً كلما ازداد تجربة ؛ وفي المجتمع الفطري يشتد الحب بين الآباء لبنيهم والأبناء لآبائهم (٧٤) .

والطفولة في الجماعة البدائية تتعرض لكثير من الأخطار والأمراض ، ونسبة الوفاة فيهم عالية ؛ والشباب في تلك الجماعة قصير الأمد ، لأن الزواج كان يبدأ في سن مبكرة فتبدأ التبعات الزوجية ، وسرعان ما يضيع الفرد في ثقال المهام التي يكلف بها من تزويد الجماعة بزادها والدفاع عنها ، فالنساء يُذَوِّين حمل الأطفال والرجال يذويهم تزويد هؤلاء الأطفال بضرورات الحياة حتى إذا ما فرغ الأبوان من تربية الطفل الأخير ، نفذت قواهما ، فلم يكن ثمة مجال لإبراز الشخص الفردية ، لا في أول الحياة ولا في نهايتها ؛ فالفردية - كالحرية - ترف جاءت به المدنية إذ لم يحدث إلا في فجر التاريخ أن تحرر من رِبْقَةِ الجوع والنسل والقتال عددٌ من الرجال والنساء يكفي لخلق القيم الروحية للفراغ والثقافة والفن .

الفصل الثالث

الأخلاق الاجتماعية

طبيعة الفضيلة والرذيلة - الجشع - الخيانة - العنف - القتل -
الانتحار - انحراف الفرد في جماعة - الإيثار - الكرم - أوضاع
السلوك - تحديد القبيلة للأخلاق - الأخلاق البدائية بالقياس إلى
الأخلاق الحديثة - الدين والأخلاق

من بين واجبات الوالدين أن ينقلوا إلى الأبناء تشريع الأخلاق ، لأن
الطفل أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ؛ وإنه ليتلقى إنسانيته شيئاً فشيئاً
كلما تلقى جانباً من التراث الخلقى والعقلي الذي نخلته له الأسلاف ؛ والطفل
من الوجهة البيولوجية سيئٌ الإعداد للمدنية ، لأن غرائزه تهيئه للمواقف
الرئيسية والتقليدية ولا تشمل إلا على الاستجابة للمثيرات التي توافق الغابة
أكثر من موافقتها للمدنية ؛ كل رذيلة كانت يوماً ما فضيلة ضرورية في
تنازع البقاء ، ولم نسمها رذيلة إلا لأنها تراكمت في وجودها بعد زوال
الظروف التي كانت تستلزم وجودها - فلدست الرذيلة - إذن - ضرباً من
السلوك الرافق ، بل هي في العادة ارتداد بالإنسان إلى سلوكه القديم الذي
حل مكانه سلوك جديد ؛ فن الغايات التي ينشد تحقيقها التشريع الخلقى
أن يوائم نزوات الطبيعة البشرية التي لم تتغير - أو التي تتغير ببطء - مع
حاجات الحياة الاجتماعية وظروفها المتغيرة .

لبث الجشع وحب التملك والخيانة والقسوة والعنف أموراً نافعة للحيوان
وللإنسان مدى أجيال بلغت من طولها حداً تعذر معه على كل ما لدينا من قوانين
وتربية وأخلاق ودين أن تزيلها لإزالة تامة ؛ ولا شك أن لبعضها - حتى في
يومنا هذا - قيمة في حفظ البقاء ، فالحيوان يُتخَم نفسه طعاماً لأنه لا يعلم متى

عساه أن يجد القوت مرة أخرى ، وهذا الارنياب في ظروف المستقبل هو منشأ الجشع ؛ فالرجل من قبيلة « ياقوت » يأكل أربعين رطلاً من اللحم في يوم واحد وكذلك تروى قصص كهذه - وإن تكن أقل منها بطولة - عن الإسكيمو والسكان الأصليين في استراليا (٧٥) ، وإن الاطمئنان الاقتصادي الذي هو من نتائج المدنية لمن حداثة العهد بحيث يتعذر عليه أن يزيل هذا الجشع الطبيعي في الإنسان ، الذي لا يزال يظهر في حب التملك الذي لا يشبع ، حتى لتراه يدفع الرجل الحديث أو المرأة الحديثة إذ هما في قلق من الحياة ، أن يَحْزُرْنَا الذهب أو غيره من السلع التي يمكن تحويلها إلى طعام إذا ما طرأ طارئٌ مفاجئٌ ؛ وليس الجشع للشرب كالجشع للطعام لأن معظم الجماعات الإنسانية قد احتشدت حول ينابيع الماء ؛ ومع ذلك فشراب المسكرات يوشك أن يعم الإنسان جميعاً ، وهم لا يطلبونه عن جشع بقدر ما يطلبونه ليدفثوا في أنفسهم برودة يحسونها ، أو يمدحوا من ذاكرتهم همماً يشقيهم - وقد يطلبونه لمجرد أن ما تحت أيديهم من الماء لا يصلح شرباً .

والحيانة ليست عريقة القِدَم كالجشع ، ذلك لأن الجوع أسبق إلى الوجود من المِلْكِيَّة ؛ ولعل « الهمج » البدائين في أبسط صورهم أكثر الناس أمانة (٧٦) « فالكلمة يقولونها مقدسة » كما يقول « كولبن » Kolben عن قبيلة الهوتنتوت « وهم لا يصطنعون شيئاً مما تعرفه أوروبا من وسائل الفساد والحيانة » (٧٧) ؛ لكن هذه الأمانة الساذجة زالت بتقدم وسائل المواصلات التي ربطت أجزاء الأرض بعضها ببعض ، لأن وسائل أوروبا استطاعت بعدئذ أن تعلم هذا الفن الدقيق للهوتنتوت ؛ فالحيانة بصفة عامة تنشأ مع المدنية ؛ لأنه في ظل المدنية يزداد المجال الذي يتطلب دهاء السياسة اتساعاً ، إذ تزداد الأشياء التي تغرى الإنسان بالسرقة ، وتربيتنا لأبنائنا تَدشِّمُهُمْ على المهارة في ذلك ؛ فإذا ما تقدمت المِلْكِيَّة بين البدائين جاءهم في إثرها الكذب والسرقة (٧٨) .

وأما جرائم الاغتثاث والاعتداء فهى قديمة قدم الجشع ؛ فتقاتل الناس على الطعام والأرض والمرأة قد روى الأرض بدماء البشر ، لم ينبج من ذلك جيل واحد من الأجيال وغشى نور المدنية الواهن المتقطع ببطانة من ظلام ؛ كان الإنسان البدائى قاسياً إذ كان حتماً عليه أن يكون كذلك ؛ فقد علمته الحياة أن تكون ذراعه على استعداد للضرب دائماً ، وأن يكون له قلب يستسيغ « القتلى الطبيعى » وأسودُ الصحائف التى تصادفك وأنت تقرأ علم الأجناس البشرية ، هى تلك التى تروى لك عن التعذيب الذى يسود الحياة البدائية ، وعن الفرح الذى ينتشى به كثير من البدائيين رجالاً ونساء - فيما يظهر - إذا ما أنزلوا بأحد المأ (٧٩) ، وكثير من هذه القسوة كان من اوازم الحرب ، ففي حدود القبيلة الواحدة ، تجد أساليب التعامل أقل وحشية ، فيعامل بعضهم بعضاً - بل يعاملون عبيدهم - برقة لا تنقل فى شىء عما تعهده المدنية من ذلك (٨٠) لكن لما كان الناس مضطرين اضطراراً أن يقتلوا إبان القتال ، فقد علمهم هذا أن يقتلوا كذلك أيام السلم ؛ وكم من البدائيين لا يرون وسيلة لفض النزاع إلا إن مات أحد المتنازعين ؛ وكثير من القبائل لا يرتاع أبناؤها إذا اغتال إنسان إنساناً - حتى إن كان القتل من أبناء العشيرة نفسها - بمثل الجزع الذى كنا نحن المحدثين نقابله به ؛ فأهل « فويجى » Fugians لا يعاقبون القاتل بأكثر من نفيه حتى ينسى زملاؤه جريمته ؛ وقبائل الكفينر تعدُّ القاتل نجساً ، ويطالبونه بتسويد وجهه بالفحم ، ولكنه بعدئذ إن غسل جسده ومضمض فمه وصبغ جلده بلون بى قبيلوه فى الجماعة من جديد ، وأما همج « فوتونا » Futuna فهم - مثلنا - يعدون القاتل بطلا (٨١) ؛ وفى بعض القبائل ترفض المرأة أن تزوج من رجل لم يقتل أحداً فى قتال ، سواء فى ذلك أكان القتال سليم الأساس أم فاسده ؛ ومن هنا نشأت عادة اصطياح الرعوس التى لا تزال باقية فى الفلبين حتى اليوم ؛ وعند قبيلة « دياك » Dyak يكون للرجل الذى يعود من مثل هذا الصيد البشرى بأكثر عدد من الرعوس ،

أن يختار من يشاء من بنات القرية ، والبنات يشبهنه زوجا لأنهن يدركن أنهن قد يصبحن - بقاء مثل هذا الزوج - أمهات لرجال شجعان أقوياء (٨٢) (*)

حيث يغلو الطعام ترخص الحياة ، فأبناء الإسكيمو لامندوحة لهم عن قتل والديهم إذا ما أصبح هؤلاء من الشيخوخة بحيث لا يقوون على شيء ولا يصلحون لشيء ، فالامتناع عن قتلهم في مثل هذه الحالات يعتبر مجافاة لواجب النبوة (٨٣) ، وحياة الرجل البدائي رخيصة على نفسه لأنه يقتل نفسه في اندفاع لا ينافسه فيه إلا اليابانيون ؛ وإذا ما أسىء إلى شخص فانتحر أو أنزل بنفسه الأذى ، فالمسىء لا بد أن يجرى مجراه في ذلك وإلا عدّ منبوذاً من المجتمع (٨٤) ، وما أقدم الانتحار تخلصاً من الدنّس والعار ؛ وكل شيء قد يكفي سبباً للانتحار ، فقد انتحر بعض الهنديات من شمالي أمريكا لأن أزواجهن قد استباحوا لأنفسهم لومهن ، وانتحر شاب من جزيرة « تروبرياندا » لأن زوجته دَخَّنت كل ما كان لديه من تبغ (٨٥) .

وأخذت المدينة على نفسها فيما أخذت أن تحول الجشع عند الإنسان إلى اقتصاد ، والاعتداء إلى حجاج ، والاعتداء إلى مقاضاة ، والانتحار إلى فلسفة ؛ وما كان أعظمه من تقدم للإنسان حين رضى القوي أن يأكل الضعيف بواسطة القانون ؛ وإن الجماعة لتفنى إذا ما سمحت لأبنائها أن يقف بعضهم من بعض نفس الموقف الذى يشجعهم أن يقفوه جماعة إزاء غيرها من الجماعات ؛ فالتعاون الداخلى هو أول قانون للتنافس الخارجى ، وتنازع البقاء لا ينتهى بتعاون الأمراد بعضهم مع بعض ، إنما هو ينتقل إلى الجماعة بعد أن كان للفرد ، ولو تساوت الظروف في جماعتين إلا في أن إحداها يستطيع أعضاءها من أسر وأفراد أن يتحد بعضهم مع بعض ، فهى التى تستطيع أن تسبق الإخرى في ميدان

(١) تكون هذه الفكرة نصف موضوع المسرحية التى ألفها سنج Syngé وعنوانها : فى

التنافس سبقاً يتناسب مقدره . مع مقدار ما بداخلها من تعاون ؛ ومن هنا كان لكل جماعة تشريع أخلاقى تلقنه لأفرادها ، وتبنى لهم فى أفئدتهم ميولاً اجتماعية تقلل من الحرب الطبيعية التى هى من شأن الأحياء ، وإنما تفعل الجماعة ذلك لأن هؤلاء الأفراد هم حلفاؤها وأركانها المستورة ؛ وهى تؤيد طائفة من الخصال أو العادات فى الفرد من شأنها أن تعود بالنفع على الجماعة ، ولذا تسميها فضائل ؛ كما تسمى النفوس من أضدادها بأن تسميها رذائل ؛ وهذه الطريقة ينخرط الفرد - فى ظاهره إلى حد ما - فى سلك الجماعة ، والحيوان فيه يصبح مواطناً .

لم يكن - أو كاد ألا يكون - توليد العواطف الاجتماعية فى نفس « الممجي » بأصعب من إثارة هذه العواطف اليوم فى قلب الإنسان الحديث ، فلئن كان تنازع الحياة قد شجع على قيام الشيوعية ، فقد عزز تنازع الملاك الشعور بالفردية ؛ وربما كان الإنسان البدائى أسرع من الإنسان المعاصر استعداداً للتعاون مع زملائه فقد كان أيسر عليه من الإنسان المعاصر أن يتماثل اجتماعياً مع زملائه لأن الأخطار والمصالح التى كانت تربط بالجماعة كانت أقوى منها الآن ، كما كانت أملاكه أقل من أن تجعله يتفرد بمصالح من دون زملائه (٨٦) ؛ لقد كان الإنسان البدائى عنيفاً جشعاً ، لكنه كان كذلك رحباً كريماً ، مستعداً لاقتسام ما معه حتى مع الغرباء ، ولتقديم الهدايا لأضيافه (٨٧) فكل قارئ يعرف كرم البدائين كيف كان يدفعهم فى قبائل كثيرة إلى حد تقديم زوجة المضيف أو ابنته إلى نزيل بيته (٨٨) ورفض مثل هذه التحية أثناء الضيافة يعتبر عندهم إيذاءً شديداً لشعورهم : الشعور المضيف وشعور المرأة فى آن معاً ، وإن ذلك لمن المشكلات التى يصادفها البشرى ؛ والمعاملة التى يُعامل بها المضيف إبان إقامته تتوقف على الطريقة التى عالج بها أمثال هذه التبعات فى أول قدومه (٨٩) ؛ ويظهر أن الإنسان البدائى قد كان يشعر نحو امرأته شعور الغيرة على ملكه لا شعور الغيرة الجنسية ، فلا يسعى إليه أن تكون زوجته قد «عرفت» رجالاً غيره قبل زواجها منه ، ولا يؤذيه أنها

الآن تضامح ضيفه ، لكنه يثور بالغضب - باعتباره مالكا لا باعتباره عاشقا -
إذا ما رآها-تضامح رجلا بغير استئذانه ؛ وبعض الأزواج في أفريقيا
يعيرون زوجاتهم إلى الغرباء لتسهيل أمورهم عند هؤلاء^(٩٠).

إن قواعد المجاملة كانت من التبعث لدى معظم الشعوب الساذجة بمثل
ماهى عليه لدى الأمم الراقية^(٩١) فكل جماعة لها طرائقها الرسمية فى الاستقبال
والتوديع ، فإذا ما التقى شخصان فقد يتحاكان بالأنوف أو يتشم أحدهما
الآخر ، أو يضرب كل منهما زميله ضربا رقيقا^(٩٢) ولكن هؤلاء الناس -
كما أسلفنا - يستحيل أن يقبل أحد منهم أحدا ؛ وبعض القبائل الغليظة
كانت أحسن أدبا من متوسط الإنسان الحديث ، فصيدو الرعوس
البشرية من قبيلة « دياك » يقال عنهم إنهم « وديعون مسالمون » فى حياتهم
المنزلية ؛ وهنود أمريكا الوسطى يعتبرون حديث الرجل الأبيض بصوت
عال وسلوكه الغليظ من علامات سوء تربيته وثقافته البدائية^(٩٣) .

إن كل الجماعات البشرية تقريبا تكاد تتفق فى عقيدة كل منها بأن سائر
الجماعات أخط منها ؛ فالهنود الأمريكيون يعدون أنفسهم شعب الله المختار ،
خلقه « الروح الأعظم » خاصة ليكون مثلا يرتفع إليه البشر ، وتهيبة من
القبائل الهندية تطلق على نفسها « الناس الذين لا ناس سواهم » وأخرى
تطلق على نفسها « الناس بين الناس » وقال « الكاربيون » Caribs « نحن
وحدنا الناس » ، وكان الاسكيمو يعتقدون أن الأوربيين إنما ارتحلوا إلى
جرينلندة لينفوا عنهم طرائق العيش الصحيحة والفضائل^(٩٤) ونتيجة ذلك
أن الإنسان البدائى لم يكن يدور فى خلده أن يعامل القبائل الأخرى ملتزما
بنفس القيود الخلقية التى يلتزمها فى معاملته لبنى قبيلته ، فهو صراحة يرى
أن وظيفة الأخلاق هى تقوية جماعته وشد أزرها تجاه سائر الجماعات ،
فالأوامر الخلقية والمحرمات لا تنطبق إلا على أهل قبيلته ، أما الآخرون
فما لم يكونوا ضيوفه ، فباح له أن يذهب فى معاداتهم إلى الحد المستطاع^(٩٥)

ليس التقدم الخلقى في التاريخ متمثلاً في تحسّن التشريع الخلقى بمقدار ما هو متمثل في توسيع الدائرة التي يُطبّق فيها ، فأخلاق الإنسان الحديث ليست بالضرورة أسمى من أخلاق البدائي ، ولو أن التشريعيين الخلقين قد يختلفان فيما بينهما اختلافاً بينا من حيث المضمون والتنفيذ والأداء ، لكن الأخلاق الحديثه في الأيام العادية تنسج نطاقاً بحيث تشمل عدداً أكبر من الناس عن ذي قبل - ولو أن هذا التوسع قد أخذ يقل تدريجياً(*) ذلك أنه لما جعلت القبائل تحتشد في وحدات أكبر تسمى دُولاً ، فاضت قواعد الأخلاق عن حدود القبيلة ؛ ثم لما اتصلت الدول بوسائل المواصلات أو بالخطر المشترك ، تسلت الأخلاق من دولة إلى دولة خلال الحدود ، وطفق فريق من الناس يطبق قواعده الخلقية على الأوروبيين جميعاً ، ثم على الجنس الأبيض كله ، ثم أخيراً على البشر أجمعين ، وربما لم يخل عصر من العصور من أصحاب المثل العليا الذين تمنوا أن يحبوا الناس جميعاً حبهم لخيرهم ، وربما كانت أصواتهم دائماً صيحات في واد بلقع من قوميات وحروب ، لكن عدد هؤلاء الناس أوحى نسبتهم العددية إلى غيرهم ، قد زادت اليوم على الأرجح ، ولئن نخلت السياسة من الأخلاق ، فهناك أخلاق في التجارة الدولية لسبب بسيط هو أن هذه التجارة يستحيل قيامها بغير شيء من القيود والقانون والثقة ، فإن بدأت التجارة في القرصنة ، فقد صعّدت إلى قمة الأخلاق .

ذلك لأن الجماعات الإنسانية قد ارتضت أن تقيم تشريعاتها الخلقية على أساس من المنفعة الاقتصادية والسياسية الصريحة ، إذ الفرد لم تهيئه طبيعته بالمبول التي تميل به نحو إخضاع مصالحه الشخصية لمصالح المجتمع ، أو نحو طاعة القوانين المخرجة للصدور إذ لم يكن ثمة من الوسائل المنظورة ما يفرضها عليه بالقوة ؛

(*) ومع ذلك فالمدى الذي يطبق في حدوده التشريع الخلقى قد أخذ يضيق منذ المصور الوسطى نتيجة لنشأة القوميات .

فلكى تقييم المجتمعات على الأفراد حارساً غير منظور ، ولكى تقوى فيهم الدوافع الاجتماعية ضد الدوافع الفردية بما تثيره فيهم من آمال قوية ومخاوف قوية ، فإنها استخدمت الديانة وإن لم تختبرها ؛ ولقد عبر الجغرافى القديم « سترابو » عن أكثر الآراء تقدماً فى هذا الموضوع منذ تسعة عشر قرناً فقال :

إنك فى معاملتك لحشد من النساء ، على أقل تقدير ، أو معاملتك لأية مجموعة من الناس اجتمعت كما اتفق ، لا تستطيع بالفلسفة أن تؤثر فيهم ، إنك لا تستطيع أن تؤثر فيهم بالعقل أو أن تمنعهم إقناعاً بضرورة الوفاق والورع والإيمان كلا ، بل لا بد لهم من الخوف الدينى أيضاً . ولا يمكن إثارة هذا الخوف فى نفوسهم بغير الأساطير والأعاجيب ؛ فالصواعق والدروع والصولحانات والمشاعل ورماح الآلهة ، كل هذه من الأساطير ، وكذلك منها اللاهوت القديم من أوله إلى آخره ؛ لكن مؤسسى الدول حرصوا على هذه الأشياء باعتبارها عقاريت يُفزعون بها السُّدج من الناس ؛ ولما كانت هذه طبيعة الأساطير (الميثولوجيا) ثم لما احتلت الأساطير مكانتها فى إطار الحياة المدنية والاجتماعية كما احتلت مكانتها كذلك فى تاريخ الوقائع الملموسة ، فقد تمسك القدماء بنظمهم فى تربية أطفالهم وطبقوها حتى سن النضوج ، وآمنوا بأنهم يستطيعون بوساطة الشعر أن يهدبوا أية فترة من فترات الحياة عند الناشئ ؛ أما اليوم ، وبعد أن مرَّ هذا الزمن الطويل ، أصبح التاريخ وأصبحت الفلسفة فى مقدمة ما يربى به الناشئ ؛ مع أن الفلسفة لا تصلح إلا للقليل ، بينما الشعر أصلح منها للشعب بصفة عامة « (٩٦) .

لكن فسرعان ما تسبغ العقيدة الدينية على الأخلاق لونهاً من التقديس ، لأن ما هو فوق الطبيعة يضيف أهمية يستحيل أن تكنسها من تلقاء نفسها الأشياء التى نعرفها بالتجربة الحسية التى نفهمها بردِّها إلى أصولها ، فالخيال أيسرُ وسيلةً من العلم فى حكم الناس ؛ ولكن هل كانت هذه الفائدة الخلقية هى أصل العقيدة الدينية وأساسها ؟

الفصل الرابع

الدين

الملاحظة البدائيون

إذا عرفنا الدين بأنه عبادة القوى الكائنة فوق الطبيعة . فلا بد لنا منذ البداية أن نلاحظ أن بعض الشعوب - فيما يبدو - ليس لهم ديانة على الإطلاق فيعض قبائل الأقزام في أفريقيا لم يكن لهم عقيدة أو شعائر دينية يقيمونها بحيث يراها المشاهدون ؛ ولم يكن لهم طوطم ولا أصنام ولا آلهة ؛ وكانوا يدفنون موتاهم بغير احتفال ، فإذا ما فرغوا من دفنهم لم يبذلوا عليهم ما يدل على أنهم يهتمون لأمرهم بعد ذلك إطلاقاً ، بل أعوزتهم حتى الخرافة ، ذلك أو أخذنا بأقوال الرحالة فلم نظن بأقوالهم الإسراف الذي يعزى على التصديق^(١٩٦) ؛ وأما أقزام « الكامرون » فلم يعترفوا إلا بآلهة الشر وحدها ، ولم يحاولوا قط إرضاء هؤلاء الآلهة على أساس أن المحاولة في هذه السبيل عث. لا يجدى ؛ وقبيلة « فيدا » في سيلان اعترفت باحتمال وجود الآلهة وخلود الروح ، لكنهم لم يجاوزوا ذلك الحد بحيث يؤدّون الصلاة أو يقدمون القرابين ؛ وسأل أحدهم سائل^١ عن الله فأجاب في حيرة فيلسوف حديث : « أياكون على صخرة أم على تل من تلال الغل الأبيض أم على شجرة ؟ إنى لم أرقط لها ! »^(١٩٦ب) ؛ وهنود أمريكا الشمالية تصوروا إلهما لكنهم لم يعبدوه ، وظنوا - كما ظن أبيقور - أنه أبعد من أن يعنى بأمرهم^(١٩٦ج) ، وقال هندي من قبيلة « أيبون » ما عساه أن يحير عالماً من علماء الميتافيزيقا ، إذ قال في لهجة كونفوشية « إن آباءنا وأجدادنا كانت تعتهم هذه الأرض وحدها ، لا يرجون شيئاً سوى أن يُنبت لهم السهل كلاً ويفجّر لهم ماء لتتطعم جيادهم

وتشرب ؛ لأنهم لم يشغلوا أنفسهم أبداً بما يجري في السماء ، وبمن ذا عسى أن يكون خالق النجوم وحاكمها » ، ولما كان الإسكيمو يُسألون من ذا صنع السماوات والأرض ، كانوا يجيبون دائماً بقولهم « لسنا ندرى » (٩٦د) ، وسئل رجل من « الزولو » : « إذا رأيت الشمس تشرق وتغيب ، وإذا رأيت الشجر ينمو ، فهل تعرف من خالقها ومن حاكمها ؟ » أجاب في بساطة بقوله « كلا ، فنحن نراها ، لكننا لانستطيع أن نعلم أننى جاءت ، ويظهر أنها جاءت من تلقاء نفسها » (٩٦هـ)

على أن هذه حالات نادرة الوقوع ، ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعمُّ البشر جميعاً اعتقاداً سليماً ؛ وهذه ، في رأى الفيلسوف ، حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية ، فهو لا يكفيه أن يعلم عن الديانات كلها أنها مليئة باللغو الباطل ، لأنه معنىٌ قبل ذلك بالمشكلة في ذاتها ، أعنى مشكلة العقيدة الدينية من حيث قِدَم ظهورها ودوام وجودها ، فما أساس هذه التقوى التي لا يمحوها شيء من صدر الإنسان ؟ .

١ - مصادر الدين

الخوف - الدهشة - الأحلام - النفس - الروحانية

الخوف - كما قال لوكريشس - أول أمهات الآلهة ، وخصوصاً الخوف من الموت ، فقد كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار ، وقلما جاءت المنيةُ عن طريق الشيخوخة الطبيعية ، فقبل أن تدب الشيخوخة في الأجسام بزمن طويل ، كانت كثرة الناس تقضى بعامل من عوامل الاعتداء العنيف أو بمرض غريب يفتك بها فتكا ، ومن هنا لم يصدق الإنسان البدائي أن الموت ظاهرة طبيعية (٩٧) وعزاه إلى فعل الكائنات الخارقة للطبيعة ، ففي أساطير سكان بريطانيا الجديدة الأصليين ، جاء الموت نتيجة خطأ أخطأته الآلهة ، فقد قال الإله الحيرّ

« كامبينانا » إلى أخيه الأحمق « كورثوفا » : « اهبط إلى الناس وقل لهم يسلمخوا جلودهم حتى يتخلصوا من الموت ، ثم أنبئ الشعبين أن موتها منذ اليوم أمر محتوم » فخلط « كورثوفا » بين شطري الرسالة بحيث يتبع سر الخلود للشعبين ، وقضاء الموت للإنسان (٩٨) ؛ وهكذا ظن كثير من القبائل أن الموت مرجعه إلى تقلص الجلد ، وأن الإنسان يتخذ لو استطاع أن يبدل بجلده جلوداً آخر (٩٩) .

وتعاونت عدة عوامل على خلق العقيدة الدينية ، فمنها الخوف من الموت ، ومنها كذلك الدهشة لما يسبب الحوادث التي تأتي مصادفة أو الأحداث التي ليس في مقدور الإنسان فهمها ، ومنها الأمل في معونة الآلهة والشكر على ما يصيب الإنسان من حظ سعيد ، وكان أهم ما تعلقت به دهشتهم وما استوقف أنظارهم بسيره العجيب هما الجنس والأحلام ، ثم الأثر الغريب الذي تحدثه أجرام السماء في الأرض والإنسان ؛ لقد بهت الإنسان البدائي لهذه الأعاجيب التي يراها في نومه ، وفزع فزعا شديداً حين شهد في رؤاه أشخاص أولئك الذين يعلم عنهم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة ؛ لقد دفن موتاه بيديه ليحول دون عودتهم ؟ لقد دفن مع الموتى ألوان الطعام وسائر الحاجات حتى لا يعود الميت من جديد فيصعب عليه لعنته ، بل كان أحياناً يترك للميت الدار التي جاءه فيها الموت ، وينتقل هو إلى دار أخرى ، وفي بعض البلدان كان الإنسان البدائي يخرج الجثة من الدار خلال ثقب في الحائط ، لا من بابها ، ثم يدور بها حول الدار ثلاث دورات سريعة ، لكي تنسى الروح أين المداخل إلى تلك الدار فلا تعاودها أبداً (١٠٠) .

مثل هذه الأحداث التي كانت تصادف الإنسان البدائي في حياته ، أقنعتهم بأن كل كائن حي له تنفس أو حياة دفيئة في جوفه ، يمكن انفصالها عن الجسد لبان المرض والنوم والموت ؛ جاء في كتاب من كتب « يوبانشاد » في الهند القديمة : « لا يوقظن أحدٌ نائماً يقاظاً مفاجئاً عنيفاً ؛ لأنه من أصعب الأمور علاجاً أن تضل الروح فلا تعرف طريقها إلى جسدها » (١٠١) وليست الروح

بقاصرة على الإنسان وحده ، بل إن لكل شيء روحاً ، والعالم الخارجي ليس مواتاً ولا خلواً من الإحساس ، لكنه كائن حيّ دافق الحياة^(١٠٢) مولو لم يكن الأمر كذلك - هكذا ظن الفلاسفة القدامى - لكان العالم مليئاً بالأحداث التي يستحيل تعليلها ، مثل حركة الشمس ، أو البرق الذي يصعق الأحياء ، أو تهامس الشجر ، وهكذا تصور الناس الأشياء والحوادث مشخّصة قبل أن يتصوروها جوامد أو مجردة ؛ وبعبارة أخرى سبقت الديانة الفلسفة ؛ وهذه الروحانية في النظر إلى الأشياء هي ما في الدين من شعر ، وما في الشعر من دين ؛ وقد نشاهد في أبسط صورها ، في عيني الكلب الدهشتين إذ يرقب بهما ورقة حملتها الريح أمامه ، فربما ظن إزاءها أن لها روحاً تحركها من باطنها ، وهذا الشعور نفسه هو الذي نصادفه في أعلى درجاته عند الشاعر فيما ينظم من قصيد ؛ ففي رأى الإنسان البدائي - و رأى الشعراء في كل العصور - أن الجبال والأنهار والصخور والأشجار والنجوم والشمس والقمر والسماء ، كلها أشياء مقدسة لأنها العلامات الخارجية المرئية للنفوس الباطنية الخفية ؛ وكذلك الحال مع اليونان الأقدمين إذ جعلوا السماء هي الإله « أورانوس » ، والقمر هو الإله « سلين » ، والأرض هي الإلهة « جى » ، والبحر هو الإله « بوريدن » ، وأما الإله « بان » ففي كل أرجاء الغابات في وقت واحد ؛ والغابات في رأى الجرمان الأقدمين كانت في أول أمرها عامرة بالجن والشياطين والسحرة والمرادة والأقزام وعرائس الجن وإنك لتلمس هذه الكائنات الجنية مبثوثة في موسيقى « فاجنر » وفي مسرحيات « إبسنين » الشعرية ؛ والفلاح الساذج في إيرلندا لا يزال يؤمن بوجود الجنيات ، ويستحيل أن يعترف بشاعر أو كاتب مسرحي على أنه من رجال النهضة الأدبية هناك إلا إذا أدخل الجنيات في أدبه ، وإن في هذه النظرة الروحانية لحكمة وجمالاً ، فن الخير الذي يشرح الصدور أن تعامل الأشياء معاملة للأحياء ؛

والنفس الحساسة - كما يقول أرفف الكتاب المعاصرين حساسية -
ترعى كأنما :

« الطبيعة قد أخذت تبدى في هيئة مجموعات كبرى من كائنات حية
مستقل بعضها عن بعض ؛ بعضها مرئى وبعضها خفى^١ ، لكنها جميعاً من طبيعة
العقل ، ثم هى جميعاً من طبيعة المادة ، وهى كذلك جميعاً تمزج فى أنفسها
بين العقل والمادة فتكوّن بذلك سر الوجود العميق . . . إن العالم ملء بالآلهة !
فن كل كوكب ومن كل صخرة ينبثق وجود^٢ يثيرنا بنوع من الإحساس
الذى ندرك به كثرة ما هنالك من قووى شبيهة بقوى الآلهة ، فمنها القوى
ومنها الضعيف ، ومنها الخليل ومنها الضئيل ، تتحرك كلها بين السماء والأرض
لتحقق غاياتها التى كتبتها فى أجوافها سرّاً^٣ » (١٠٣)

٢ - المعبودات الدينية

الشمس - النجوم - الأرض - الجنس - الحيوان - الطوطمية -
الانتقال إلى مرحلة الآلهة البشرية - عبادة الأشباح - عبادة الأسلاف

لما كان لكل شيء روح ، أو إله خفى^٤ ، إذن فالمعبودات الدينية لاتقع
تحت الحصر ، وهى تقع فى ستة أقسام : ما هو سماوى ، وما هو أرضى ،
وما هو جنسى^٥ ، وما هو حيوانى^٦ ، وما هو بشرى^٧ ، وما هو إلهى^٨ ؛ وبالطبع
لن يتاح لنا قط أن نعلم أى الأشياء فى هذا العالم الفسيح كان أول معبود
للإنسان^٩ ؛ وربما كان القمر بين المعبودات الأولى ؛ فكما أننا اليوم نتحدث
فى أمثالنا الشعبية عن « الرجل الذى يسكن القمر » كذلك صورت الأساطير
الأولى القمر رجلاً شجاعاً أغوى النساء وسبّب لهن الحيض مرة كلها ظهر ؛
ولقد كان القمر لها محبباً للنساء ، عبّدهنّته لأنه جامهن بين الآلهة ؛ وكذلك
اتخذ القمر الشاحب مقياساً للزمن ، فهو فى ظنهم يهيم على الجو ،
وينزل من السماء المطر والثلج ، حتى الضسفادع تضرع للقمر بالدعاء
لينزل لها المطر^{١٠} (١٠٤) :

ولسنا ندري متى حلت الشمس محل القمر سيدة على دواة السماء ، عند الديانة البدائية ؛ وربما حدث ذلك حين حلت الزراعة محل الصيد ، فكان سير الشمس محددًا لفصول البذر وفصول الحصاد ، وأدرك الإنسان أن حرارة الشمس هي العلة الرئيسية فيما تدره عليه الأرض من خيرات ؛ عندئذ انقلبت الأرض في أعين البدائيين لإلهة تخصصها الأشعة الحارة ، وعبد الناس الشمس العظيمة لأنها بمثابة الوالد الذي نفخ الحياة في كل شيء حتى (١٠٥) ومن هذه البداية الساذجة هبطت عبادة الشمس إلى العقائد الوثنية عند الأقدمين ولم يكن كثير من الآلهة فيما بعد سوى تشخيص للشمس وتجسيد لها ؛ ألم يتقنّ اليونان على أناكسجوراس بالنفي لأنه استباح لنفسه أن يذهب بالظن مذهبا مؤداه أن الشمس ليست لها ، بل هي كرة من النار تقرب في حجمها من « پلونيذ » ؟ وكذلك استبقت العصور الوسطى بقیة من عبادة الشمس في الهالات التي كان الناس يصورونها حول رعوس القديسين (١٠٦) ، وإمبراطور اليابان في أيامنا هذه معدود عند معظم شعبه بأنه تجسيد لإله الشمس (١٠٧) ، الحق أنك لا تكاد تجد خرافة من خرافات العصر القديم إلا ولها لون من الحياة القائمة بيننا اليوم ؛ إن المدنية صنيعة أقلية من الناس أقاموا بناءها في أناة واستمدوا جوهرها من حياة الترف ؛ أما سواد الناس وغمارهم فلا يكاد يتغير منهم شيء كلما مرت بهم ألف عام .

وكل نجم شأنه شأن الشمس والقمر ، يحتوى إلهاً وهو بذاته إله ، ويتحرك بأمر روح كامن في جوفه ؛ وهذه الأرواح في ظل المسيحية أصبحت ملائكة تهدى سواء السبيل ، أو إن شئت فقل أصبحت لأفلاك السماء قادة تسلك بها في مسالكها ، حتى « كبلر » لم يبلغ من النظرة العلمية مبلغاً يحمله على إنكارها ؛ والسماء نفسها كانت إلهاً عظيماً ، تقام لها العبادة في تبتل لأنها هي التي تُنزل الغيث أو تجبسه ؛ وكثير من القبائل البدائية يستعمل كلمة « الله » لتعني « السماء ولفظ الله عند « اللوبارى » و « الدنكا » معناها المطر ، كذلك كانت السماء

عند المنغوليين هي الإله الأعظم ، وكذلك الحال في الصين ، وفي الهند
الفيدية أيضاً ، معنى كلمة الله هو « السماء الوالدة » ، والله عند اليونان هو
ريوس أو السماء « مرعثة السحاب » وهو « أهورا » عند الفرس ، أى
السماء الزرقاء (١٠٨) .

ولا نزال في أيامنا هذه نضرع إلى « السماء » أن تقينا الشرور ، ومعظم
الأساطير الأولى تدور حول محور واحد ، هو الخصب الذى نتج عن تزواج
الأرض والسماء .

لأن الأرض هي الأخرى كانت الها ، وكل مظهر رئيسى من مظاهرها
كان يقوم على أمره إله ؛ فللشجر أرواح كما لبني الإنسان سواء بسواء ،
وقطعُ الشجرة معناه قتلٌ صريح ؛ وكان الهنود في أمريكا الشمالية أحياناً
يعزون هزيمتهم وانحلالهم إلى أن البيض قد قطعوا الأشجار التي كانت أرواحها
تقى « الحمُر » من الأذى ؛ وفي جزر « مولقاً » كانوا يعتبرون الأشجار
أيام الإزهار حواملَ أجنّة ، فلا يجيزون إلى جوارها ارتفاع الصوت
أو إشعال النار أو غير ذلك من عوامل الاضطراب حتى لا يفسدوا على
الأشجار الحلبات سكونها ، وإلا لجاز أن تسقط ثمارها قبل نضجها كما
تجهض المرأة إن ألم بها الفزع ؛ وكذلك في « أبويننا » Abouyna لا يؤذن
بالأصوات العالية على مقربة من الأرض إذا ما ازهرت سنابله خشية أن
يصيبه الإجهاض فينقلب أعواداً من القش العقيم (١٠٩) و« الفال » القدماء عبدوا
أشجار غابات معينة كانت لديهم مقدسة ، وكذلك القساوسة « الدرديون »
Druid في إنجلترا عجبوا دبتق أشجار البلوط ، الذى لا يزال يوحى إلى نابشعيرة من
الشعائر المحببة إلى نفوسنا ؛ وأقدم عقيدة دينية في آسيا - مما تستطيع أن تتعقبه
إلى أصوله التاريخية - هي تقديس الأشجار وينابيع الماء والأنهار والجبال (١١٠)
فكثير من الجبال كان أماكن مقدسة ، اتخذتها الآلهة مغراً ترسل منه ما شات من
صواعق ؛ وأما الزلازل فليست سوى آلهة ضجروا أو ضاقوا صدرآ فهزوا أكتافهم
ويعلل أهل « فيجي » الزلازل بأن إله الأرض يتقلب في نومه ؛ وإذا ما زلزلت

الأرض جند قبيلة « ساموا » أخذوا يقرضون الأرض بأسنانهم ويقتلون إلى الإله « مافوي » Mafuie أنه يسكن حشية أن تتمزق الأرض كلها لإربا لإربا^(١١١) ؛ والأرض عند الناس في شتى النواحي المعمورة تقريباً هي « الأم الكبرى » فاللغة الإنجليزية التي كثيراً ما تكون بمثابة الرواسب التي تجمعت فيها العقائد البدائية أو اللاشعورية ، تشير حتى اليوم بصلة القرى بين المادة والأمومة (مادة معناها Matter والأم معناها Mother)^(١١٢) وليس « إشتتر » و« سيبيل » و« ديمير » و« سيريز » و« أفروديت » و« فينيس » و« فرييا » إلا صوراً متأخرة نسبياً لإلهات الأرض الأوليات اللاتي خلعن من خصوبتهن خصوبة على الأرض فأخرجت من جوفها الخيرات ؛ وما رواه الناس عن ولادة هؤلاء الإلهات وزواجهن وعن موتهن وعودتهن منتصرات إلى الحياة ، إن هو إلا رموز أو تعليل لظهور النبات ثم نجفاه ، والتجديد والملاحظ الذي يطرأ على حياة النبات حيناً بعد حين ؛ وهذه الإلهات تدل بأنوثتهن على أن الإنسان البدائي قد ربط بين الزراعة والمرأة ؛ فلما أصبحت الزراعة هي الصورة السائدة في الحياة الإنسانية ، كانت إلهات النبات هي سيدة الإلهات جميعاً ؛ ومعظم الأرباب في العصر القديم كان من النساء ، ثم حل محلهن الآلهة المذكور ، حين ظهرت الأسرة الأبوية فوق الأرض ظافرة^(١١٣) وكما يرى العقل البدائي فيما يقول من شعر عميق سرّاً إلهياً في نمو الشجرة ، كذلك يرى يداً إلهية في حمل الجنين أو ولادته ؛ إن « الهمجي » لا يعرف شيئاً عن البويضة والحرثومة المنوية ، لكنه يرى الأعضاء الظاهرة أمام عينيه ، التي تشترك معاً في هذه العملية فيوثلها ، فهي كذلك تكن في جوفها الأرواح ولا بد من عبادتها ، أليست هذه القوى الخلاقة العجيبة في سرّها ، أعجب الكائنات جميعاً ؟ ففيها تظهر معجزة الخصوبة والنمو أوضح مما تظهر في تربة الأرض نفسها ؛ وإذن فلا بد أن تكون أقرب ما تُجسّدُ فيه الآلهة قوتّها ؛ وتوشك الشعوب البدائية جميعاً أن تعبّدَ الجنس على صورة من الصور أو شعيرة من

الشعائر ؛ ولم يكن أدناها ، بل أعلاها مدنيّة ، هو الذي عبّر عن هذه العبادة تعبيراً كاملاً ؛ وسرى هذه العبادة في مصر والهند وابل وآشور واليونان والرومان ؛ كان الناس يجلون الوظيفة الجنسية والجانب الجنسي من آتهم البدائية إجلالاً عظيماً (١١٤) لأنهم يرون في ذلك شيئاً من المفاخرة بل لأنهم يرتبطون ارتباطاً وجدانياً بالخصوبة في المرأة وفي الأرض ؛ ولذلك عبدوا بعض الحيوان كالعجل والبعبان لأن لهما - فيما يظهر - القوة الإلهية في الإنسال ، أو قلّ إنهما يرمزان لتلك القوة فلا شك أن البعبان في قصة عدن رمز جنسيّ يمثّل العلاقة الجنسية باعتبارها أساس الشركه ، ويوحى بأن اليقظة الجنسية هي بداية الخير والشر ، وربما يشير كذلك إلى علاقة أصبحت مضرب الأمثال بين سداجة العقل ونعيم الفردوس (*)

وتكاد لا تجد حيواناً في الطبيعة كلها - من الجعّل (الجرعان) المصري إلى الفيل عند الهندوس - لم يكن في بلدما موضع عبادة باعتباره لها : فهنود « أوجيبوا Ojibwa » أطلقوا اسم « طوطم » على حيوانهم الخاص الذي يعبدونه ، وعلى العشيرة التي تعبده ، وعلى كل عضو من تلك العشيرة ؛ ثم جاء علماء الأجناس البشرية فأخذوا هذه الكلمة وجعلوها اسماً على مذهب « الطوطمة » الذي يدل دلالة غامضة على أية عبادة لشيء معين - وعادة يكون الشيء المعبود حيواناً أو نباتاً - تتخذة جماعة ما موضع عبادتها ؛ ولقد وجدنا أنواعاً مختلفة من الطواطم في أصقاع من الأرض ليس بينها رابطة ظاهرة ، من قبائل الهنود في شمال أمريكا ، إلى أهل أفريقيا وقبيلة « دراويد » Daravians في الهند ، وقبائل - استراليا (١١٥) ؛ ولقد أعان الطوطم باعتباره شعاراً دينياً . على توحيد القبيلة التي ظن أعضاؤها أنهم مرتبطون معاً برباطه ، أو هبطوا جميعاً من سلالته ؛ فقبيلة « إراكو » تعتقد - على نحو شبيه بما يذهب إليه دارون - أنهم سلالة التزاوج بين النساء وبين الديبة

(*) انظر الفصل الثاني عشر ، الفقرة السادسة ، من الجزء الخاص بالشرق الأدنى .

والذئاب والغزلان ، وأصبح الطوطم - باعتباره شعاراً أو رمزاً - علامة مفيدة تدل على ما بين البدائيين من قُربى ، وتميزهم بعضهم من بعض ، ثم أخذ على مرّ الزمن يتطور في صور عكسائية فكان منه التأمم والشارات ، كهذا الذى تتخذه الأمم . من شعارات لها كالأسد أو النسر ، أو الأيل الذى تتخذه الجمعيات التى تعمل على الإخاء بين الناس ، أو هذه الحيوانات الخرساء التى تصنعها الأحزاب السياسية عندنا اليوم ، لتمثيل رسوخ القبيلة أو صخب البغال ؛ وكانت الحمامة والسمة والحمل ، فى رمزية العقيدة المسيحية إبان نشوئها ، بقايا القديم فى تمجيد الطواطم ؛ بل إن الخنزير الوضيع كان يوماً طوطماً لليهود السابقين للتاريخ^(١١٦) ؛ وفى معظم الحالات كان الطوطم محرماً لا يجوز لمسه ؛ ويجوز أكله فى بعض الظروف ، على أن يكون ذلك من قبيل الشعائر الدينية ، فهو بذلك يرمز إلى أكل الإنسان لله أكلاً تعبدياً^(*) ، وقبيلة « غالا » فى الحبشة تأكل السمكة التى تعبدها فى احتفال دينى رصين ، ويقول أبناؤها : « إننا نشعر بالروح تتحرك فينا إذ نحن نأكلها » ؛ وما كان أشد دهشة المبشرين الأطهار ، إذ هم يبشرون بالإنجيل لقبيلة « غالا » أن وجدوا بين هؤلاء السذج شعيرة شديدة الشبه بالقدّاس عند المسيحيين^(١١٧)

ويجوز أن قد كان الخوف أساس الطوطمة ، كما هو أساس كثير من العبادات ، وذلك بأن يكون الإنسان قد عبّد الحيوان لقوته ، فلم يرَ بُدّاً من استرضائه ، فلما أن طهرّ الصيد الغابة من وحشها ، ومهد الطريق للطمأنينة التى تتوقّر فى الحياة الزراعية ، قلّت عبادة الحيوان ولو أنها لم تنزل تمام الزوال ؛ وربما استمدت

(*) يعتقد فرويد بما له من خصوصية فى الخيال يتميز بها ، أن الطوطم هو صورة يرمز بها الإنسان إلى الأب ، الذى يهابه الأبناء ويمقتونه لشدة بأسه وقوته ، فيثورون عليه ويأكلونه^(١١٧) ويرى دركهايم أن الطوطم رمز للمشيئة يهابه الفرد ويمقتته (ومن هنا كان « مقدساً » و « نجساً » فى آن معاً) لشدة سلطانه عليه سلطاناً لا يغلب ولا يستبداءه استبداداً يجرج الصدر ، وأن للشعور الدينى فى أساسه الأول هو ما كان يشعر به الفرد إزاء أولى الأمر فى جماعته الذين يبيدهم السلطة^(١١٨)

الآلهة البشرية الأولى طبعها من الآلهة الحيوانية التي جاءت تلك الآلهة البشرية لها بديلاً ، والانتقال من أولئك إلى هؤلاء واضح في القصص المشهورة التي تروى لنا تحول الصورة الإلهية ، والتي تراها في « أوفد » الشاعر ، وفي كل شاعر من قبيلة من تراهم في لغات الأرض جميعاً ، فتصف لنا تلك القصص كيف كانت الآلهة ، أو كيف صارت حيوانية الصورة ، وبعدها ظلت صفات الحيوان لاحقاً بالآلهة لا تتركها ، كما تظل رائحة الاصطبل لاحقاً بمكانه حتى بعد تحوله قصرأ ريفياً منيفاً ؛ حتى في « هومر » الذي كان قد بلغ من الرقي مبلغاً بعيداً ، ترى الإلهة « جلوكويس أثيني » لها عينا بومة ، و « هيري بويس » لها عينا بقرة ؛ والآلهة أو الغيلان في مصر وبابل ، بوجوهها الإنسانية وأجسادها الحيوانية تبين مرحلة الانتقال نفسها ، وتعرف بالحقيقة عينا ، وهي أن كثيراً من الآلهة البشرية كانت يوماً آلهة حيوانية (١٢٠) .

ومع ذلك فعظم الآلهة البشرية قد كانوا - فيما يظهر - عند البداية رجالاً من الموتى ضخموا بفعل الخيال ؛ فظهور الموتى في الأحلام كان وحده كافياً للتمكين من عبادتهم ، لأن العبادة إن لم تكن وليدة الخوف ، فهي على الأقل زميلته ؛ وخصوصاً من كانوا أقوياء إبان حياتهم ، فألقوا الخوف في نفوس الناس ؛ هؤلاء يرجح جداً أن يُعبدوا بعد موتهم (١٢١) ، ولذلك تجد الكلمة التي معناها « إله » عند كثير من الشعوب البدائية ، معناها في الحقيقة « رجل ميت » ؛ وحتى اليوم ، ترى كلمة « Spirit » في الإنجليزية وكلمة « Geist » في الألمانية معناهما إما روح وإما شبح ؛ وكان اليونان يتبركون بموتاهم على نحو ما يتبرك المسيحيون بالقدسين (١٢٢) ؛ وأتقد بلغت العقيدة في استمرار حياة الموتى - وهي عقيدة تولدت في بدايتها من الأحلام - مبلغاً عظيماً حتى جعل البدائيون أحياناً يرسلون الرسائل لموتاهم بمعنى الكلمة الحرفي الدقيق ؛ ففي قبيلة من القبائل ، إذا ما أراد الرئيس أن يعث بخطاب لميت ، أسمع له بعد ثم قطع رأس العبد ليؤدي الرسالة ، فإذا نسي

الرئيس شيئاً كما كان يريد ذكره في الخطاب ، أرسل عبداً آخر بنفس الطريقة ليكون « حاشية » للخطاب الأول (١٢٣)

ثم تدرجت عبادة الأشباح حتى أصبحت عبادة للأسلاف ؛ فقد بات الناس يخافون موتهم جميعاً ويعملون على استرضائهم خشية أن يُنزلوا لعنائهم على الأحياء فيجلبوا لهم الشقاء ؛ وكأنما كانت هذه العبادة للأسلاف مهياًة على نحو يجعلها ملائمة لتدعيم المجتمع من حيث سلطانه ودوامه ، وللتمكن من روح المحافظة على القديم والاحتفاظ بالنظام ، حتى لقد شاعت شيوعاً سريعاً في كل أرجاء المعمورة فازدهرت في مصر واليونان وروما ، ولا تزال قائمة ومستولية على النفوس بقوة في اليابان والصين الآن ؛ وإن كثيراً من الشعوب ليعبدون أسلافهم دون أن يكون لديهم إله (١٢٤) (*) ؛ ولقد عمل هذا الاتجاه على ربط أواصر الأسرة ربطاً وثيقاً ؛ على الرغم من كراهة الخلف لهذا النظام ؛ وكذلك كان لكثير من المجتمعات البدائية بمثابة إطار خفي^١ ينتظم الأفراد في مجموعة متأسكة ؛ وكما أن القهر انتهى إلى أن يكون ضميراً ، فكذلك الخوف تطور حتى أصبح حُبباً ؛ فشعائر عبادة الناس لأسلافهم ، التي يرجح أنها كانت وليدة الخوف في أول الأمر ، قد أثارت في القلوب بعدئذ شعور الرهبة ، ثم تطورت أخيراً إلى ورع وتقوى ؛ وكذلك ترى الاتجاه في الآلهة أن يبدؤوا في صورة الغيلان المفترسة ثم ينتهون في صورة الآباء الذين يحبون أبناءهم ؛ وهكذا يتحول الصنم المعبود على مرّ الزمن إلى مثل أعلى منشود ، كلما عملت زيادة الاطمئنان والأمن والشعور الخلقى لدى العابدين على الحدّ من وحشية آلهتهم كما تصورها أولاً ، وتحوير ملامحهم تحويراً يلائم الطور الجديد ؛ إن البطء في سير المدنية ليتمثل في تأخر المرحلة التي أحسّ فيها الناس بحب آلهتهم .

(*) بقايا عبادة الأسلاف لا تزال قائمة بيننا متمثلة في عنايتنا بالقبور وزيارتها ، وفي قداسنا وصلاتنا من أجل الميت .

إن فكرة إله بشرى لم تظهر في مراحل التطور الطويلة إلا أخيراً ؛ وقد برزت في صورة واضحة بعد اجتيازها لمراحل كثيرة أخرجتها من تصور الإنسان لمحيط خضم أو لحشد كبير من الأرواح والأشباح تحيط بكل شيء وتعمر كل شيء ؛ ثم انتقل الإنسان من خوفه وعبادته لأرواح غامضة المعالم مهمة الحدود ، إلى تمجيد القوى السماوية والنباتية والجنسية ، ثم إلى خشوعه للحيوان وعبادته للأسلاف ، والأرجح أن تكون فكرة الإنسان عن الله بأنه « أب » قد تفرعت عن عبادة الأسلاف ، لأن معناها في الأصل هو أن الناس قد هبوا من الآلهة بأجسامهم ، لا بأرواحهم فقط (١٢٥) . ولذا لا تجد في اللاهوت البدائي حداً قاصلاً متميزاً من حيث النوع بين الآلهة والناس ؛ فعند اليونان الأقدمين - مثلاً - كان الأسلاف آلهة والآلهة أسلافاً ؛ وتلت ذلك خطوة أخرى في التطور ، حين ميّزَ الناس من بين هؤلاء الأسلاف الخليلط رجال ونساء بعينهم ، كان لهم امتياز خاص دون سائر الأسلاف ، فأسبغوا عليهم لونا أوضح من الربوبية الصريحة ؛ وبهذا أصبح أعلام الملوك آلهة حتى قبل موتهم أحياناً ؛ لكننا إذا ما بلغنا من التطور هذه المرحلة فقد بلغنا المدينة التي دوّنها التاريخ .

٣ - طرائق الدين

السحر - طقوس الزراعة - أعياء الإباحة - أساطير الإله المبعوث - السحر
والخرافة - السحر والعلم - الكهنة

لما تصور الإنسان البدائي عالماً من الأرواح يجهل طبيعتها وغاياتها ، فقد عمل على استرضائها واجتلابها في صفته لمعونته ؛ ومن هنا كانت إضافته إلى الروحانية التي هي جوهر الديانة البدائية ، سحراً هو بمثابة الروح من شعائر العبادة البدائية ؛ فقد تصور البولينيبيون خضماً حقيقياً مليئاً بقوة السحر وأطلقوا عليه اسم « مانا » . وكان الساحر في رأيهم إنمّا يُقَطِّر لهم قطرات ضئيلة من هذا المورد الذي لا ينتهي ،

والذى يستمد منه قدرته على السحر ؛ وكان ما يسمى « بالسحر التمثيلي » هو أول الطرائق التى كسب بها الإنسان معونة الأرواح أولا والآلهة ثانيا - وهو أن يقوم الإنسان بأداء أشباه الأفعال التى يريد من الآلهة أن يؤدوها له ، كأنه بذلك يغيرهم بتقليده ، فمثلا إذا أراد الناس أن يستنزلوا المطر ، صبَّ الساحر ماء على الأرض ، والأفضل أن يصبّه من أعلى الشجرة ؛ ويحكى عن قبيلة الكفير أنها حين تَهْدَدُّهَا الجفافُ ، طلبوا إلى مبشِّرٍ أن يذهب إلى الحقول ويفتح مظلتَه (١٢٦) ؛ وفى سومطره ، تصنع المرأة العقيم صورة طفل تضعها على حجرتها راجية أن يجيئها بعد ذلك الجنين ؛ وفى « أرخبيل بابار » تصنع المرأة - إذا ما أرادت لنفسها الأمومة - عروسا من قطن أحمر ، وتقوم بحركات لإرضاعها ، وتقول صيغة سحرية معلومة ؛ ثم تبعث إلى القرية بمن يُشبع أنها حملت ، فيجىء أصدقاؤها لتهنئتها ؛ الحق أنه لا يستطيع أن يرفض تحقيق هسدا الخيال إلا واقعٌ عنيد ؛ وفى قبيلة « دياك » فى بورنيو ، إذا أراد الساحر أن يخفف آلام امرأة تضع ، يقوم هو نفسه بحركات الوضع على سبيل التمثيل ، لعله بذلك يوحى بقوة سحره إلى الجنين أن يظهر ، وأحيانا يدحرج الساحر حجرا على بطنه ثم يسقطه على الأرض ، آملا أن يقلده الجنين المستعصي فتسهل ولادته ؛ وفى العصور الوسطى كانوا يسحرون الشخص بأن يغزو الدبابيس فى تمثال من الشمع يمثل صورته (١٢٧) وهنود پيرو يحرقون الناس ممثليين فى دُماهم ، ويطلقون على هذا اسم لإحراق الروح (١٢٨) ، وليس سواد الناس فى العصر الحاضر بأرق من هذا السحر البدائى فى تخريفهم

كانت طرائق الإيحاء بالتمثيل تُستخدم بصفة خاصة لإخصاب التربة ، فأرباب العلم فى زولويشون الأعضاء التناسلية للرجل إذا ماتت فى عنفوانه ، ثم يطحنونها ويسحقونها رمادا يذرّ فوق الحقول (١٢٩) ؛ وبعض الشعوب تختار للربيع ملكا وملكة من بين رجالها ونسائها ، وتزوجهما فى حفل على ، لعل التربة تصغى إلى الحفل ومغزاه فتسرع إلى إزهار النبات ؛ بل إنهم فى بعض

البلدان يضيفون إلى مثل ذلك الحفل أن يقوم العروسان فعلاً بعملية الزواج عتناً ، حتى لا يتروكوا للطبيعة - على الرغم من أنها ليست سوى طين بارد جامد - عنراً بأنها لم تفهم الواجب الذي طُلب إليها أدائه ؛ وفي جاوة ، يتصل الفلاحون وزوجاتهم اتصالاً جنسياً في حقول الأرز ليضمنوا خصوبة إنتاجها (١٢٠) ذلك لأن البدائيين لم يفهموا نمو النبات بلغة التروجين ، بل فهموه - بالطبع دون أن يعلموا أن للنبات ذكوراً وإناثاً - على نفس الأساس الذي كانوا يعللون به إثمارة المرأة ؛ ثم أليس في استعمالنا لكلمات مثل إثمارة الطبيعة وللطبيعة وللمرأة معاً ، ما يذكّرنا بعقيدتهم تلك وما تنطوي عليه من شعر ؟

وتقام أعياد يختلط فيها الجنسان اختلاطاً بغير ضابط ، وهي في معظم الحالات إنما تقام في فصل البدر ، بمثابة أمرٍ بوقف القوانين الخلقية حيناً (وهي تذكر الناس بما كان في علاقاتهم الجنسية في أيامهم الماضية من حربة نسبية) والغاية من هذه الأعياد إخصاب زوحات منّ بهم عقم من الرجال من جهة ، وإجلاء للأرض في فصل الربيع بأن تخرج عن تحفظها الذي لازمته أيام الشتاء ، لتتقبّل ما بذروه فيها من بذور ، وتهبئ نفسها لإخراج نتاج طيب من القوت ، وتقام هذه الأعياد عند عدد كبير من الشعوب الفطرية ، وخصوصاً بين أهل كامرون في الكنغو ، والكفير ، والهوتنتوت ، والباتتو وفي ذلك يقول « ه . رولى » H. Rowley وهو من رجال الدين في باتتو :

« إن أعياد الخصادشبية في خصائصها بأعياد « بانخوس » (عند اليونان) ... فإنه يستحيل على إنسان أن يشاهدها دون أن يأخذها الخجل . . . فهم لا يكتفون في هذه الإباحة الجنسية الكاملة بضمّ من تنصّر حديثاً ، بل لا يكتفون بضمّ من طال أمد تنصّره ، لكنهم يُغشون أى زائر وقف ليشهد حفلهم بالانغماس معهم في إباحتهم ؛ عندئذ لا يحول الناس حائلٌ دون الانغماس في الدعارة ، وهم لا ينظرون إلى الزنا نظرةً فيها أثر من معنى البشاعة ، بسبب الظروف

التي تحيط بهم حينئذ ، بل إنهم لا يسمحون لرجل حضر الاحتفال أن يضاجع زوجته « (١٣١) .

وتظهر أعياد كهذه في عصور المدينة التي دوتها التاريخ ، فاحتفالات « بانخي » عند اليونان ، وأشباهاها في روما وفي فرنسا إبان العصور الوسطى وفي إنجلترا وسائر الاحتفالات التهريرية التي نشاهدها في عصرنا ، كل هذه من قبيل الأعياد الإباحية القديمة .

على أن شعائر الزراعة هذه تتخذ في بعض البلاد هنا وهناك صورة أقل ظرفاً مما ذكرنا - كما هي الحال عند البونيين Pawnees وعند هنود جواياكيل ؛ فرجل " يُضَحَّى به في وقت البذر حتى تتخضب الأرض بدمائه - وفيما بعد خفت الصورة بعض الشيء ، فاكتفوا بذبح الحيوان قرباناً - ؛ حتى إذا ما حلَّ موسم الحصاد فسروه بأنه بعث للرجل الذي مات ضحيةً ، فكانوا يخلعون عليه قبل موته وبعده جلال الآلهة ؛ ومن هذا الأصل نشأت الأسطورة التي تروى في ألف صورة مختلفة كيف يموت الله في سبيل شعبه ، ثم يعود إلى الحياة بعدئذ ظافراً (١٣٥) ؛ وعمل الشعر على زخرفة السحر حتى حوَّله ضرباً من اللاهوت ؛ واختلطت الأساطير تروى عن الشمس بشعائر الزراعة اختلاطاً فيه تناسق وانسجام ، بحيث أصبحت الأسطورة التي تروى عن موت الإله وعودة ولادته - لا يقتصر مدلولها على موت الشتاء وعودة الحياة إلى الأرض في الربيع بل جاوزت ذلك إلى الانقلابين الآخرين : الصيفي والخريفي ، وما يعقب ذلك من قصر النهار وطوله ؛ ذلك لأن حلول الليل لم يكن إلا جزءاً من هذه المأساة ؛ فإنه الشمس - وت كل يوم مرة ويولد كل يوم مرة ؛ فكل غروب له بمثابة الاستشهاد على الصليب ، وكل شروق هو بعث له ونشور - والظاهر أن التضحية بالإنسان - التي ذكرنا من شتى صيغها مثلاً واحداً - قد أخذها الإنسان في كل الشعوب تقريباً ، فتظهر ها هنا يوماً وهناك يوماً ؛

فقد وجدنا في جزيرة كارولينا في خليج المكسيك تمثالا كبيراً معدنية
أبوف لإله مكسيكى قديم ، فوجدنا فيه رفات كائنات بشرية ، لاشك
أنها ماتت بالحرق قربانا لله (١٣٣) ، وكلنا يسمع عن « ملئخ » الذى كان
الفينيقيون والقرطاجينيون ، وغيرهما من الشعوب السامية حيناً بعد حين ،
يقدمون له القرابين من بنى الإنسان ؛ ولقد شهد عصرنا الحاضر هذه العادة
قائمة في روديسيا (١٣٤) وربما كان منشأ هذه العادة أكل البدائين للحوم
البشر ، فظنوا أن الآلهة تستمرئ من الطعام ما يستمرئون ؛ ولما كانت
العقيدة الدينية أبطأً تغييراً من سائر العقائد ، ثم لما كانت الشعائر الدينية
أبطأً تغيراً من العقائد نفسها ، فقد امتنع الإنسان عن أكله للحم الإنسان ،
وبقى التقليد قائماً بالنسبة للآلهة (١٣٥) ؛ ومع ذلك فقد تغيرت حتى هذه
الشعائر الدينية بفضل تطور الأخلاق ، بحيث طفق الآلهة يقلدون عبادهم
الزيادة من اصطناع الرقة ، واستسلموا للوضع الجديد فقبلوا لحم الحيوان
طعاماً بدل لحم الإنسان ، فَضَحَّى بغزال بدل التضحية بافجينا (في أساطير
اليونان) فما ضَحَّى بكبش بدل التضحية بابن إبراهيم ؛ ومضى الزمان
في تقدمه ، فحرمت الآلهة حتى هذا الحيوان ، لأن الكهنة آثروا أنفسهم
بالتعام الشهى ، وأخذوا يأكلون كل ما يمكن أكله من الضحية المقدمة ،
ثم بهبون الآلهة على مذبح القربان أمعاء الضحية وعظامها (١٣٦) .

ولما كان الإنسان الأول يؤمن بأن قوة ما يأكله تنتقل إليه ،
فقد كان من الطبيعى أن تَرِدَ على خاطره فكرة أكل الإله ؛ ففي كثير
من الحالات كان يأكل لحم الإله البشرى ويشرب دمه ، ذلك الإله
الذى عبده وسمَّنه استعداداً للتضحية به ؛ لكن الطعام كثرت موارده
وضمن الإنسان اطِّرادَه ، فانتهى ذلك إلى زيادة الرحمة في فواده ،
ولذلك استبدل بالتضحية الإلهية رموزاً على هيئتها ، واقتنع باكلها ، ففي
المكسيك القديمة ، كان يُصنع تمثالٌ لله من الغلال والحبوب والخضر ،
يُعجن بدماء صبيان يضحى بهم لهذه الغاية ، ثم يأكلونه على أنه بديل

دينىّ لأكل الله نفسه ؛ وأشباه هذه الاحتفالات الدينية وجدناها بكثرة في القبائل البدائية ، وكانت العادة أن يطلب إلى الناس أن يصوموا عن الطعام فترة قبل أكل التمثال المقدس ، وكان الكاهن ساعثنذ يقول بعض العبارات السحرية ليحوّل لها التمثال المأكول إلى إله حقيقي (١٣٧) .

ولئن بدأ السحر بالخرافة فإنه ينتهى بالعلوم ، فألوف من أغرب العقائد جاءت نتيجة للفكرة الروحانية القديمة ، ثم نشأ عنها صلوات وطقوس عجيبة ؛ فقبيلة « كوكى » Kukis كانت تلهب حماسة أبنائها في القتال بزعمها لهم أن الأعداء القتلى سيكونون لهم عبيداً في الحياة الآخرة ؛ ولكنك من ناحية أخرى ترى الرجل من قبيلة « بانتو » Bantu إذا قتل عدواً له ، حلق رأس نفسه ، وطفى نفسه بروث الماعز ، ليمنع روح الميت من العودة إليه والفتك به ؛ وتكاد الشعوب البدائية كلها تجمع على فعل اللعنات وشر « العين الحاسدة » (١٣٨) فلم يشك الاستراليون الأصليون في أن اللعنة ينطق بها الساحر القوى ، تقضى على حياة اللعين وإن يكن منه على بعد مائة ميل ؛ وبدأت العقيدة في السحر في أوائل مراحل التاريخ الإنسانى ، ولم تزُلْ عن الإنسان قط زوالاً تاماً ؛ وعبادة الأصنام وغيرها مما يكون له قوة سحرية كالتائم ، أرسخ في القديم من السحر نفسه وأثبت منه جذوراً في النفوس ؛ ولما كانت التائم تُحدّد لها مناطق القوة ، بمعنى أن يكون لكل تيممة أثر في ناحية معينة دون غيرها ، فإنك ترى بعض الشعوب تُثقل أنفسها بأحمال منها لكي يكونوا على أهبة الاستعداد لكل ما عسى أن تفجأهم به الأيام (١٣٩) والأحجية إن هى إلا صورة متأخرة في الظهور ، ومثّل من الأمثلة التي تعاصرنا ، من الأصنام أو ما إليها من ذوات القوة السحرية ، فنصف سكان أوروبا يلبسون المُدكّيات والتائم ليستمدوا بواسطتها وقاية ومعونة من وراء الطبيعة ؛ إن تاريخ المدينة ليعلمنا في كل خطوة من خطوات سيره ، كم تبلغ قشرة الحضارة من الرقة والوهن ، وكيف تقوم المدينة على شفاجر فوق

قمة بركان لا يُحمد سعيه ، من وحشية بدائية وخرافة وجهل مكبوت ؛
إن المدنية العصرية ليست سوى غطاء وُضِعَ وضِعاً على قمة العصور الوسطى ،
ولا تزال تلك العصور ولن تزال باقية .

ولا يسع الفيلسوف إلا أن يَتَسَبَّلَ راضياً هذا الفقر من الإنسان إلى
معونة مما فوق الطبيعة. تبعث في نفسه الطمأنينة ؛ ويجد لنفسه العزاء في
علمه بأن الأدب المسرحي والعلوم تنشأ عن السحر ، كما ينشأ الشعر عن
مذهب الروحانية ؛ فقد بين لنا « فريزر » Frazer - في شيء من المبالغة
لا نستغرب به من مبدع موهوب - أن أمجاد العلم تمتد بجذورها إلى سخافات
السحر ؛ لأنه كلما أخفق الساحر في سحره استفاد من إخفاقه هذا استكشافاً
لقانون من قوانين الطبيعة ، يستعين بفعله على مساعدة القوى الطبيعية في
إحداث ما يريد أن يحدثه من ظواهر ؛ ثم أخذت الوسائل الطبيعية تسود
وترجح كفتها شيئاً فشيئاً ، ولو أن الساحر كان دائماً يخفي هذه الوسائل
الطبيعية ليحتفظ بمكانته عند الناس ، ما استطاع إلى إخفاؤها من سبيل ،
بأن يعزو الظاهرة التي أحدثها للسحر الذي استمدته من القوى الخارقة
للطبيعة - وهذا شبيه جداً بأهل هذا العصر حين يعزون الشفاء الطبيعي
لوصفات وعقاقير سحرية ؛ وعلى هذا النحو كان السحر هو الذي أنشأ لنا
الطبيب والصيدلي ، وعالم المعادن ، وعالم الفلك (١٤٠) .

لكن الطريق أقصر بين الفلكي والساحر منها في سائر ضروب العلماء ؛ ذلك
لأنه لما تعددت ظقوس الدين وتعمدت ، لم يعد الرجل العادي يقدر على استيعابها
جميعاً والإلمام بها جميعاً ، ومن هنا نشأت طبقة خاصة أنفقت معظم وقتها في مهام
الدين ومحافله ؛ وأصبح الكاهن باعتباره ساحراً ، بما له من قدرة على الدهول
الروحي وتلقى الوحي وتوجيه الدعاء المستجاب ، أقرب صلة بإرادة الأرواح
أو الآلهة ، بحيث يستطيع تحويل تلك الإرادة إلى ما فيه نفع الإنسان ؛ ولما كان
هذا الضرب من العلم والمهارة هو في رأى البدائيين أهم ضروب العلم والمهارة جميعاً ،

ثم لما تصوروا أن القوى الخارقة للطبيعة لها أثرها في حياة الإنسان عند كل منعطف في الطريق ، فقد أصبحت قوة رجال الدين مساوية لقوة الدولة ؛ وجعل الكاهن (أو القسيس) منذ أقدم العصور إلى أحدثها ينافس الجندى المقاتل في سيادة الناس والإمساك بزمامهم ، حتى لقد راح الفريقان يتناوبان ذلك ، وحسبنا في التمثيل لذلك أن نسوق مصر ، ودولة اليهود وأوروبا في العصور الوسطى أمثلة .

إن الكاهن لم يخلق الدين خلقا ، لكن استخدمه لأغراضه فقط ، كما يستخدم السياسي ما للإنسان من دوافع فطرية وعادات ؛ فلم تنشأ العقيدة الدينية عن تلفيقات أو ألعيب كهنوتية ، إنما نشأت عن فطرة الإنسان بما فيها من تساؤل لا ينقطع وخوف وقلق وأمل وشعور بالعزلة ؛ نعم إن الكاهن قد أضرَّ الناس بلبائته على الخرافة وباحتكاره لضروب معينة من المعرفة ، لكنه مع ذلك عمل على حصر الخرافة في نطاق ضيق ، وكثيراً ما كان يجعل الناس على إهمال شأنها ؛ وهو الذي لقن الناس بداية التعليم والنهذيب ، وكان بمثابة المستودع وأداة التوصيل بالنسبة للتراث الثقافي الإنساني المتزايد ؛ وكان عزاء للضعيف في استغلال القوى له استغلالاً لم يكن عنه منصرف ولا محيص ؛ كما أصبح الفعل الفعال الذي أعان الدين على تغذية الفنون ، وتدعيم بناء الأخلاق الإنسانية المترنح بدعامة من القوة العليا ؛ فلو لم يجد الناس بينهم كاهناً خلّقه لأنفسهم خلقاً .

٤ - مهمة الدين الخلقية

الدين والحكومات - المهرمات الجفسيّة - تأخر الدين - التحول العلماني

الدين دعامة الأخلاق؛ بوسيلتين أساسيتين هما الأساطير والحكمات؛ فالأساطير هي التي تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة، ثم يكون من شأن هذه العقيدة أن تضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع (أو يريد الكهنة) بقاءها؛ فما يرجوه الفرد في السماء من ثواب وما يخشاه لديها من عقاب، يضطره اضطراباً أن يدعن للقيود

التي يفرضها عليه سادته أو جماعته ؛ فالإنسان ليس بطبعه مطيعاً رقيقاً طاهراً وليس شيء كالحلوف من الآلهة -- وذلك بعد القهر الذي خضع له الفرد قديماً فأنشأ في نفسه الضمير - أخضع الإنسان لهذه الفضائل التي لا تتفق وطبيعته إخضاعاً مطرداً صامتاً ؛ فأنظمة الملكية والزواج- تتوقف إلى حد ما على العقوبات الدينية وهي تميل إلى فقدان قوتها في العصور التي يسود فيها الشك الديني ؛ بل الحكومة نفسها التي هي أهم أداة اجتماعية اصططنعها الإنسان ، وأبعد أداة عن طبيعة الإنسان ، كثيراً ما استعانت بالتقوى وبالكاهن ، كما فعل أذكياء الهراطقة مثل نابليون وموسوليني اللذين لم يلبثا أن كشفنا عن هذه الحقيقة ؛ ومن هنا كان ثمة « ميل إلى قيام دولة دينية كلما نشأت الدساتير » (١٤١) ؛ فلئن كانت قوة الرئيس البدائي تستمد الزيادة من السحر والعرافة ، فإن حكومتنا(*) نفسها تستمد بعض القوة من اعترافها السنوي « بإله المهاجرين » .

وأطلق أهل « بولنيزيا » كلمة « تابو » (ومعناها التحريم) على ما يحرمه الدين ؛ فلما تقدمت المجتمعات البدائية بعض الشيء ، اصططنعت هذه الحرمات الدينية مكانة هي التي أصبحت في ظل المدنية مكانة القوانين ؛ وكانت صيغة التحريم عادةً سالبة : فبعض الأفعال وبعض الأشياء أعلن عنها أنها « مقدسة » أو « نجسة » وكان اللفظان في الواقع يعنيان نذيراً واحداً ، وهو أن تلك الأفعال أو الأشياء لا يجوز لمسها ؛ « فتأوت العهد » مثلاً كان محرماً ، ويرزى عن « عزى » أنه سقط صعباً عند لمسِهِ لمنعه من السقوط (١٤٢) ؛ ويؤكد لنا « ديودورس » عن المصريين القدماء أنهم أكل بعضهم بعضاً إبان المجاعة ، فذلك أثر عندهم من الاعتداء على تحريم أكل الحيوان الذي اتخذته القبيلة طوطماً لها (١٤٣) ؛ وإذ لك للجد في معظم الجماعات البدائية عدداً كبيراً جداً من هذه الحرمات ، فكللمات معينة وأسماء معينة ما كان لها قط أن تُنطق ، وأيام معينة

(*) يقصد الولايات المتحدة . (المرب)

وهصول معينة كانت من المحرمات بمعنى أن القتل لم يكن يؤذن به خلالها ؛
وكل معرفة البدائين بحقائق الغذاء ، وبعض جهلهم بتلك الحقائق ، كان
سبيلها إليهم تحريمات معينة أقامها الناس على ألوان الطعام ، فهم لم يلتقوا
مبادئ الصحة عن طريق العلم أو عن طريق الطب العلماني بقدر ما لفتوها
عن طريق الدين .

وكانت المرأة أهم ما اتجه إليه التحريم عند البدائين فألاف الحرافات
نشأت عن المرأة لتجعلها ، أنا بعد آن ، مُجَرِّمَةَ اللّمس ، خطيرة ،
« نجسة » ؛ إن منشئ الأساطير في أنحاء العالم لم يكونوا أزواجاً موفقين ،
لأنهم متفقون جميعاً على أن المرأة أساس الشر كله ، فلم يقتصر هذا الرأي
على الديانتين اليهودية والمسيحية ، بل تجاوزهما إلى مئات من الأساطير الوثنية ؛
وأدق التحريمات البدائية كان خاصاً بالمرأة إبان حيضها ، فكل من لمسها
أو كل ما لمسها في هذه الفترة فقد فضيلته إن كان إنساناً ، وضاعت
مائدته إن كان غير ذلك ؛ فحرّم « الماكوزى » Macusi من أهل غيانة
البريطانية على نساءهم أن يستحممن إبان حيضهن خشية أن يُسَمَّنَ الماء ،
كما حرّموا عليهن الذهاب إلى الغابة في مثل هذه الفترات ، حتى لا تعضن
اللعابين غراماً بهن (١٤٥) ؛ حتى الولادة كانت عندهم نجسة ، وكان على
الأم بعدها أن تطهر نفسها في كثير جداً من الطقوس الدينية ؛ والعلاقة
الجنسية حرام في معظم القبائل البدائية ، ليس فقط إبان فترات الحيض ، بل
كذلك أثناء الحمل والرضاعة ، ولعل هذه التحريمات قد أنشأها النساء
أنفسهن بما هن من إدراك سليم وما يبغين لأنفسهن من وقاية وراحة ، لكن
الأصول سرعان ما تُتدسّى ، وتنظر المرأة فإذا هي « مشوبة » وإذا هي
« نجسة » ؛ وانتهى بها الأمر إلى أن توافق الرجل على وجهة نظره ،
وراحت تشعر بالعار في حيضها ، بل في حملها ؛ ومن التحريمات وأمثالها
نشأ الحياء ونشأ الشعور بالخطيئة ، والنظر إلى العلاقة الجنسية على أنها نجاسة ،
وكذلك نشأ التقشف وعزوبة الرهبان ونشأ إخضاع النساء .

ليس الدين أساس الأخلاق ، لكنه عون لها ، فقد يمكن تصور الأخلاق ،

بغير دين ، وليس بالأمر البادر أن تتطور الأخلاق في طريقها إلى التقدم بينما يبقى الدين لا يآبه لها ، أويقاومها مقاومة عنيدة ؛ ففي الجماعات الأولى ، وفي بعض الجماعات المتأخرة ، كانت الأخلاق فيما يظهر على أتم استقلال عن الدين ، وفي مثل هذه الحالة لا يُعنى الدين بقواعد السلوك ، بل يُعنى بالسحر والطقوس وتقديم القرابين ، والرجل الطيب عندئذ هو من يؤدي محافل الدين أداء المطيع ، ويمدها بماله في ولاء وإخلاص ؛ والدين بصفة عامة لا يَرعى الخير المطلق (إذ ليس هناك خير مطلق) ، بل يرمى معايير السلوك التي وطدت نفسها بحكم الظروف الاقتصادية والاجتماعية ؛ وهو كالقانون يلتفت إلى الماضي ليستمد منه أحكامه ، وهو قين أن يتخلف في الطريق كلما تغيرت الظروف وتغيرت معها الأخلاق ؛ فقد تعلم الإغريق مع الزمن أن يفتوا مضاجعة المحارم ، مع أن أساطيرهم كانت ما تزال تمجد الآلهة الذين يفعلون ذلك ، والمسيحيون يصطنعون نظام الزوجة الواحدة بينما إنجيلهم يحلل تعدد الزوجات ؛ وامتنع الرق امتناعاً تاماً بينما المتدينون كانوا يدافعون عن قيامه بشواهد من الإنجيل لا تُنقض ؛ وفي يومنا هذا نرى الكنيسة تقاتل أبطال لتقيم تشريعاً خلقياً قضت عليه الثورة الصناعية قضاء مبرماً لاشك فيه ؛ فالعوامل الأرضية هي التي تسود آخر الأمر ، والأخلاق تتوأم بين نفسها وبين المستحدثات الاقتصادية شيئاً فشيئاً ، ثم يتحرك الدين كارها فيوفى بين نفسه وبين الأخلاق الجديدة(*) ؛ إن الوظيفة الخلقية للدين هي أن يحافظ على القيم القائمة ، أكثر مما يخلق قيماً جديدة .

ومن هنا كان من علامات المراحل العليا في كل مدنية أن يحدث التجاذب بين الدين والمجتمع ؛ يبدأ الدين بمدد من السخر يقدمه للناس في حيرتهم وارتباكهم ؛ ثم يصعد إلى قمة مجده بمدد من وحدة الأخلاق والعقيدة يقدمها للناس فتجىء هذه

(*) مثال ذلك ضبط النسل الذي أحدثه الانقلاب الصناعي في المدن ، ثم قبول الكنيسة لهذا الضبط في خطوات بطيئة .

الوحدة مُعَيَّنةً أكبر العون للسياسة والفن ؛ ثم ينتهى بقال يفنى فيه فناء المنتحر دفاعاً عن قضية الماضى الخاسرة ؛ ذلك لأنه كلما تقدمت المعرفة أو تغيرت تغيراً متصلاً ، اصطدمت بالأساطير واللاهوت اللذين يتغيران تغيراً بطيئاً بطئاً لا يُحتمَل ؛ وعندئذ يشعر الناس برقابة رجال الدين على الفنون والآداب كأنها أغلال ثقيلة وحائل ذميم ، ويتخذ التاريخ الفكرى فى مثل هذه المرحلة صبغة النزاع بين العلم والدين ؛ والأنظمة التى تبدأ فى أيدي رجال الدين ، مثل القانون والعقاب ، والتربية والأخلاق ، والزواج والطلاق ، تميل نحو الإفلات من رقابة الدين لتصبح أنظمة دنيوية ، حتى ليعدها الدين أحياناً خارجة عليه ؛ والطبقات المستنيرة تطرح وراء ظهورها اللاهوت القديم ، ثم - بعد شئ من التردد - تطرح معه التشريع الخلقى ؛ عندئذ تصبح الفلسفة والأدب مناهضة لرجال الدين ، وترتفع حركة التحرير إلى عبادة العقل المتفانى ، تكبو فيما يشبه الشلل الذى تسببه خيبة الأمل لإزاء كل عقيدة وكل فكرة ؛ ويتدهور السلوك الإنسانى إذا ما سلب دعائمه الدينية ، فينقلب ضرباً من الفوضى الأبيقورية ؛ بل إن الحياة نفسها ، وقد حرمتها ما فيها من إيمان يبعث العزاء فى النفوس ، تصبح عبئاً ثقيلاً للفقير الشاعر بفقره ، وللغنى الذى ملّ غناه . آن معاً ، وفى النهاية ينحدر المجتمع وتنحدر معه عقيدته الدينية نحو السقوط معاً فى ميتة واحدة كأنهما الجسد والروح ؛ على أنه سرعان ما تنشأ أسطورة أخرى بين الناس إذ هم ينوعون تحت هذا العبء الفادح ، أسطورة تصب الأمل الإنسانى فى قالب جديد ، وتمد الجهد الإنسانى بحماسة جديدة ، ثم تبنى مدينة جديدة بعد أن تنقضى قرون فى حالة من الفوضى .

الباب الخامس

العناصر العقلية في المدنية

المفصل الأول

الآداب

الفة - بطاقتها الحيوانية - أصولها البشرية - تطورها - نتائجها -
التربية - التقليد - الكتابة - الشعر

كانت الكلمة بداية الإنسان لأنه بالكلمة أصبح الإنسان إنساناً ؛
فلولا هذه الأصوات الغريبة التي نسميها أسماء كلية لانحصر الفكر في الأشياء
الجزئية أو الخبثات الجزئية التي يذكرها الإنسان أو يدركها عن طريق
الحواس ، وخصوصاً حاسة النظر ؛ وأغلب الظن أنه لولا هذه الأسماء
الكلية لما استطاع الفكر أن يدرك الأنواع باعتبارها متميزة عن الأشياء الجزئية ،
ولأن يدرك الصفات متميزة عن أشياءها التي تتصف بها ، ولأن يدرك
الأشياء مجردة عن صفاتها ؛ إنه لولا الكلمات التي هي أسماء لأنواع لاستطاع
الإنسان أن يفكر في هذا الإنسان وهذا وذاك ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن
يفكر في « الإنسان » بصفة عامة ، لأن العين لا ترى الإنسان العام ، بل
تري أفراداً من الإنسان فحسب ؛ العين لا ترى الأنواع بل ترى الأشياء الجزئية ؛
ولقد بدأت الإنسانية حين جلس ميسخ نصفه حيوان ونصفه إنسان ،
جلس متربعاً في كهف أو شجرة ، يشهد رأسه شحذا ليخلق أول اسم من
الأسماء الكلية ، أول رمز صوتي يدل على طائفة من أشياء متشابهة : كاسم
منزل الذي ينطبق على المنازل كلها ، وإنسان الذي يدل على أفراد الإنسان
جميعاً ، وضوء الذي معناه كل ضوء لمع على يابس أو ماء ؛ ومنذ ذلك الحين ،

«نفتح أمام التطور العقلي للإنسان طريق جديد ليست له نهاية يقف عندها ؛ ذلك لأن الكلمات للفكر بمثابة الآلات للعمل ، والإنتاج يتوقف إلى حد كبير على تطور الآلات (١) .

ولما كان تصويرنا لأوائل الأشياء لا يزيد أبدا عن حدس وتخمين ، فليخيلنا أن يرسل لنفسه العنان في تصور بداية الكلام ؛ يجوز أن تكون أول صورة بدت فيها اللغة - ويمكن تعريف اللغة بأنها اتصال عن طريق الرموز - صحيحة حُب بين الحيوان والحيوان ؛ وإنك لترى في صيحات النذير والفزع ، وفي مناداة الأم لصغارها ، وفي الزرقة والثقنة التي يعبر بها الحيوان عن فرحه بصوته أو باتصاله بعشيرته من الجنس الآخر ، واجتماعه أفرادا ليتبادل الأصوات من شجرة إلى شجرة ، إنك لترى في هذا كله الخطوات التمهيدية التي يجهد الحيوان نفسه في اجتيازها لكي يصل الإنسان إلى الدروة العليا ، ذروة الكلام ؛ ولقد وُجِدَت فتاة حوشية تعيش مع الحيوان في غابة بالقرب من شالون في فرنسا ، فلم يكن لها من الكلام إلا صرخات ودمدمات كريمة الوقع على المسامع ؛ هذه الأصوات الحية التي تتبع في الغابات قد لا تكون ذات معنى لآذاننا التي تحضرت ، فنحن في هذا كالكلب المتفلسف « ريكيه » Requet الذي يقول عن « السيد بيرجرية » Bergeret « إن كل ما ينبعث به صوتي له معنى ، أما سيدى فيجرى من فه هراء » ؛ ولاحظ « وِثْمَنْ » Whitman و « كريج Craig علاقة عجيبة بين أفعال الحمام وصيحاته ؛ واستطاع « ديون » Dupont أن يميز اثني عشر صوتا مختلفا يستعملها الدجاج والحمام ، وخمسة عشر صوتا تستعملها الكلاب ، واثنين وعشرين صوتا تستعملها الماشية ذوات القرون ؛ ووجد « جارنر » Garner أن القردة تمضي في لغوها الذي لا ينتهي بعشرين صوتا على الأقل ، مضافا إليها عدد كبير من الإشارات ؛ ومن هذه اللغات المتواضعة نشأت ، بعد تطور قصير المراحل ، الثلاثمائة كلمة التي تكفي بعض القبائل البشرية المتواضعة (٢) .

ويظهر أن الإشارات كانت لها الأهمية الأولى ، وللكلام المنزلة الثانية في تبادل الفكر في العصور الأولى ؛ وإنك لتلاحظ أنه إذا ما أخفق الكلام في الأداء ، وثبتت الإشارات من جديد إلى الطليعة ؛ ففي القبائل الهندية في أمريكا الشمالية ، التي تستعمل من اللهجات ما لا يقع تحت الحصر ، يجيء العروسان من قبيلتين مختلفتين فيتبادلان الفكر ويتفاهمان بالإشارات أكثر من الكلام ؛ ولقد عرف « اويس مورجان » Lewis Morgan عروسين ظلا يستخدمان إشارات صامته مدى ثلاثة أعوام ؛ وكان التفهم بالإشارات من الأهمية في بعض اللغات الهندية بحيث تعذر على أفراد قبيلة « أراباهو » Arapaho - كما يتعذر على بعض الشعوب الحديثة - أن يتحدثوا في الظلام^(٣) ؛ وربما كانت أول الألفاظ الإنسانية صيحات تعبر عن العواطف كما هي الحال عند الحيوان ، ثم جاءت ألفاظ الإشارة مصاحبة للإشارة بالجسم لتدل على الاتجاه ، ثم تلت ذلك أصوات مُتَمَكِّدة جاءت في أوانها المناسب لتعبر عن الأشياء والأفعال التي يمكن محاكاة أصواتها ، ولا تزال كل لغة من لغات الأرض تحتوى على فئات من هذه الألفاظ التي تحاكي بأصواتها الأشياء والأفعال ، على الرغم من آلاف السنين التي مضت مليئة ، بالتغيرات والتطورات التي طرأت على اللغة - مثل : زير ، همس ، تمتمة ، قهقهة ، أنين ، زقرقة الخ^(*) وعند قبيلة « تكونا » Tecuna في البرازيل القديمة لفظ يقلد صوت المسمى تقليداً تاماً يدلون به على الفعل « يعطس » وهو « هايتشو »^(٥) وربما كانت هذه البدايات وأمثالها أساساً للكلمات الأولية في كل لغة من اللغات ؛ وحصر « رينان » Renan الألفاظ العبرية في خمسمائة كلمة

(*) مثل هذه المحاكاة اللفظية لا تزال ملجأ تلوذ به اللغات ما واجهها معنى جديد طارئ ، فالإنجليزي الذي أكل أول وجبة له في الصنن وأراد أن يستفسر عن نوع اللحم الذي كان يأكله سأل في وقار وتحفظ تمهدهما في الانجلوساكسون : « كواك ، كوالا ؟ »
فهر الصيني له رأسه مجيباً في مرح : « بو - وو »^(٧) .

أصلية ، وحصر « سكيت » Skeat كل الألفاظ الأوروبية تقريباً في نحو أربعائة كلمة أصلية(*)

ولا تحسب لغات الشعوب الفطرية بدائية بالضرورة ، إذا أردنا بكلمة « بدائية » في هذا السياق أى معنى من معانى البساطة فى التركيب ، نعم إن كثيراً منها بسيط فى ألفاظه وبنائه ، لكن بعضها معقد البناء كثير الكلمات ، مثل لغاتنا ، بل هو أرقى فى التكوين من اللغة الصينية^(٧) ومع ذلك فتكاد اللغات البدائية كلها أن تحصر نفسها فى حدود الحسىّ والجزئىّ ؛ وهى بصفة عامة فقيرة فى الأسماء الكلية والمجردة ؛ فسكان استراليا الأصليون يطلقون اسماً على ذيل الكلب واسماً آخر على ذيل البقرة ، ولكن ليس فى لغتهم كلمة تدل على « ذيل » بصفة عامة^(٨) وأهل تسمانيا يطلقون على كل نوع من الشجر اسماً ، لكن ليس لديهم كلمة واحدة تدل على « الشجرة » بصفة عامة ؛ وكذلك هنود « تشكوتو » Choctaw يطلقون اسماً على السنديانة السوداء ، وآخر على السنديانة البيضاء ، وثالثاً على السنديانة الحمراء ؛ لكنهم لا يعرفون كلمة واحدة تدل على السنديانة بصفة عامة ، ثم بالطبع ليس لديهم كلمة تدل على الشجرة عامة ؛ ولا شك أن أجيالاً من الناس تعاقبت قبل أن يستطيع الإنسان أن ينتهى من اسم العلكم إلى الاسم الكلى ؛ وفى قبائل كثيرة لا تجد ألفاظاً تدل على الألوان مجردة عن الأشياء الملونة ، كلا ولا تجد عندها كلمات لتدل على مجردات مثل : نعمة ، جنس ، نوع ، مكان روح ، غريزة ، عقل ، كمية ، أمل خوف ، مادة ، شعور . . . الخ^(٩) ، فمثل هذه الألفاظ المجردة تتكون وتزيد - فيما يظهر - مع تقدم الفكر ، لأن بينها وبين الفكر علاقة السبب والمسبب ؛ وهى بعد تكوينها تصبح أدوات تعين على دقة التفكير ، ورموزاً تدل على الحضارة ؛

ولما كانت الألفاظ تعود على الناس بكل هذه المزايا ، فقد حسبوها نعمة

(*) هنا يبين المؤلف ببعض الأمثلة كيف تتعد بعض الألفاظ الأوروبية فى أصولها .

إلهية وشيئاً مقدساً ، بحيث أصبحت مادة تصاغ منها صيغ السحر ، وهي تزداد في أعين الناس تقديساً كلما ازدادت فراغاً من المعنى ؛ ولا تزال في يومنا مقدسة إذا استخدمناها في الأسرار الخفية ، حين تتحول « الكلمة » إلى « لحم » - مثلاً - إن الألفاظ لم تكن وسيلة التفكير الواضح فحسب ، بل كانت سبيلاً لإصلاح التنظيم الاجتماعي كذلك ، لأنها ربطت بين الأجيال المتعاقبة ربطاً عقلياً وثيق العرى ، بأن هيأت لهم وسيلة أصلح للتربية من جهة ، ولنقل المعارف والفنون من جهة أخرى ؛ فبظهور ألفاظ اللغة ظهرت أداة جديدة تصل الأفراد بعضهم ببعض بحيث يمكن للمذهب الواحد أو العقيدة الواحدة أن تصبّ أفراد الشعب في قالب واحد متجانس ؛ وفتحت طرقاً جديدة لنقل الآراء وتبادلها ، وزادت عمق الحياة زيادة عظيمة ، كما وسّعت نطاقها ومضمونها ، فهل تعرف اختراعاً آخر يساوى في قوته ومجده هذا الاختراع ، اختراع الاسم الكلي ؟

وأعظم هذه المزايا التي لألفاظ اللغة - بعد توسيعها للفكر - هي التربية ؛ فالمدينة ثروة زاخرة تجمعت على الأيام من الفنون والحكمة وألوان السلوك والأخلاق ، ومن هذه الثروة الزاخرة يستمد الفرد في تطوره غذاء لحياته العقلية ، ولولا أن هذا التراث البشرى يهبط إلى الأجيال جيلاً بعد جيل ، لماتت المدينة موتاً مفاجئاً ، فهي مدينةٌ بحياتها إلى التربية .

التربية بدايات ضئيلة من الشعوب البدائية ، إذ التربية عندهم - كما هي عند الحيوان - هي قبل كل شيء «نقل» لضرور المهارة وتدريب الناشئ تدريباً يصوغ له شخصيته ، فهي علاقة مفيدة سليمة بين العلم والتعلم في تلقين طرائق العيش ؛ وهذا التعليم العملي المباشر شجع عند الطفل البدائي نمواً سريعاً ؛ ففي قبائل «أوماها» يكون الولد وهو في سن العاشرة تقريباً قد تعلم معظم فنون أبيه ، مستعداً للحياة ؛ وفي قبائل «الألوت» Aleuts غالباً ما يؤسس الولد داراً لنفسه وهو في العاشرة ، وأحياناً يختار زوجة وهو في هذه السن ؛ وفي نيجيريا يترك الأطفال وهم في السادسة

أو الثامنة دور آبائهم لئيبنوا لأنفسهم أكوأخاً ويزودوا أنفسهم بالقوت من الصيد والسماكة (١٠) ، والعادة أن ينتهى شوط التربية حين تبتدئ الحماة الجنسية ، ولما كان نضجهم يأتي مبكراً فإن نموهم يأتي كذلك مبكراً ، ففي ظروف الحياة عندهم ينضج الصبي في الثانية عشرة من عمره ويشيخ في الخامسة والعشرين (١١) ، وليس معنى ذلك أن « المهمجى » له عقلية الطفل ، بل معناه أنه لم يكن له حاجات الطفل الحديث ولا فرصه ، وهو لم يتمتع بمثل ما يتمتع به الناشئ الحديث من مراهقة طويلة آمنة ، تسمح بنقل التراث الثقافى نقلاً يكاد يكون كاملاً ، وتضمن تدريبه على ضرب أكثر ومرونة أكبر في الاستجابة للبيئة التى بعدت من الصورة الفطرية التى زادت فيها عوامل التغير .

كانت بيئة الإنسان الفطرى ثابتة نسبياً ، ولم تكن تتطلب القدرة العقلية ، بل تطلبت الشجاعة وتكامل الشخصية ؛ فكان البالد البدائى يركّز اهتمامه فى بناء شخصية ولده كما تركّز التربية الحديثة اهتمامها فى تدريب القوة العقلية ؛ فقد كان يعنيه أن يبنى رجلاً ، لا أن يكون العلماء ؛ ومن هنا كانت طقوس إدماج الناشئ فى القبيلة ، تلك الطقوس التى كانت فى الشعوب الفطرية تعلن بلوغ الناشئ سن النضج وتعترف له بعضوية الجماعة ؛ ترمى إلى اختبار شجاعته أكثر مما تقصد إلى قياس معرفته ؛ وكانت مهمتها أن تُعِدَّ الشباب لمشاق الحرب وتبعات الزواج ؛ وهى فى الوقت نفسه فرصة تتاح للكبار أن يمرحوا ويفرحوا بإيقاع الأذى على الآخرين ؛ وبعض هذه الطقوس « يبلغ من البشاعة ومن إثارة النفس حداً تتعذر معه الرواية وتصعب الرواية » (١٢) ؛ فى قبيلة « الكفير » - وهذا بمثل معتدل - كان الصبيان الذين يطلبون عضوية القبلة مُستَحَنون بعمل شاق فى النهار وحرمان من النوم فى الليل ، حتى يستقظوا من الإعياء ؛ لكى يزداد القائمون بامتحانهم يقينا بصلاية هؤلاء الصبيان ، كانوا يضربونهم بالسياط « على فقرات قصيرة وبغير رحمة حتى يَنزَّ الدم من أجسادهم » وكان ذلك

يوهى إلى قتل نسبة كبيرة من الغلمان ؛ لكن الكبار - فيما نظن - كانوا ينظرون إلى الأم نظرة الفيلسوف ؛ وربما كانوا يفعلهم هذا يسبقون الانتخاب الطبيعى ويضيفون إلى عوامله عاملا جديدا (١٣) ؛ وكانت هذه الطقوس الممتحنة عادة علامة انتهاء المراهقة والاستعداد للزواج ؛ وكانت العروس تلح فى أن يثبت عريسها قدرته على تحمل الألم ؛ وكانت هذه الطقوس عند كثير من القبائل تدور حول عملية الختان ، فإذا تحرك الشباب أثناء إجرائها أو صرخ ، ضُربَ أهله ضربا ، ورفضته عروسه المنتظرة - التى وقفت لتشهد العملية فى عناية وانتباه - على أساس أنها لا تريد أن تنزوج من فتاة (١٤) .

لم تكن التربية البدائية تنتفع بالكتابة إلا قليلا ، أو لم تكن تنتفع بها إطلاقا ، فليس يدَهشُ الإنسانُ الفطرى لشيء دهشته لاستطاعة الأوربيين أن يتصل أحدهم بالآخر - وبينهما مسافة بعيدة - بواسطة خطوط سوداء تُخَطُّ على قطعة من الورق (١٥) ؛ وقد تعلمت قبائل كثيرة الكتابة محركاتها لمن جاءوا لاستغلالها من المتحضرين ، لكن بعض القبائل - كما هى الحال فى شمالى أفريقيا - لبثت أميا على الرغم من خمسة آلاف عام أخذت هذه القبائل تتصل خلالها بالأمم الكائنة اتصالا متقطعاً ؛ أما القبائل الساذجة التى تعيش معظم حياتها عيشا معتزلا بالنسبة إلى سواها ، وتنعم بالسعادة التى تنجم عن جهل الإنسان بتاريخه الماضى ، فلا تحسّ بالحاجة إلى الكتابة إلا قليلا ، ولقد قويت ذاكراتهم بسبب انعدام المخطوطات التى تساعدهم على حفظ ما يريدون الاحتفاظ به ، فتراهم يحتفظون . ويعون ، ثم يتقنون ما حفظوه وما وَعَوْه إلى أبنائهم بتسميعهم إياه ؛ وإنما هم يحتفظون ويعون ويُسمعون كل ما يروته هاما فى الاحتفاظ بجمادى تاريخهم وفى نقل تراثهم الثقافى ؛ ويجوز أن يكون الأدب قد بدأ حين بدأ تدوين هذا المخطوط وتدوين الأغانى الشعبية ؛ ولاشك أن اختراع الكتابة قد صادف معارضة طويلة من قبيل رجال الدين ، على اعتبار أنها فى الأرجح ستودى إلى هدم الأخلاق

وتدهور الإنسان ، فتروى أسطورة مصرية أنه لما كشف الإله تحوت للملك تجموس عن فن الكتابة ، أبح الملك الطيب أن يتلقى هذا الفن لأنه يهدم المدينة هدماً ؛ وقال في ذلك : « إن الأطفال والشبان الذين كانوا حتى الآن يُرغمون على بذل جهدهم كله في حفظ ما يتعلمونه ووعيه ، لن يبذلوا مثل هذا الجهد (إذا ما دخلت الكتابة) ولن يروا أنفسهم في حاجة إلى تدريب ذاكرتهم » (١٦) .

وبطبيعة الحال ليس في وسعنا أكثر من التخمين إذا أردنا أن نقول شيئاً عن أصل هذه اللعبة العجيبة ؛ فيجوز أنها كانت نتيجة تفرعت عَرَضاً عن صناعة الخزف كما سنرى فيما بعد ، وذلك بأن نشأت عن رغبة الناس في إثبات « العلامات التجارية » على ما يصنعونه من آنية خزفية ؛ ويجوز أن تكون زيادة التجارة بين القبائل قد اقتضت اصطناع مجموعة من العلامات المكتوبة ، وأن تكون أولى صورها تصاوير غليظة اتفق عليها الناس لتدل على السلع التي يتبادلونها في تجارتهم وعلى ما يقوم بينهم من حساب ؛ لأنه ما دامت التجارة قد وصلت قبائل يتكلمون لغات مختلفة ، بعضها ببعض ، فلا بد من اتخاذ وسيلة للتدوين وللنفاهم يفهمها الطرفان المتعاملان معاً ؛ وفي وسعنا أن نفترض أن قد كانت الأرقام بين أول طائفة من الرموز المكتوبة ، وأنها في معظم الحالات كانت تتخذ صورة خطوط متوازنة تمثل الأصابع ؛ ولانزال نستعمل كلمة « أرقام » (في اللغة الإنجليزية) التي تدل على ذلك الأصل المخطوط ، حين نريد أن نقول « أعداد » (*) ؛ ثم لا تزال كلمات مثل كلمة « خمسة » في اللغات الإنجليزية والألمانية واليونانية ؛ ترتد إلى أصل لغوي معناه « يد » (١٧) ؛ وكذلك الأرقام الرومانية تشير بصورتها إلى أصابع اليد ، فالعلامة التي معناها خمسة « V » تصور يداً مفتوحة ، والعلامة التي معناها عشرة « X » تتركب من علامتين من علامات الخمسة تقابلتا عند زاويتيها ؛

(١) كلمة figure في الإنجليزية معناها « شكل مخطوط » أو « رقم » . (المررب)

حروف الهجاء الإنجليزية	حروف الهيروغليفية المصرية	حروف أبي سبيل	الحروف على حجر مواب	الحروف الأيونية في اليونان القديمة
A		Α	Ⲁ	Α
B		Β	Ⲃ	Β
G			Ⲅ	Γ
D			Ⲇ	Δ
E		Ε	Ⲉ	Ε
F(W)		Ϝ	Ⲋ	Ϝ
Z	Υ		Ⲍ	
H		Η	Ⲇ	Η
TH			Ⲉ⊗	⊗
I		Ι	Ⲋ	Ι
K			Ⲍ	Κ
L		Λ	Ⲏ	Λ
M		Μ	Ⲑ	Μ
N		Ν	Ⲓ	Ν
X(SH)			Ⲕ	Ξ
O		Ο	Ⲇ	Ο
P		Π	Ⲉ	Π
S			Ⲋ	
Q		Ϟ	Ⲍ	
R			Ⲏ	Ρ
S			Ⲑ	Σ
T		Τ	Ⲓ	Τ
Ü			Ⲕ	Υ
PH				
KH				Χ
PS				Ψ
Ö				Ω

حروف الهجاء الإنجليزية ومقابلاتها في أنواع الكتابة القديمة

وكانت الكتابة في بدايتها - كما لا تزال عند أهل الصين واليابان - ضرباً من الرسم أى كانت ضرباً من الفن ؛ فكما أن الإنسان كان يستخدم الإشارات حين كانت تتعذر عليه الكلمات ، فكذلك استخدم الصور لينقل أفكاره عبر المكان وخلال الزمان ؛ فكل كلمة وكل حرف مما نستعمله اليوم كان فيما سبق صورة ، كما هى الحال الآن في العلامات التجارية وفي التعبير عن أبراج السماء ؛ والصور الصينية البدائية التي سبقت الكتابة كانت تسمى « كوروان » ومعناها الحرفى « صور للإشارات » ؛ وكانت القوائم الطوطمية كتابة تصويرية ، أو كانت - كما يقترح « ماسون » Mason رسماً تدونه القبائل لتعبر به عن نفسها ؛ فبعض القبائل كان يستعمل عصياً محزوزة لتذكّرهم بشيء أو ليعثوا بها رسالة ؛ وبعضها الآخر - مثل « هنود ألجُونكُون » Algonquin لم يكتب بجزء العصى ، بل رسم عليها أشكالاً تجعلها صوراً مصغرة للقوائم الطوطمية ؛ أو ربما العكس هو الصحيح ، أى أن هذه القوائم الطبيعية كانت صورة مكبرة للعصى المحزوزة ، وكان هنود بيرو يحتفظون بمدونات طويلة من الأعداد ومن الأفكار ، بأن يعتقدوا حبلاً مختلفة الألوان بالعقد والعرى ؛ وربما ألقى شيء من الضوء على أصل هنود أمريكا الجنوبية إذا عرفنا أن هذه العادة نفسها سادت بين سكان الأرجنتين والشرق وأهل بولنيزيا .

ولما أهاب « لاوتسى » Lao-Tse بقومه الصينيين أن يعودوا إلى الحياة الساذجة ، اقترح عليهم أن يرتدوا إلى ما كانوا يصنعونه في عصورهم البدائية من حبال معقودة^(١٨) وتظهر صور من الكتابة أرقى مما ذكرنا بين الشعوب الفطرية آناً بعد آناً ، فلقد وجدنا رموزاً هيلوغرافية في جزيرة « إيستر » في البحار الجنوبية ؛ وكشفنا الغطاء في إحدى جزر « كارولينا » عن مخطوط يتكون من واحد وخمسين رمزاً مقطعيّاً تصور أعداداً وأفكاراً^(١٩) ، وإن الرواية لتروى كيف حاول رؤساء جزيرة إيستر وكهنتها أن يحتفظوا لأنفسهم بكل معرفة تتصل

بالكتابة ، وكيف كان الناس يمتشدون مرة في كل عام ليسمعوا المدونات .
وهي تُقرأ عليهم ؛ فبديهي أن الكتابة كانت في مراحلها الأولى شيئاً
غامضاً مقدساً ، ولفظة « هيروغليف » معناها نقش مقدس ، ولسنا على
يقين من أن هذه المخطوطات البوليزية لم يكن مصدرها إحدى المدينيّات
التاريخية ؛ لأن الكتابة - على وجه العموم - علامة تدل على الحضارة ،
وهي من أوثق المميزات التي تفرق بين أهل المدينيّة وأبناء العصور البدائية :

الأدب في أول مراحل كلمات تقال أكثر منه حروفاً تكتب (على
الرغم من أن الكلمة في الإنجليزية تنتمي في أصلها للغوى إلى ما يدل على
الكتابة) ؛ وهو ينشأ في ترانيم دينية وطلاسم سحرية ، يتغنى بها الكهنة
عادة ، وتنتقل بالرواية من ذاكرة إلى ذاكرة ؛ والكلمة التي معناها الشعر
عند الرومان ، وهي « Carmina » تدل على الشعر وعلى السحر في آن
واحد ؛ والكلمة التي معناها نشيد عند اليونان ، وهي « Ode » معناها
في الأصل طلسم سحريّ ، وكذلك قلّ في الكلمتين الإنجليزيّتين « Tune »
و« Lay » والكلمة الألمانية « Lied » وأنغام الشعر وأوزانه ، التي ربما
أوحى بها ما في الطبيعة وحياة الجسد من اتساق ، قد تطورت تطوراً
ظاهراً على أيدي السحرة الذين أرادوا أن يحتفظوا وينقلوا ثم يزيدوا من
« التأثير السحريّ لأشعارهم » (٢٠) ، ويعزو اليونان أول ما قيل من شعر في
البحر العُشاري إلى كهنة دلفي ، الذين ابتكروا هذا البحر ليستخدموه في نظم
نبوءاتهم (٢١) ، وبعدئذ أخذ الشاعر والخطيب والمؤرخ يتميز بعضهم من بعض
شيئاً فشيئاً ، ويتجهون اتجهاً دنيوياً في فنونهم ، بعد أن اتحدوا جميعاً في هذا
الأصل الكهنوتي ، فأصبح الخطيب مُشيداً رسمياً بأعمال الملك أو مدافعاً عن
الآلهة ، وبات المؤرخ مسجلاً لأعمال الملك ، والشاعر مغنياً لأناشيد كانت في
الأصل مقدسة ، ومعبراً وحافظاً لأساطير البطولة ، وموسيقياً صاغ أقاصيصه صياغة
الألحان ليعلم بها الشعب وملوكه جميعاً ؛ وهكذا كان لأهل فيجي وتاهيتي وكالدونيا

الجديده خطباء ومؤرخون رسميون ، عليهم أن يخطبوا الناس في المحافل العامة ، وأن يثيروا حماسة المقاتلين في القبيلة بذكر أعمال أجدادهم والإشادة بمجد أمهم التليد الذي لاتضارعهما فية أمة أخرى ؛ وكان للصومال شعراء محترفون يطوفون من قرية إلى قرية ينشدون الأناشيد مثل الشعراء المنشدين والشعراء الطوافين الذين عرفتهم العصور الوسطى ، ولم تكن أشعارهم التي يتغنون بها عن الحب إلا في حالات نادرة ، وأما في أكثر الحالات فقد كانت تقال عن البطولة البدنية أو حومة القتال أو علاقة الآباء بأبنائهم ، وهاك مثالا من الشعر مأخوذاً عن أحد الآثار القديمة في جزيرة إيستر^٢ وهو رثاء والد لابنته أبعدها تصارييف الحروب عنه :

إن ركوب ابنتي لمتون البحار .

لم تُفسده عليها قط قبائل الأعداء

إن ركوب ابنتي لمتون البحار

لم يُفسده عليها التآمر من أهل هونيتي

فما فتئت ظافرة في كل حروبها

هل اغرّوها بشرب الماء المسموم

من الزجاجية الحجرية السوداء ؟ هذا مستحيل ،

هل يمكن لأحزاني أن يقلّ سعيها

بينما يفصلتي عن ابنتي خضمُّ البحار ؟

أواه يا ابنتي ، أواه يا ابنتي !

إنه لطريق مائي فسيح

ذلك الذي أمدّ بصرى خلاله تجاه الأفق

يا ابنتي ، أواه يا ابنتي ! (٢٢)

الفصل الثاني

العلم

البدايات - الرياضة - الفلك - الطب - الجراحة

يرى هربرت سبنسر ذلك الإحصائي العظيم في جمع الشواهد للوصول إلى النتائج ، أن العلم - كالأدب - بدأ بالكهنة ، واستمد أصوله من المشاهدات الفلكية التي كانت تحدد مواقيت المحافل الدينية ، ثم صبت في كنف المعابد ونُقِلَ عِبْرَ الأجيال باعتباره جزءاً من التراث الديني (٢٣) ؛ ولسنا نستطيع الجزم برأى في هذا ، لأن البدايات لا تمكّنتنا من معرفتها ، سواء في العلم أوفى غيره ؛ وكل ما نستطيعه هو التخمين والظن ؛ فيجوز أن يكون العلم - شأنه في ذلك شأن المدينة بصفة عامة - قد بدأ مع الزراعة ؛ فالهندسة في أولها كانت عبارة عن قياس الأرض المزروعة ؛ وربما أنشأ علم الفلك حسابُ المحصول والفصول الذي يستدعى مشاهدة النجوم وإنشاء التقويم ؛ ثم تقدم الفلك بالملاحة ، وطوّرت التجارة علم الرياضة ، كما وضعت فنونُ الصناعةُ أسس الطبيعة والكيمياء .

وربما كان العدُّ من أول ما شهد الإنسان من صور الكلام ، ولا يزال العدُّ في كثير من القبائل يتم على صورة تبعث على الابتسام ببساطتها ؛ فقد عدَّ « التسمانيون » إلى العدد اثنين لم يجاوزوه : « پارمَری ، كالاباوا ، كارديا » - يعني : « واحد ، اثنين ، كثير » ؛ ثم ذهب أهل قبيلة « جواراني » Guarani في البرازيل إلى أبعد من ذلك ، فقالوا : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، كثير » والهولنديون الجدد ليس لديهم كلمات للفظي ثلاثة أو أربعة ، بل هم يطلقون على ثلاثة كلمة « اثنين - واحد » وعلى أربعة كلمة « اثنين - اثنين » ؛ وأهل

« دامارا » لا يقبلون أن يبادلوا غنمتين بربع عصي ، لكنهم يقبلون أن يبادلوا غنمة بعصوين ، ثم يكررون العملية مرة أخرى ؛ ولقد كان العدّ وسيلته الأصابع ، ومن هنا نشأ النظام العشري ؛ ولما أدرك الإنسان فكرة العدد اثني عشر ، والأغلب أن يكون أدركه ، بعد حين من الزمن ، فرح به لأنه كان مريحاً للنفس بقبوله القسمة على خمسة من الأعداد الستة الأولى ؛ وهنا وُلد النظام الاثنا عشري في الحساب ، وهو نظام لا يزال قائماً ، لا يريد لنفسه الزوال ، في المقاييس الإنجليزية حتى اليوم ؛ فاثنا عشر شهراً تكون عاماً ، واثنا عشر بنساً تكون شلناً ، و « الدسته » اثنا عشر ، و « الجروسة » اثنا عشر « دسته » والقدم اثنا عشر بوصة ؛ أما العدد ثلاث عشر ، فهو على عكس سالفه ، يأتي الانقسام ، ولذا أصبح بغيضاً عند الناس ، ومبعثاً للشبائم إلى الأبد ؛ ولما أضيفت أصابع القدمين إلى أصابع اليدين ، تكونت فكرة العشرين ؛ ولا يزال استعمال هذا العدد في العدّ ظاهراً في قول الفرنسيين « أربع عشرينات » ليدلوا على « ثمانين » ؛ وكذلك استخدمت أجزاء أخرى من البدن معايير للقياس ، فاليد كلها « للشبر » والإبهام للبوصة (اللفظتان في اللغة الفرنسية ينوب عنهما لفظة واحدة تؤدى المعنيين) والذراع حتى المرفق للذراع ؛ والذراع كلها لمقياس آخر (يسمى ذراع الهندازة) والقدم للقدم ؛ وفي عصر متقدم ، أضيفت الحصوات إلى الأصابع لتعين على عملية العدّ ؛ ولا تزال الكلمة الإنجليزية للعدّ ، (Calculate) تشير بأصلها اللغوي إلى أصل معناه « حجر صغير » مما يدل على صغر المسافة التي تفصل القدماء السذج عن المحدثين ، ولقد تمنى « ثورو » Thoreau أن يجيأ هذه البدائية الساذجة ، وأجاد التعبير عن حالة كثير ما تعاود الإنسان فقال : « إن الرجل الأمين لا يكاد يجد الحاجة إلى عدّ تجاوز به أصابع يديه ، وقد يضيف إليها أصابع قدميه في حالات نادرة ؛ ثم يكس ما بقي له بعد ذلك في كتلة واحدة ؛ فرائي هو أن نُجري أمورنا على نسق الاثني أو الثلاثة ، لا على نسق المائة أو الألف ، فبديل

المليون ، عدد ستة فقط ، وسجل حسابك على ظفر إبهامك « (٢٠) .

وربما كانت بداية الفلك في قياس الزمن بحركات الأجرام السماوية وكلمة « مقياس » نفسها (في اللغة الإنجليزية measure) وكلمة شهر (month) - بل ربما كانت كلمة إنسان man أيضاً وهو الذى يقوم بالقياس - كل هذه الكلمات تتردد - بغير شك - إلى أصل لغوى معناه القمر (moon) (٢٦) ذلك لأن الناس قاسوا الزمن بدورات القمر قبل قياسه بالأعوام بزمن طويل ؛ فالشمس - مثلاً في ذلك مثل الأب لم تستكشف إلا في وقت متأخر نسبياً ؛ وحتى اليوم ترانا نحسب موعد عيد الربيع « Easter » بأوجه القمر ؛ وكان لأهل بولنيزيا تقويم* ، العام فيه ثلاثة عشر شهراً ينظمها القمر ؛ فلما رأوا أن سنتهم القمرية تختلف اختلافاً بيناً عن مواكب الفصول ، أسقطوا شهراً قريباً ، وبذلك استعادوا التوازن بين سنتهم وبين الفصول (٢٧) ؛ لكن استخدام الأجرام السماوية على هذا النحو المتزن كان شذوذاً بالقياس إلى التعبط في استخدامها للتنجيم ، فالتنجيم قد سبق علم الفلك ، وربما دام وجوده على الرغم من ظهور علم الفلك ؛ ذلك لأن النفوس الساذجة أكثر اهتماماً بالكشف عما يخبئه لها الغيب منها بمعرفة الزمن ؛ فنشأت ألوف الخرافات عن تأثير النجوم في خلق الإنسان ونصيبه المقدور ، ولا يزال كثير من هذه الخرافات مزدهراً في يومنا هذا (*) وربما لم تكن هذه الخرافات خرافات بالمعنى الصحيح ، ويجوز أن تكون ضرباً آخر من الخطأ في التعليل ؛ وما العلم نفسه إلا الضرب الأول من ذلك الخطأ .

والإنسان البدائي لا يصوغ شيئاً من قوانين علم الطبيعة ، ويكتفى بممارستها من الوجهة العملية ؛ فلئن لم يكن في مقدوره أن يقيس مسار المقذوف في الفضاء ،

(*) فيما يلي اقتباس من إعلان أذاعته قاعة البلدية في نيويورك عن برنامجها يوم ٥ مارس سنة ١٩٣٤ : (فلان سيكشف الطالع لمن أراد ؛ وهو المنجم لعلية القدم في نيويورك ولأرباب المهن الممتازين ؛ والساعة تكلف عشرة وريالات) .

إلا أنه يستطيع أن يصوّب سهامه نحو الهدف فلا يخطئ ؛ ولئن لم يكن لديه
موز كياوية ، إلا أنه يستطيع أن يميز بلمحة سريعة أى النباتات سام وأيها
طعام ، بل يستطيع أن يستخدم الأعشاب استخداماً دقيقاً في شفاء أمراض
البدن ؛ والأرجح أن يكون أول من امتن حرفه الطب هن من النساء ،
لأنهن الممرضات الطبيعيات للرجال فحسب ، ولا لأنهن جعلن من فن
التوليد - أكثر مما جعلن من مهمة الارتزاق - أقدم المهن جميعاً فحسب ؛
بل لأن اتصاهن بالأرض كان أوثق من اتصال الرجال بها ، فأتاح ذلك
لهن علماء أوسع بالنبات ، ومكتهن من التقدم بفن الطب ، ومميزته
عن التجارة بالسحر التي كان يقوم بها الكهنة ؛ فنذ أقدم العصور حتى
عصر يقع في حدود ماتعيه ذاكرتنا ، كانت المرأة هي التي تباشر شفاء
المرضى ؛ ولم يلجأ المريض عند البدائين إلى طبيب يشفيه أو إلى ساحر
إلا إذا أخفقت المرأة في أداء هذه المهمة (٢٨) .

وإنه لما يثير الدهشة في نفسك أن تعلم كم من الأمراض كان يشفيها
هؤلاء البدائيون على الرغم من قصور علمهم بالأمراض (٢٩) ؛ فالمرض عند
هؤلاء السذج - فيما بدا لهم - كان نتيجة حلول قوة غريبة عنه أو روح
غريب في بدنه - وهو تصور لا يختلف من حيث الجوهر عن النظرية التي
تسود الطب الآن من تعليل المرض بدخول الجراثيم في الجسم ؛ وأوسع
طرق العلاج شيوعاً بين البدائين هو اصطناع رُقِيَّةٍ سحرية من شأنها أن
تسترضي الروح الشريرة التي حكَّت في البدن العليل ؛ لعلها تنزاح عنه ؛
وإذا أردت أن تعرف مدى رسوخ هذه الطريقة في أفئدة الناس بحيث
لاتزول عنها أبداً ، فاقرأ قصة « خنزير جادارين » Gadarene Swine (٣٠) ،
وجتى اليوم ترى الناس يعللون الصرع بحلول روح شرير في البدن ؛
وبعض العقائد الدينية المعاصرة تنص على طرائق معينة لإخراج مثل هذا
الروح الشرير من جسم العليل إذا أريد سفاؤه ؛ والكثرة الغالبة من الناس
تعترف بالصلاة والدعوات على أنها تعين على الشفاء مع أقراص الدواء ؛ وربما

كان البدائيون يقيمون طريقتهم في العلاج على نفس الأساس الذي يُقيم عليه أحدث الطب طريقته ، ألا وهو الشفاء بقوة الإيحاء ؛ غير أن أفاعيل أولئك الأطباء الأولين كانت أشد استلفاتاً للنظر بأساليبها المسرحية ، مما يصطنعه خلفاؤهم الذين ازدادوا عنهم حضارة ؛ فقد كانوا يحاولون طرد الروح الخال في جسم المريض بتخويفه بما يلبسونه له من أقنعة مفزعة ، وما يخطون به أجسادهم من جلود الحيوان ، وبصياحهم وهذيانهم وتصفيقهم بالأيدي ، و « الشخصخة » بالصفائح وامتصاص الشيطان من الجسم المريض بوساطة أنبوبة مجوفة ؛ فكما كان يقول المثل السائر : « الطبيعة تشفى المريض ، والعلاج يسرُّ المريض » ، وأما قبائل « بورورو » Bororos البرازيلية فقد تقدمت بالعلم خطوة حين كانت تطلب إلى الوالد شرب الدواء ليشفى بذلك طفله المريض ، ولقد كان الطفل يشقى في اطراد كاد أن يكون شاملاً كاملاً (٣٠) .

ولى جانب الأعشاب الطبيّة نجد بين الأساليب الصيدلانية الكثيرة التي كان يلجأ إليها الإنسان البدائي ، صوفاً من المخدرات المنومة التي أريد بها أن تخفف الألم وتهوّن الجراحات ؛ فسموم مثل Curare الذي كثيراً ما يضعونه على أطراف سهامهم ؛ ومخدرات مثل نبات القنب والأفيون والكافور ، هي أقدم تاريخاً من التاريخ ؛ حتى ليرجع أحد المخدرات الشائعة بيننا اليوم إلى استخدام سكان بيرو لنبات الكوكا لهذه الغاية ؛ ويحدثنا « كارتيه » Cartier كيف كان أهل « إراكوا » يشفون مرض الإسقربوط بلحاء أشجار التنوب والشوكران وأوراقها (٣١) وكذلك عرف الجراحون البدائيون طائفة مختلفة من الجراحات والأدوات ، فالولادة كانت تتم على نحو مُرض ، والكسور والجروح كانت تُضمِّدُ وتُدْفُ بمهارة (٣٣) ؛ وبوساطة مُدّي من الحجر الزجاجي الأسود ، أو من الصوّان المرهف ، أو أسنان السمك ، كانوا يستخرجون الدم من « الخُرَّاجات » ويجففونها ، كما كانوا يشرطون الأنسجة ؛ وقد مارس البدائيون « تربيّة »

الجمجمة منذ أيام هنود. يبرو الأقدمين إلى أهل ملينزيا المحدثين ؛ وكان
الملنيزيون ينجحون في تسع حالات من كل عشر حالات بينما كانت الجراحة
نفسها عام ١٧٨٦ تنتهى بالموت في كل الحالات بغير استثناء في مستشفى
« أوتيل ديهيه » Hôtel Dieu في باريس (٣٣)

لأننا نبتسم لجهل البدائيين ، بينما نستسلم جادين للأساليب الطبية الكثيرة
التكاليف في أيامنا ؛ يقول « الدكتور أولفرونندل هولمز » Oliver Wendell
Holms بعد حياة طويلة قضاها في شفاء المرضى :

« لن يتردد الناس في أداء شيء ، بل ليس هناك شيء لم يؤديه فعلا ،
في سبيل استعادة العافية وإنقاذ الحياة ؛ فقد رضوا أن يُغرقوا في الماء
نصف إغراق ، ويختنقوا بالغاز نصف اختناق ؛ ورضوا أن يدفنوا في
الأرض إلى أذقانهم ، وأن يوصموا بالحديد المُحمّس مثل عبيد قادس ؛
ورضوا أن يُمتصّبوا بالمُدَى كأنهم سمك القدّ ، وأن تثقب لحومهم
بالإبر ، وأن تُشعل المشاعل على جلودهم ، ورضوا أن يجرعوا كل
صنوف المقززات ، وأن يدفعوا لذلك كله أجراً كأنما سألوا الجسم
ولإحراقه ميزةً ثمينة ، وكأنما « الفقفايق » نعمة ، ودودُ العلق
ضرب من الترف » (٣٤) .

الفصل الثالث

الفن

معنى الجمال - معنى الفن - إحساس البدائي بالجمال - صيغ الجسم
- دهان الوجه للتجميل - الوشم - الوصم - الثياب -
الحل - الخزف - التصوير - النحت - فن البناء -
الرقص - الموسيقى - تلخيص للخطوات البدائية التي مهدت للمدنية .

نعد أن أنفق الفن من عمره خمسين ألف سنة ، لا يزال الناس يتنازعون على تحديد مصادره من غريزة الإنسان ، ومبادئه في عصور التاريخ ، فما الجمال ؟ - لماذا نُفْتِنُ به ؟ لماذا نحاول أن نبده ؟ لما لم يكن هذا مجال المناقشة النفسية ، فسنتفي بالرد مختصراً وفي غير قطع باليقين ، بأن الجمال هو أية صفة تجعل شيئاً أو شكلاً ممتعاً لمن يشهده ؛ ولم يكن الشيء - من حيث الأصل والبدائية - يتمتع الناظر إليه لأنه جميل ، لكن الأقرب إلى الصواب هو أن الرأي يسمى الشيء جميلاً لأنه يتمتع ؛ وكل ما من شأنه أن يشبع رغبة عند الإنسان ، يبدو لعينيه جميلاً ؛ وعلى ذلك فالطعام جميل لمن يتصور جوعاً ، بينما « تاييس » ليست عنده حينئذ بذات جمال ؛ وقد يكون الشيء الممتع هو المشاهد نفسه ، وقد لا يكون - كلا الفرضين على درجة واحدة من قوة الاحتمال ؛ ففي أعماق قلوبنا لسنا نرى شيئاً أجمل من أشكالنا ، ويبدأ الفن من تمجيد الإنسان لجسمه الرائع ؛ أو قد يكون الشيء الممتع هو العشير من الجنس الآخر الذي يرغب فيه الرأي ، وعندئذ يصطنع إحساسنا بالجمال شدة وقوة إبداع هما شدة الشهوة الجنسية وقوة إبداعها ؛ ثم يوسع من هالة الجمال حتى تشمل كل شيء يمس الحبيب من بعيد أو قريب - فتشمل كل صورة جاءت شبيهة بصورتها ، وكل الألوان التي تزينها أو تسرها أو تتحدث عنها ، وكل الحلى والثياب التي تلائمها ؛ وكل الأشكال

والحركات التي تذكر بما لها من تناسق ورشاقة ؛ أو قد يكون الشكل الممتع هو صورة الذكر المطاوب ؛ ومن الجاذبية التي تجذب ضعف الإنسان نحو عبادة القوة يأتي إحساسنا بروعة الفخامة - فتطمئن نفوسنا في حضرة القوة - وهو إحساس يخلق أرفع آيات الفن جميعاً ؛ وأخيراً قد تصبح الطبيعة نفسها - بمعونة منا - فخمة وجميلة في آن معاً ، لأنها تشبه وتوحى بركة المرأة كلها وقوة الرجل كلها فحسب ، بل لأننا تلخع عليها مشاعرنا وما أصبناه من حظوظ ، وحبنا لأنفسنا ولغيرنا - فنحن نستمتع فيها بمدارج صباها ، ونستمتع فيها بالعزلة الهادئة لأنها مهرب من عاصفة الحياة ؛ ونحيا معها في تقلب فصولها الذي يكاد أن يكون إنسانى المراحل : فيفاعة نضيرة ، ونضج متقدم ، وإثمار يانع ، ثم انحلال بارد ؛ ونرى فيها على نحو غامض أمماً وهبتنا الحياة ، وستقبلنا عند الموت .

الفن هو إبداع الجمال ، هو التعبير عن الفكر أو الشعور في صورة تبدو جميلة أو فخمة ، فتثير فينا هزة هي هزة الفرح الفطرى التي تثيرها المرأة في الرجل ، أو الرجل في المرأة ؛ وقد يكون الفكر إدراكا لمعنى من معاني الحياة كائناً ما كان ، وقد يكون الشعور إثارة أو استرخاء لوتر مشدود من أوتار الحياة كائناً ما كان ؛ وقد تبعث الصورة الفنية في أنفسنا لما فيها من تناسق دؤرى يسرنا لأنه يتجاوب في طبائعنا مع نوبات الأنفاس ، ونبضات الدم ؛ وتداول الشتاء والصيف على نحو يبعث على الإجلال ، وتعاقب الجزر والمد والليل والنهار ؛ أو قد تبعث الصورة الفنية في أنفسنا الرضى لما فيها من تماثل هو بمثابة الوزن في الشعر قد تجمد ، يمثل القوة أمام أبصارنا ، ويصور لنا التناسب المنتظم في النبات والحيوان ، وفي النساء والرجال ؛ أو قد تحدث الصورة الفنية في أنفسنا الرضى لألوانها التي تضىء الروح بضيائها أو تعمق بالحياة من السطح إلى الغزير ؛ وأخيراً قد تبعث الصورة الفنية في أنفسنا الرضى لما فيها من صدق ، إذ نرى فيها محاكاة واضحة ناصعة للطبيعة أو للواقع الخارجى ، حين تلقف لمحة من جمال النبات أو الحيوان كان

فينا أن يزول ، أو تلمح معنى عابراً لظرف قائم لكنه وشيك الزوال ، ثم تعرضه ساكناً ثابتاً أمام حسّ يتلصقاً في استمتاعه بما يرى ، أو أمام عقل يحبُّ أن يتأمل على مهل ؛ من هذه المصادر الكثيرة يأتي ما في الحياة من ألوان الكماليات السامية - الغناء والرقص ، الموسيقى والمسرحية ، الخزف والتصوير ، النحت والعمارة ، الأدب والفلسفة ؛ فما الفلسفة إن لم تكن فناً ؟ ما الفلسفة إن لم تكن محاولة أخرى تضاف إلى محاولات سائر الفنون في أن تُفِيض على فوضى ما يقع لنا في دنيا التجربة « صورة لها معنى » ؟

فإذا كان الإحساس بالجمال ضعيفاً في الجماعة البدائية فقد يكون ذلك بسبب انعدام الفارق الزمني بين الشعور بالشهوة الجنسية وبين تحقيقها ، لأن ذلك لا يتيح الفرصة للخيال أن يضيف على موضوع الشهوة ألواناً من عنده ، تزيد من جماله زيادة كبيرة ؛ إن الإنسان البدائي قلما يفكر في اختيار النساء على أساس ما نسميه نحن فهن بالجمال ، بل هو أدنى إلى التفكير فهن على أساس نفعي ، ويستحيل أن يدور في خله أن يرفض عروساً مقتولة العضلات بسبب قبحها ؛ فرئيس القبيلة من الهنود حين سئل أيّ زوجاته أروع جمالاً ، اعتذر عن عدم الجواب لأنه لم يفكر قط في هذا الموضوع ، وقال في حكمة ناضجة تشبه حكمة فرانكلين : « قد تكون الوجوه أكثر جمالاً أو أقل جمالاً ؛ لكن النساء في جوانبهن الأخرى لا يختلف بعضن عن بعض في شيء » ؛ وحتى إن كان للإنسان البدائي إحساس بالجمال ، فهو أحياناً يُفلسنا منا فلا نراه ، لشدة اختلافه عن إحساسنا نحن بالجمال ؛ يقول « رتشارد » : « كل من أعرف من أجناس الزوج ، يعدّون المرأة جميلة إذا لم تكن نحيلة عند خصرها ، وإذا ما كان جذعها من الإبطين إلى الردفين ذا عرض واحد - حتى يقول عنها زنجي الساحل : إنها كالسُّمِّ » والآذان المطروقة كأذان الفيل ، والبطن المثنتى هما من مفاتن المرأة عند الرجال في إفريقيا ؛ وفي أرجاء أفريقيا كلها ، أجمل النساء هي المرأة السمينة ؛ فيقول « منجوبارك »

Mango Park عن نييجيريا : « يظهر أن لفظي السمينة والجمال نكادان تكونان مترادفتين ؛ فالمرأة التي تزعم لنفسها ولوقليلا من جمال ، لا بد أن تكون ممن يتعذر عليهن المشي إلا إذا سار إلى جانبها عبداً ، يسير كل منهما تحت ذراع. ليكون لها دعامة ؛ والجمال الكامل تبلغه المرأة إن ساوت بوزنها حمل الحمل » ويقول « برينفو » Briffault : « إن معظم المميج يوثرون ما نظنه نحن من أقبح ما تتصف به المرأة ، وأعنى به الأثناء الطويلة المتدللية » (٣٥) ؛ ويقول « دارون » : « لأنه من المعلوم لنا جميعاً أن العجيز عند كثيرات من نساء الهوتنتوب يبرز بروزاً عجيباً ولا يشك « سير أندرو سمث » أبداً في أن هذه الخصيصة للعجيبة موضع إعجاب من الرجال ، فلقد رأى ذات يوم امرأة هي عندهم من ربات الجمال ، كانت من الضخامة في أردافها بحيث إذا ما أجلسوها على أرض منبسطة استحال عليها الوقوف إلا إذا زحفت زحفاً حتى دنت من سفح مائل . . . ويروى لنا « بيزتن » Burton عن أهل الصومال أن الرجال إذا ما أرادوا اختيار الزوجات ، صفوا النساء صفوا واختاروا من بينهن أكثرهن بروزاً في العجز ؛ وليس أقبح في عيني الزنيجي من المرأة النحيلة » (٣٦)

لكن الرجل الطبيعي في أرجح الظن - يقيس الجمال بمقياس نفسه هو أكثر مما يقيسه بمعيار شكل المرأة ، « فالأقربون - في الفن - أولى بالمعروف » ؛ وقد لا يُصدّقُ النساء ما نزعتهن من أن الرجال البدائين والمحدثين يأخذهم العُجبُ بأنفسهم سواء بسواء ؛ فالذكر لا الأنثى في الشعوب الساذجة - كما هي الحال في الحيوان - هو الذي يترين ويُنزل بجسده الجروح ؛ سعيماً وراء الجمال ، فيقول « بِنوك » Bonwick : « إن التزيين في استراليا يكاد يكون كله احتكاراً للرجل » وهكذا قُل في ماليزيا وغينا الجديدة وكالدونيا الجديدة وبريطانيا الجديدة ، وهانوفر الجديدة وهنود أمريكا الشمالية (٣٧) وفي بعض القبائل يستنفد تجميل الجسم وقتاً أكثر مما تستهلكه أية مهمة أخرى من

مهام النهار^(٢٨) وواضح أن أول صورة للفن هي صبغ الجسم صبغة صناعية وهم يصبغون الجسم ليجذبوا النساء حيناً وليخيفوا الأعداء حيناً آخر ؛ والرجل من أهل أستراليا الوطنيين - كأحدث فائنة من فائنتات أمريكا اليوم - كان دائماً يحمل معه مقداراً من الصبغة البيضاء والحمر والصفراء ، ليُصلح من جماله حيناً بعد حين ، فإذا ما أوشكت أصباغُه على النفاد ، قام برحلات بعيدة خطيرة ليزوّد نفسه منها بمقدار جديد ، وهو يكتفى في الأيام العادية ببقع من اللون على خديه وكتفيه وصدره ، ولكن كان في مناسبات الأعياد ، يُحسُّ ما يُحسُّه العُريّان من خجل إذالم يصبغ جسده كله من أعلاه إلى أسفله^(٢٩) .

في بعض القبائل يحتكر الرجال لأنفسهم حق صبغ الجسم ، وفي قبائل أخرى يحرم على النساء المتزوجات أن يصبغن أعناقهن^(٣٠) ؛ لكن ما لبث النساء أن ظفرن لأنفسهن بفن التجميل بالأصباغ ، وهو أقدم الفنون جميعاً ؛ فلما وقف « كابتين كوك » Captain Cook في زيلندة الجديدة حيناً ، لاحظ أن بحارته حين عادوا إليه من جولاتهم على الشاطئ ، كانوا حُمُرَ الأنوف أو صُفْرَها بأصباغ صناعية ، ذلك لأن أنوفهم قد لصقت بها الأصباغ التي كانت الجميلات من أهل ذلك الإقليم قد طليتن بها أجسادهن^(٣١) ؛ ونساء « الفلّاتة » Fellatah في أفريقيا الوسطى ينفقن عدة ساعات كل يوم في تجميل أنفسهن : فهن يصبغن أصابع أيديهن وأرجلهن صبغة أرجوانية بأن يلففنها طوال الليل في أوراق الخناء ، ويصبغن أسنانهن بالأزرق والأصفر والأرجواني على هذا التوالي ؛ ويطلين شعرهن طلاء أزرق ، ويخططن جفونهن بالكحل^(٣٢) وكل سيدة من قبيلة « بُنْجُو » تحمل في حقيبة أدوات التجميل ، ملقطة تنزع به الرموش والحواجب ، ومشابك شعر على هيئة الرماح ، وخواتم وأجراساً ، وأزراراً ومشابك^(٣٣) . لكن السُدَّج الأولين - مثل الإغريق أيام بركليز - ضاقوا صدرأ لسرعة زوال هذه الأصباغ ، فابتكروا الوشم والوصم والثياب أدوات للترزين أودوم بقاء ،

ففي كثير من القبائل أسلم الرجال والنساء أنفسهم للإبرة الصابغة وتحملوا في غير تملل حتى وشم الشفاه ؛ ففي جريلنده تشم الأمهات بناتهن في سن مبكرة ليهدنهن الزواج عاجلاً (٤٤) ؛ لكن الوشم في أغلب الحالات لم يكن له ما أراده الناس من وضوح وتأثير ؛ لذلك طفق عدد من القبائل في كل قارة يَصِمُ الجسمَ بوصمات عميقة ليكونوا أجمل منظرًا في أعين زملائهم ، أو أبشع هيئة في أعين أعدائهم ؛ فكما قال عنهم « ثيوفيل جوتييه » Théophil Gautier : « إنهم لما عزت عليهم الثياب ووسائل الزينة ، زينوا جلودهم » (٤٥) ، فكانوا يجرحون أجسامهم بحجر الصوان أو بقواقع المحار ، ثم كثيراً ما يضعون في البحر كرة من الطين لتوسع من الوصمة ؛ فأهالي « مضيق تورس » كانوا يشخنون في جسامهم وصمات ضخمة ، وقبائل « أبيوكوتا » Abeokuta كانوا يجعلون وصماتهم شبيهة بشكل الضب أو التماسيح أو السلحفاة (٤٦) ، ويقول « جيورج » Georg : « لست تجد من أجزاء الجسم جزءاً لم يجمّله أو يزينه أو يشوهه أو يصبغوه أو يجرّقه أو يشموه أو يصلحوه أو يبسطوه أو يقبضوه ، مدفوعين إلى ذلك بالعجب بأنفسهم والرغبة في التجميل (٤٧) فقبيلة « بوتوكودو » Butocudos استمدت اسمها هذا من خابور يغرزونه في الشفة السفلى وفي الأذنين حينما يكون الناشئ في سنته الثامنة ، ثم ما ينفكون يستبدلون به خابوراً أكبر حتى تبلغ الفتحة اتساعاً طول قطره أربع بوصات (٤٨) ؛ والنساء الهوتفتوت يعملن على إطالة الشفرتين الصغيرتين حتى تبلغاً طولاً عظيماً ، بحيث يتكون منها ما يسمى بـ « فوطة الهوتفتوت » التي تلتقي عند رجاهاً إعجاباً عظيماً (٤٩) ، وكانت أقراط الآذان وأقراط الأنوف ضرورات لاغنى عنها ؛ حتى لقد ذهب سكان « جيپسسلنده » Gipsland إلى أن من يموت بغير قرط في أنفه سيلقى في الآخرة عذاباً أليماً (٥٠) ؛ وكأني بالسيندة العصرية تقول عن ذلك كله إنه وحشية فظيعة ، تقول هذا إذ هي تثقب أذنيها للأقراط ، وتصبغ شفيتها وخصيها ، وتلقط شعرات حاجبها ، وتقيم أهداب جفنيها ،

و «تُبَدَّرُ» وجهها وعنقها وذراعها وتضغط قدمها ؛ إن بَحَارَنَا الموشوم ليتحدث عن «الهمج» الذين رأهم في رحلاته حديث الرجل الرفيع يعطف على هؤلاء الأدنين ؛ والطالب من أهل أوربا ، يفرعه ما يحدثه البدائيون في أجسامهم من تشويه ، لكنه مع ذلك يُزْهِى بما عليه هو من وصمات يعدّها علائم الشرف .

والغالب أن تكون الثياب في بدايتها ضرباً من الزينة ، فهى عامل يعوق الاتصال الجنسي أو يشجع عليه ، أكثر منها وقاية نافعة من البرد أو سترآ للعورة^(٥١) ؛ فقد كانت العادة عند قبيلة «كمبرى» Cimbrī أن يزحفوا على الثلج بأجسام عارية^(٥٢) ، ولما أشفق «دارون» على الفويجيين من عُرْيهم ، أعطى أحدهم قطعة من القماش الأحمر ليتقى بها البرد لكن الرجل مزقها أشرطة ، ووزعها على زملائه ، فاستعملوها للزينة ؛ فهم كما قال عنهم «كوك» إنهم منذ الأزل «قد رضوا لأنفسهم العُرْي لكنهم ما زالوا يطمعون في الجمال»^(٥٣) ، وكذلك حدث أن مزق نساء أورينوكو ما أعطاهن إياه الآباء الجزويت من ثياب ، ولبسها أشرطة حول أعناقهن ، قائلات في غير تردد «إنهن يستعين أن يلبسن الملابس»^(٥٤) ويصف كاتب قديم أهل البرازيل الأصليين بأنهم عراة الأجسام عادة ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : «وبعضهم الآن يلبس الثياب ، لكنهم لا يقدرونها كثيراً حتى إنهم ليرتدونها على سبيل البدع أكثر مما يرتدونها التزاماً للاحتشام ، أو يلبسونها لأنهم مأمورون بذلك وإنك لتشهد ذلك فيمن يخرجون أحياناً من ديارهم ، لا يرتدون من الثياب ما يغطى أجسامهم أبعد من سرّة البطن ، أو هم يضيفون إلى ذلك طاقة على رءوسهم ، مخلقين سائر الثياب في دورهم»^(٥٥) ؛ فلما زادت الثياب على كونها أداة للزينة ، أصبحت علامة تدل على أن المرأة متزوجة ومخلصة لزوجها ، أو استُخدمت لإبراز قوام المرأة وجمالها ؛ وفي معظم الحالات ، ترى النساء البدائيات يتطلبن من الثياب ما تتطلبه النساء في العصور التي تكلمت ، وهو ألا تكون الغاية تغطية العُرْي ، بل أن تزيد من فتنة

أجسامهن أو توحى بها ؛ إن كل شيء في تغيير إلا المرأة والرجل .
وكلا الحسنين منذ البداية آثرا الزينة على الثياب ؛ فالتجارة البدائية قلما
تعنى بالضرورات ، إنما هي تحصر نفسها عادة في مواد الزينة واللعب^(٥٦) ؛
والأحجار الكريمة هي من أقدم عناصر المدينيّة ؛ فتلقت وُجِدَت أصداف
القواقع والأسنان معقودة في عقود للزينة ، وُجِدَت في مقابر لبثت على
وجه الدهر عشرين ألف عام^(٥٧) ثم من البدايات الساذجة ، سرعان
ما تتطور أمثال هذه الحلّيّ حتى تبلغ من ضخامة الحجم حدا بعيداً ، وتلعب
في الحياة دورا عظيماً ؛ فنساء قبيلة « غالا » كن يلبس خواتم تبلغ وزنها
سنة أرطال للمرأة الواحدة ، وبعض نساء « الدنكا » يحملن نصف قنطار
من الزينة ؛ وحدث لجميلة من جميلات أفريقيا أن لبست خواتم نحاسية
حميت في حرارة الشمس بحيث اضطرت أن تستخدم خادما خاصاً يظللها
أو يُروِّح عليها ؛ وكانت ملكة « الوابونيا » Wabunias على نهر الكنغو
تلبس حول عنقها إطارا نحاسيا وزن عشرين رطلا ؛ فكان لزاماً عليها أن
ترقد حيناً بعد حين لتستريح ؛ أما النساء الفقيرات اللاتي لم يسعفن الحظ
إلا بمقدار خفيف من المعادن الكريمة ، فقد كن يحاكين في دقة مشية
أولئك اللاتي يحملن من تلك الزينة البشعة حملا ثقيلا^(٥٨) .

إذن فأول مصادر الفن قريب الشبه بزهو الحيوان الذكر بألوانه وريشه
أيام التزاوج ؛ والدافع لإليها هو الرغبة في تجميل الجسم وتزيينه ؛ وكما أن
حب الإنسان لنفسه وحبه لعشيرته من الجنس الآخر ؛ إذا فاض عن القدر
المطلوب ، صبّ فيضه من الحب على الطبيعة ، فكذلك الدوافع إلى
التجميل ينتقل من العالم الخاص إلى الدنيا الخارجية ؛ فتحاول النفس أن
تعبّر عن نفسها في أشياء موضوعية ؛ متخذة في ذلك وسيلتي اللون
والشكل ؛ ولذا فالفن يبدأ حقيقة حين يبدأ الناس في تجميل الأشياء ؛
ولعل أول ما تعلق به فن التجميل هو الحزف ، فعجلة الحزاف - مثل
الكتابة ومثل الدولة هي وليدة العصور التاريخية ؛ لكن البدائين

- أو على الأصح النساء البدائيات - حتى قبل هذه العجلة التي يستعملها الخزّاف ، استطعن أن يرتفعن بهذه الصناعة القديمة إلى مرحلة الفن ، وأخرجن من الطين والماء وأصابعهن الماهرة صوراً لها اتساق يبعث على الدهشة ؛ وإن أردت شاهداً فانظر إلى الخزف الذي صنّعه قبيلة « بارونجا » Baronga في أفريقيا الجنوبية^(٥٩) أو الذي صنّعه قبيلة « بُويساُو » من الهنود^(٦٠) Pueblo Indians .

والخزّاف حين يزخرف سطح الآنية التي صنعها بزخارف ملونة ، إنما هو بذلك يخلق فن التصوير ، فالتصوير في أيدي البدائين لم يكن بعد قد أصبح فناً مستقلاً ، بل كان وجوده متوقفاً على فن الخزف وصناعة التماثيل ؛ والفطريون إنما يصنعون ألوانهم من الطين ، وأهل « أندامان » Andamanes يصنعون الألوان بخلط المغرة (تراب حليدي) بالزيوت أو الشحوم^(٦١) ؛ واستخدموا مثل هذه الألوان في زخرفة الأسلحة والآلات والآنية والمباني ، وكثير من القبائل الصائدة في أفريقيا وأوقيانوسيا ، كانت تصوّر على جدران كهوفها أو على الصخور المجاورة لها ، تصاوير ناصعة لصفوف الحيوان التي أرادت صيدها^(٦٢) .

ويجوز كذلك أن يكون الخزف وصناعته أصل النحت كما كان أصل التصوير ؛ فتيّبن للخزّاف أنه لا يستطيع فقط أن يصنع الأواني النافعة ، بل في مقدوره كذلك أن يصور الأشخاص في تماثيل يستفاد منها تماثماً للسحر ، ثم بعدئذ أراد أن يصنع هذه الأشياء لتكون جَمالاً في ذاتها ؛ لقد نَحَت الإسكيمو قرون الوعل وعاج فيلة البحر تماثيل صغيرة للحيوان والإنسان^(٦٣) ، وكذلك أراد البدائي أن يميز كونه بعلامة ، أو يميّز عمود الطوطم أو قبراً من القبور بتمثال صغير يدل على معبوده أو على مميّته ؛ فكان أول ما نحت من ذلك وجهٌ على عمود ، ثم نحت رأساً ، ثم نحت العمود كله ؛ ومن هذا التميز لقبور الآباء بتماثيل تصور الموتى ، أصبح النحت فناً^(٦٤) ؛ وعلى هذا النحو أقام سكان جزيرة إيستر القدامى تماثيل هائلة على قبور موتاهم ، كل تمثال من حجر واحد ، ولقد وجدنا عشرات من هذه

التماثيل يبلغ كثير منها عشرين قدماً في ارتفاعه ، وبعضها تراه الآن سطح الأرض مهشماً ، كان ارتفاعه لا يقل عن تسعين قدماً .

لكن كيف بدأ فن العمارة ؟ إننا لا نكاد نستطيع إطلاق هذا الاسم الضخم على بناء الكوخ البدائي ، لأن العمارة ليست مجرد بناء ، لكنها بناء جميل ؛ وإنما بدأت العمارة فناً حين فكّر رجل أو فكرت امرأة لأول مرة أن تقيم بناء للمظهر وللنفع معاً : وربما اتجه الإنسان بهذه الرغبة في خلع الجمال والفضامة على البناء ، إلى المقابر قبل أن يتّجه بها إلى الدور ؛ وبينما تطور العمود التذكارى الذى أقيم عند المقبرة إلى فن التماثيل ، فقد تطور القبر نفسه إلى المعبد ، ذلك لأن الموتى عند البدائيين كانوا أهم وأقوى من الأحياء ، هذا فضلاً عن أن الموتى مستقرون في مكان واحد ، بينما الأحياء يتجولون هنا وهناك بحيث لا تنفعهم الدور الدائمة .

ولقد وجد الإنسان لذة في الإيقاع منذ زمان بعيد ، وربما كان ذلك قبل أن يفكر في نحت الأشياء أو بناء المقابر بزمن طويل ؛ وأخذ يُطوّر صياح الحيوان وتغريده ؛ وقفزه ونقّسه ، حتى جعل منه غناء ورقصاً ؛ وربما أنشد - مثل الحيوان - قبل أن يتعلّم الكلام^(٥٦) ورقص حين أنشد الغناء ؛ والواقع أنك لن تجد فناً يميز البدائيين ويعبر عن نفوسهم كما يميزهم الرقص ويعبّر ، ولقد طوّره من سداجة أولية إلى تركيب وتعقيد أين منهما رقص المتحضرين ؛ وتوّعه صوراً شتى تُعدّ بالملئات ؛ فالأعياد الكبرى عند القبائل ، كانت تحتفل أولاً بالرقص في صورتيه : الجمعى والفردى ؛ وكذلك كانت الحروب الكبرى تبدأ بخطوات وأناشيد عسكرية ؛ والمحافل الكبرى في الدين كانت مزيجاً من غناء ومسرحية ورقص ؛ إن ما يبدو لنا ضرباً من اللعب ، قد كان على الأرجح أموراً جدية للإنسان الأول ؛ فهم حين كانوا يرقصون ، لم يريدوا بذلك أن يعبروا عن أنفسهم وكفى بل قصدوا إلى الإيحاء إلى الطبيعة وإلى الآلهة ، مثال ذلك استحثاث

الطبيعة على وفرة النسل كانوا يؤدونه أساساً بالتنويم الذى ينتج عن الرقص ؛ ويرى « سبنسر » أن الرقص يرجع فى أصله إلى ترحيب ذى طقوس بريثيس عاد من الحروب ظافراً ؛ أما « فرويد » فأرى أن الرقص أصله التعبير الطبيعى عن الشهوة الحسية ، وفن الجماعة فى إثارة الرغبة الجنسية ؛ فلو كان لنا أن نقول - غير متجاوزين هذه الآراء من حيث ضيق النظر - بأن الرقص إنما نشأ من الطقوس المقدسة وألوان العريضة ، ثم جمعنا النظريات الثلاث التى أسلفنا ذكرها فى نظرية واحدة ؛ كان لنا بذلك فكرة عن أصل الرقص هى أدق ما يمكننا الوصول إليه اليوم .

ولنا أن نقول بأنه عن الرقص نشأ العزف الموسيقى على الآلات كما نشأت المسرحية ؛ فالعزف الموسيقى - فيما يبدو - قد نشأ عن رغبة الإنسان فى توقيع الرقص توقيعاً له فواصل تحدده ، وتصاحبه أصوات تقويّه ؛ وعن رغبته كذلك فى زيادة التهبج اللازم للشعور الوطنى أو الجنسى بفعل صرخات أو نغمت موزونة ؛ وكانت آلات العزف محدودة المدى والأداء ، ولكنها من حيث الأنواع لا تكاد تقع تحت الحصر ؛ فقد بذل الإنسان كل ما وهبته الطبيعة من نبوغ فى صناعة الأبواق بأنواعها والطبول والشخاشيخ والمصفقات والنايات وغيرها من آلات الموسيقى ، صنعها من قرون الحيوان وجلودها وأصدافها وعاجها ، ومن النحاس والخيزران والخشب ؛ ثم زخرف الإنسان هذه الآلات بالألوان والنقوش الدقيقة ؛ ومن وتر القوس قديماً نشأت عشرات الآلات ، من القيثارة البدائية إلى الكمان والبيان الحديثين ؛ ونشأ بين القبائل منشدون محترفون كما نشأ بينهم الراقصون المحترفون ، وتطور السلّم الموسيقى من غموض وخفوت حتى أصبح على ما هو عليه الآن (٦٦) .

ومن الموسيقى والغناء والرقص مجتمعة ، خلقت لنا « الهمجى » المسرحية والأوبرا ، ذلك لأن الرقص البدائى كان فى كثير من الأحيان يختص بالمحاكاة ،

فقد كان يحاكي حركات الحيوان والإنسان ولا يجاوز هذه المرحلة ، ثم انتقل إلى أداء يحاكي به الأفعال والحوادث ؛ فمثلا بعض القبائل الاسترالية كانت تقوم برقصة جنسية حول فجوة في الأرض يوشون حوافها بالشجيرات ليمثلوا بها فرج المرأة وبعد أن يحركوا أجسامهم حركات نشوانة غزلية ، يطعنون برمامهم طعنات رمزية في الفجوة ؛ و قبائل استراليا الشمالية الغربية ، كانت تمثل مسرحية الموت والبعث لا تختلف إلا في درجة البساطة عن مسرحية اللغز في القرون الوسطى والمسرحية العاطفية في العصر الحديث ؛ فكنت ترى الراقصين يهبطون إلى الأرض في حركة بطيئة ، ثم يغطون وجوههم بغصون يحملونها ، تمثيلا للموت ؛ حتى إذا ما أشار لهم الرئيس ، نهضوا نهوضا مباغتاً وهم يرقصون ويغنون رقصا وغناء عنيفين يدلون بهما على فوزهم الذي أحرزوه ، ويعلنون بعث الروح (٦٧) وعلى هذا النحو أو ما يشبهه ، كانوا يقومون بمئات الأوضاع في التمثيل الصامت ، ليصفوا بها أهم الأحداث في تاريخ القبيلة ، أو أهم الأفعال في حياة الفرد ؛ فلما اختفى التوقيع من هذا التمثيل ، تحول الرقص إلى مسرحية ، وبهذا وُلِدَتْ لنا صورة من أعظم صور الفنون .

بهذه الوسائل خَلَقَ لنا البدائيون السابقون لعصر الحضارة صور الحضارة وأسسها ؛ فإذا ما نظرنا إلى الوراء نستعرض هذا الوصف الموجز للثقافة البدائية ، وجدنا هناك كل عنصر من عناصر المدنية إلا عنصرين : هما الكتابة والدولة ، فكل أوضاع الحياة الاقتصادية وُضعت لنا أصولها في هذه المرحلة : الصيد والسماكة ، الرعى والزراعة ، النقل والبناء ، الصناعة والتجارة وشئون المال ؛ وكذلك كل الأنظمة السياسية البسيطة نبتت جنورها في هذه المرحلة : العشيرة والأسرة ، القرية والجماعة والقبيلة ؛ وكذلك ترى الحرية والنظام - هنان المحوران المتضادان اللذان تدور حولهما المدنية كلها - قد تلاءما وتوافقا لأول مرة في هذه المرحلة ، فبدأ حينئذ القانون وبدأت العدالة ؛ وقامت أسس الأخلاق :

تدريب الأطفال وتنظيم الحسنين : وتلقين الشرف والحشمة وقواعد السلوك والولاء ؛ وكذلك وضعت أسس الدين ، واستخدمت آماله ومخاوفه في تأييد الأخلاق وتدعيم المجتمع ؛ وتطور الكلام إلى لغات معقدة ، وظهرت الجراحة وظهر الطب ، وبدت بوادر متواضعة للعلم والأدب والفن ؛ وفوق هذا كله كانت هذه المرحلة صورة لمهد تم فيه إبداع عجيب ، فنظام يُخلق من فوضى ، وطريق بعد طريق يُشَقُّ من حياة الحيوان لينتهي إلى الإنسان الحكيم ؛ فبغير هؤلاء «الهمج» وما أنفقوه من مائة ألف عام في تجريبه وتحسس ، لما كُتِب للمدنيّة النهوض ؛ فنحن مدينون لهم بكل شيء تقريبا - كما يرث اليافع المحظوظ ، أو إن شئت فقل كذلك إنه اليافع المتحلل ، كما يرث هذا اليافع سبيله إلى الثقافة والأمن والدعة ، من أسلاف أميين ورثوه ما ورثوه بكدهم الطويل .

الباب السادس

بدايات المدنية فيما قبل التاريخ

الفضل الأول

ثقافة العصر الحجري القديم

الغاية من دراسة ما قبل التاريخ - فتنة الدراسة الأثرية

إننا في حديثنا السابق ، لم نلتزم الدقة في الحديث ، فهذه الثقافات البدائية التي عرضناها كوسيلة لدراسة عناصر المدينة ، لم تكن بالضرورة الأصول التي تفرعت عنها مدينتنا ؛ فليس ما يمنع أن تكون بقايا متحللة لثقافات أعلى تدهورت حين تحركت زعامة البشر في إثر الثلوج التي تنزاح عن صدر الأرض ، فانتقلت من المدارين إلى المنطقة الشمالية المعتدلة ، ولقد حاولنا أن نفهم كيف تنشأ المدينة بصفة عامة وكيف يتم تشكيلها ، ولا يزال أمامنا أن نتعقب أصول مدينتنا الخاصة فيما قبل التاريخ (*) ، ونحب الآن أن نبحث بحثاً موجزاً - لأن مجال هذا البحث لا يمس أغراضنا إلا من هوامشها - فتتبع الخطوات التي خطاها الإنسان قبل التاريخ ، ليمهد السبيل إلى المدينة التي عرفها التاريخ ؛ كيف أصبح إنسان الغابة أو إنسان الكهف هو المعمارى المصرى ، أو الفلكى البابلى ، أو النبى العبرى أو الحاكم الفارسى ، أو الشاعر اليونانى ،

(*) سنستعمل هذه العبارة « فيما قبل التاريخ » لندل بها على كل العصور السابقة للمدونات التاريخية .

أو المهندس الروماني ، أو القديس الهندي ، أو الفنان الياباني ، أو الحكيم الصيني ؛ لا بد لنا أن نسلك سبيلنا من علم الأجناس البشرية - عن طريق علم الآثار - لننتهي إلى التاريخ .

إن الباحثين يملأون بطاح الأرض كلها تبونها بحثاً : طائفة تريد الذهب ، وطائفة تريد الفضة وثالثة تنشده الحديد ، ورابعة تسعى وراء الفحم ، وكثيرون إلى جانب هؤلاء يطربون المعرفة ؛ فيالها من مهمة عجيبة هذه التي يضطلع بها مَنْ يستخرجون آلات العصر الحجري من جوف الأرض عند ضفاف السوم ، ويدرسون بأعناق مشرّبة الصور الناصعة المرسومة على أسقف الكهوف من عهد ما قبل التاريخ ، ويخرجون جماجم قديمة من مدافنها عند « تشوكوتين » Chou Kou Tien ويكشفون عن المدائن الدفينّة في « موهنجودارو » Mohengo-daro أو « يقطان » Yucaton ؛ وينقلون الأناقض في سلال تحملها القوافل في مقابر المصريين التي استنزل أصحابها اللعنة على نابشها ، وينفضون التراب عن قصور « مينوس » و« بريام » ويزيلون الغطاء عن « پرسوپوليس » ، ويحفرون الأرض في إفريقيا حفرّاً ليجدوا بقية من قرطاجنة ، ويتقدمون من ثنايا الغابات معابد « أنجور » العظيمة ! لقد عثر في فرنسا « چاك بوشيه دى پرت » في سنة ١٨٣٩ على أول أثر من الصوّان مما خلّفه العصر الحجري ؛ ولبت العالم يسخر منه تسعة أعوام كاملة ، لأنه كان في رأى العالم عندئذ مخدوعاً ؛ وفي سنة ١٨٧٢ أزال « شاميان » - بماله الخاص ، ويوشك أن يكون قد اعتمد على يديه دون غيرهما في ذلك - أزال التراب عن أحداث مدائن طروادة وإنها لكثيرة ؛ لكن العالم كله ابتسم له ابتسامة المرتاب ؛ ولعل التاريخ لم يشهد من قرونه قرناً اهتم أهله بالتاريخ كالقرن الذى تلا رحلة شمپوليون الشاب في صحبة نابليون الشاب إلى مصر (عام ١٧٩٨) وعاد نابليون من رحلته نحلى الوفاض ؛

أما شمهوليون فقد عماد وفي قبضته مصر بأسراها ، ماضيها وحاضرها ؛ ومنذ ذلك الحين ، أخذ كل جيل يستكشف مدنيات جديدة وثقافات جديدة ، ويرجع خطوة وراء خطوة بمحدود معرفة الإنسان بتطوره ؛ فلن تجد جوانب كثيرة من حياة هذا النوع البشرى السافك للدماء ، أجمل من هذا الشغف الشريف بالاستطلاع ، هذه الرغبة القلقة المغامرة في سبيل العلم .

الفصل الثاني

أهل العصر الحجري القديم

بطانة جيولوجية - الأنماط البشرية في ذلك العصر

كتب لنا الكُتَّابُ عدداً ضخماً من الكتب ليوسِّعوا نطاق علمنا
بالإنسان البدائي ، ويخفوا معالم جهلنا به ؛ ونحن نترك للعلوم الأخرى ذات
الخيال المبدع مهمة وصف الناس في العصرين الحجريين القديم والحديث ،
ونكتفي هنا بما نحن مَعْنِيُونُ به ، وهو تعقُّب الإضافات التي أضافتها
الثقافات الحجرية بعصرها القديم والحديث ، إلى حياتنا المعاصرة .
إن الصورة التي ينبغي أن نكوِّنها لأنفسنا ببطانة للقصة التي نرويها ،
هي صورة أرض تختلف اختلافاً بيّناً عن الأرض التي تحملنا اليوم في
حياتنا العابرة ؛ هي صورة أرض ربما كانت ترتجف بأنهار الثلج التي
كانت يتحاشها حيناً بعد حين ، والتي جعلت من المنطقة المعتدلة اليوم منطقة
منجمدة نمدى آلاف السنين ، وكوَّمت جلاميد من الصخر مثل جبال
الهملايا والألب والبرانس ، في طريق هذا المحراث الثلجي الذي كان يشق
الأرض في سيره شقاً(*) .

فلو أخذنا بنظريات العلم المعاصر على سرعة تغييرها ، قلنا إن الكائن الذي
أصبح فيما بعد إنساناً حين تعلم الكلام ، كان أحد الأنواع القادرة على الملازمة بين
نفسها وبين البيئة ، التي بقيت بعد هذه القرون المتجمدة بجليدها ؛ وبينما كان

(*) تحدد النظرية الجيولوجية القائمة الآن تاريخ عصر الجليد الأول بسنة ٥٠٠,٠٠٠ قبل
الميلاد ، والمرحلة الأولى التي توسّطت عصرين جليديين بسنة تقع بين ٤٧٥,٠٠٠ و ٤٠٠,٠٠٠
قبل الميلاد ، وعصر الجليد الثاني بسنة ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد . والمرحلة الثانية التي توسّطت
عصرين جليديين بسنة بين ٣٧٥,٠٠٠ و ١٧٥,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ والعصر الجليدي الثالث
بسنة ١٧٥,٠٠٠ قبل الميلاد ، والمرحلة الثالثة التي توسّطت عصرين جليديين بسنة تقع بين
١٥٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ والعصر الجليدي الرابع (والأخير) بسنة تقع بين
٥٠,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ قبل الميلاد (٢) ونحن الآن في مرحلة أعقبت عصراً جليدياً لم يحسب
تاريخ نهايته حساباً دقيقاً .

الجليد يتراجع في المراحل التي تتوسط العصور الجليدية ، (بل قبل ذلك بكثير فيما نعلم) استكشف هذا المخلوق العجيب النار ، وطَوَّرَ فنَّ نحت الصخر والعظم ليصنع أسلحة وآلات ، فهد السبيل بذلك لقدم المدنيَّة .

ولقد وجدت بقايا كثيرة ترجع إلى هذا الإنسان السابق للتاريخ - ولو أن هذه المعلومات أصابها كثير من التعديل فيما بعد - ففي سنة ١٩٢٩ كشف صيني شاب عالم بالحفريات الحيوانية والنباتية ، وهو « و . س . بي » W. C. Pei في كهف عند « تشوكو تين » - وهو يبعد عن « بيين Peiping نحو سبعة وثلاثين ميلاً - عن جمجمة ، وقد قال عنها علماء خبراءٌ مثل « الأب بريل » Abbé Breuil و « ج . إليت سميث » G. Eliot Smith إنها جمجمة بشرية ووجدت آثار من النار بالقرب من الجمجمة ؛ كما وجدت أحجار استخدمت آلاتٍ بغير شك ؛ لكنهم وجدوا كذلك عظام حيوان مزوجة بتلك الآثار ، أجمع الرأي على أنها ترجع إلى عصر الهليستوسين الأول وهو عصر تاريخه مليون سنة مضت^(٣) ؛ هذه الجمجمة التي وجدت عند « بيين » هي بإجماع الآراء أقدم ما نعرف من القواقع البشرية ، والآلات التي وجدت معها هي أقدم مصنوعات في التاريخ ؛ وكذلك وجد « دوسن » Dawson و « وود وورد » Woodward عند « پليستداون » في مقاطعة سسسيكس بإنجلترا ، سنة ١٩١١ قطعاً من العظم يمكن أن تكون بشرية ، وهي التي تعرف اليوم باسم « إنسان پليستداون » أو باسم « يوانتروپس » Eoanthropus (معناها إنسان الفجر) والتاريخ الذي يحدده لها يتراوح على مسافة طويلة من الزمن ، من سنة مليون إلى ١٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ؛ ومثل هذه التخمينات يدور أيضاً حول عظم الجمجمة وعظام الفخذ التي وجدت جاوه سنة ١٨٩١ وعظمة الفك التي وجدت قرب هيدلبرج سنة ١٩٠٧ ؛ وأقدم القواقع التي لاشك في أنها بشرية وجدت في « نياندرتال » بالقرب من دسلدورف بألمانيا سنة ١٨٥٧ ، وتاريخها فيما يظهر هو سنة ٤٠٠٠٠

قبل الميلاد ، وهي تشبه البقايا البشرية التي كُشِف عنها في بلجيكا وفرنسا
واسبانيا بل وعلى شواطئ* بحر جاليلي ؛ حتى لقد صَوَّر العلماء عصرآ بأسره .
من « إنسان النياندرتال » ساد أوروبا منذ حوالي أربعين ألف عام قبل عصرنا ؛
هذا ؛ وكان هؤلاء الناس قصاراً ، لكن لهم جماجم سعة الواحدة منها ١٦٠٠
سنتيمتر مكعب أى أنها أكبر من جمجمة الرجل في هذا العصر بمائتي سنتيمتر
مكعب^(٤)

ويظهر أن قد حل جنسٌ جديد اسمه « كرو - مانيون » Cro-Mangon
حول سنة ٢٠,٠٠٠ قبل الميلاد محل هؤلاء السكان الأقدمين لأوروبا ،
كما تدلنا الآثار التي كُشِف عنها (سنة ١٨٦٨) في مغارة بهذا الاسم في منطقة
« دوردوني » في فرنسا الجنوبية ؛ ولقد استخرجت بقايا كثيرة من هذا
النمط ترجع إلى العصر نفسه ؛ من مواضع مختلفة في فرنسا وسويسرا وألمانيا
وويلز . وكلها تدل على قوم ذوى قوة عظيمة وقوام فارغ يتراوح طوله
من خمس أقدام وعشر بوصات إلى ست أقدام وأربع بوصات ولهم جماجم
سعة الواحدة منها تختلف من ١٥٩ إلى ١٧١٥ سم مكعب^(٥) ، وتعرف فصيلة
« كرو - مانيون » كما تعرف فصيلة « نياندرتال » باسم « سكان الكهوف »
ذلك لأن آثارهم وجدناها في الكهوف ، لكن ليس هناك دليل واحد على
أن الكهوف كانت كل ما لديهم من المساكن ؛ فقد يكون ذلك سخرية بنا من
الزمن ، أعنى أن علماء الحفريات لم يجدوا من آثار هؤلاء الناس إلا آثار من
سكنوا الكهوف ولاقوا فيها مناياهم ؛ والنظرية العلمية اليوم تذهب إلى أن هذه
الفصيلة العظيمة إنما جاءت من آسيا الوسطى مارة بإفريقية . حتى بلغت أوروبا ؛
وأنها شقت طريقها فوق جسور من اليابس يقال إنها كانت عندئذ تربط
إفريقية بإيطاليا وأسبانيا^(٦) . وإن طريقة توزيع هذه القواقع البشرية ليميل
بنا إلى الظن بأنهم لبثوا عشرات من السنين بل ربما لبثوا قرونآ طوالا يقاتلون
فصيلة « نياندرتال » قتالا عنيفآ لانتزاع أوروبا من أيديهم . وهكذا ترى
أن النزاع بين ألمانيا وفرنسا ضارب بجذوره في القدم ؛ ومهما يكن من

أمر فقد زال إنسان « نياندرتال » عن ظهر الأرض حيث عمرها إنسان « كرو - مانيون » الذى أصبح السلف الأساسى الذى عنه جاءت أوروبا الغربية الحديثة ، وهو الذى وضع أساس المدنية التى انتهت إلى أيدينا اليوم ، إن الآثار الثقافية لهذه الأنماط البشرية التى بقيت فى أوروبا من العصر الحجري القديم تقع فى سبعة أقسام رئيسية تختلف باختلاف المواضيع التى وجدنا فيها أقدم الآثار أو أهمها فى فرنسا . وكلها جميعاً إنما يتميز باستخدام آلات غير مصقولة ؛ والأقسام الثلاثة الأولى منها قد تم لها التكوين فى الفترة المضطربة التى توسطت العصرين الجليديين الثالث والرابع .

١ - الثقافة (أو الصناعة) السابقة للعهد الشيلي Pre-Chellean وهو عصر يقع تاريخه حول سنة ١٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ومعظم الأحجار الصوانية التى وجدناها فى هذه الطبقة الوطية من طبقات الأرض لا تدل دلالة قوية على أن أهل ذلك العصر قد صاغوها بصناعتهم والظاهر أنهم قد استخدموها كما صادفوها فى الطبيعة [ذلك إن كانوا قد استخدموها إطلاقاً] لكن وجود أحجار كثيرة بينها لها مقبض يلائم قبضة اليد ، ولها حدة وطرّف (إلى حد ما) يجعلنا نزعّم هذا الشرف للإنسان السابق للعهد الشيلي ، شرف صناعة أول آلة استخدمها الأوربيون ، وهى المديّة الحجرية .

٢ - الثقافة الشيلية ويقع تاريخها حول سنة ١٠٠٠٠٠ قبل الميلاد وقد تحسنت فيها هذه الآلة بإرهاق جانبيها لإرهاقها على شئ من الغلظة وبتدبيرها بحيث تتخذ شكل اللوزة ، ثم تهيتها تهيئة تكون أصبغ لقبضة اليد البشرية .

٣ - الثقافة الأشواية Acheulean ويقع تاريخها حول ٧٥٠٠٠ قبل الميلاد ولقد تخلفت عنها آثار كثيرة فى أوروبا وجرينلندة والولايات المتحدة والمكسيك وإفريقية والشرق الأدنى والهند والصين ؛ وهذه المرحلة لم تُصلح من المديّة الحجرية لإصلاحها يجعلها أكثر تناسقا وأحد طرفا فحسب ، بل أنتجت إلى جانب ذلك

أنواعا كثيرة من الآلات الخاصة كالمطارق والسندانات والكاشطات والصفائح ورعوس السهام وسنان الرماح والمدى ، وفي هذه المرحلة تستطيع أن نرى صورة تدل على مرحلة نشيطة بالصناعة البشرية .

٤ - الثقافة المoustيرية moustirian ، وتوجد آثارها في القارات كلها ، مرتبطة ارتباطاً يسترعى النظر ببقايا إنسان النياندرتال ، وذلك في تاريخ يقع على نحو التقريب قبل الميلاد بأربعين ألفاً من السنين ؛ والمدية الحجرية تادرة نسبياً بين هذه الآثار ، كأنما أصبحت عندئذ شيئاً عنى عليه الزمان وحل محله شيء جديد ؛ أما هذه الآلات الجديدة فقوام الواحدة منها رقيقة واحدة من الصخر ، أخف من المدية السابقة وزناً وأرهف حدةً وأحسن شكلاً ، صنعتها أيدي طال بها العهد بقواعد الصناعة ؛ فإذا صعدت طبقة من الأرض في طبقات العهد البلستوسيني في جنوب فرنسا وجدت بقايا الثقافة التالية :

٥ - الثقافة الأورجناسية Aurignacian وتقع حول عام ٢٥٠٠٠ قبل الميلاد ، وهي أولى المراحل الصناعية بعد عصر الجليد ، وأولى الثقافات المعروفة لإنسان « كرو - مانيون » ؛ وهما في هذه المرحلة أضيفت إلى آلات الحجر آلات من العظم - مشابك وسندانات وصافلات الخ - وظهر الفن في نقوش غليظة منحوتة على الصخر ، أو في رسوم ساذجة بارزة ، أغلبها رسوم لنساء عاريات (٧) ؛ ثم جاءت في مرحلة متقدمة من مراحل تطور إنسان « كرومانيون » ثقافة أخرى ، هي :

٦ - الثقافة « السولتريه » Solutrean التي ظهرت حول سنة ٢٠٠٠٠ قبل الميلاد في فرنسا وأسبانيا وتشيكوسلوفاكيا وبولنده ؛ وهنا أضيفت إلى أسلحة العهد الأورجناسي السالف وأدواته ، مدسّ وصفائح ومثاقب ومناشير ورماح وحراب ؛ وصنعت كذلك إبراً دقيقة حادة من العظم ، وقُدّت آلات كثيرة من قرن الوحل ؛ وترى قرون الوحل منقوشة أحياناً برسوم رسوم حيوانية أرقى بكثير من

الفن في العصر الأورجناسي السابق ، وأخيرا عند ما بلغ إنسان كرومانيون ذروة تطوره ، ظهرت :

٧ - الثقافة المجدلية Magdalenian التي ظهرت في أرجاء أوروبا كلها حول سنة ١٦,٠٠٠ قبل الميلاد ، وهي تتميز في الصناعة بمجموعة كبيرة منوعة من رقيق الآتية المصنوعة من العاج والعظم والقرن ، وهي تبلغ حدها الأقصى في مشابهة وإبر متواضعة لكنها تصل حد الكمال في الإتقان ، وهذه المرحلة هي التي تميزت في الفن برسوم « الثميرا » Altamira وهي أدق وأرق ما صنعه إنسان كرومانيون .

وضع إنسان ما قبل التاريخ ، في هذه الثقافات التي شهدتها العصر الحجري القديم ، أسس الصناعات التي كُتِبَ لها أن تبقى جزءا من التراث الأوروبي حتى الثورة الصناعية ، وكان مما سهَّل نقلها إلى المدينة الكلاسيكية والمدينة الحديثة انتشار صناعة العصر الحجري القديم ؛ والجمجمة وتصاوير الكهوف التي وجدناها في روسيا سنة ١٩٢١ ، والأحجار الصوانية التي كشف عنها في مصر « دي مورجان » De morgan سنة ١٨٩٦ ، وآثار العصر الحجري القديم التي وجدناها « ستين كار » Seton-Karr في الصومال ؛ ومستودعات العصر الحجري القديم في منخفض الفيوم (*) وثقافة جليج ستيل- في جنوب أفريقيا ، كلها تدل على أن « القارة المظلمة » قد اجتازت نفس المراحل تقريبا التي أوجزناها فيما سلف عن أوروبا قبل التاريخ ، وذلك من حيث صناعة الرقائق الحجرية (٨) ؛ بل ربما كانت الآثار التي وجدناها في تونس والجزائر ، مما يشبه آثار العصر الأورجناسي ، يؤيد النظرية القائلة بأن أفريقيا هي الأصل في تلك الثقافة ، أو هي الحد الذي وقف عنده إنسان « كرومانيون » ، وبالتالي الإنسان الأوروبي (٩) ولقد احتُفِرَت آلات من العصر الحجري القديم في سوريا والهند والصين وسبيريا وغيرها من أصقاع آسيا (١٠) كما

(*) واحة إلى الغرب من النيل الأوسط .

عثر عليها « أندرو » وسابقوه من الجزويت في منغوليا^(١١) ؛ وكذلك
احتُفِرَتْ هياكل لإنسان النياندرتال وأحجار صَوَّانية كثيرة من العهدين
«الموستيرى» و «الأورجناسى» في فلسطين ، ولقد رأينا كيف كشف
حديثا في « بيبين » عن أقدم ما نعرفه من بقايا الإنسان وأدواته ، ووجدت
آلات من العظم في نبراسكا ، وأراد بعض العلماء الذين يتأثرون بالروح
الوطنية أن يردّوها إلى عام ٥٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد ؛ وكذلك وجدت رءوس
سهام في « أوكلاهوما » وفي المكسيك الجديدة ويؤكد لنا واجدوها أنها
صنعت عام ٣٥٠,٠٠٠ قبل الميلاد ، وهكذا تراه جسرا عريضا ذلك
الذى نقل عبّره إنسان ما قبل التاريخ أسس المدينة إلى زميله الإنسان الذى
يظهر فى عصور التاريخ .

الفصل الثالث

الفنون في العصر الحجري القديم

الآلات - النار - التصوير - النحت

لو أننا في هذا الموضوع أو جزئنا ذكر الآلات التي صنعها إنسان العصر الحجري القديم ، لصورنا لأنفسنا صورة عن حياته أوضح مما لو تركنا تخيلنا الحبل على الغارب ؛ وطبيعي أن يكون أول الآلات حجراً في قبضة الإنسان ، فكم من حيوان كان في استطاعه أن يعلم الإنسان هذه الآلة ؛ وإذن فقد أصبحت المديّة الحجرية المُدَبَّبَةُ في أحد طرفيها ، والمستديرة في طرفها الآخر لتلائم قبضة اليد ، أصبحت هذه المديّة الحجرية للإنسان البدائي مطرقة وفأساً وإزميلاً وكاشطة وسكيناً ومنشاراً ؛ إلى يومنا هذا تترى الكلمة (الإنجليزية) التي نستعملها لتدل على المطرقة : (hammer) معناها حجر من حيث أصلها اللغوي^(٢) ثم حدث على مرّ الأيام أن تنوعت هذه الآلات في أشكالها حتى بَعُدَتْ عن أصلها المتجانس ، فثقبت الثقوب لتركيب مقبض ، وأدخلت الأسنان لتكون الآلة منشاراً ، وغرزت فروع في المديّة الحجرية لتصبح مغرازا أو سهماً أو حربة ؛ كما أصبح الحجر الكاشط الذي كان يتخذ شكل القوقعة ، مجرافاً أو معزاقاً ؛ وأما الحجر الخشن الملمس فقد جعلوه مبرّداً ، وجعلوا حجر المقلاع أداة للقتال بقيت قائمة حتى اجتاز بها الإنسان عصر المديّة الكلاسيكية ذاتها ؛ ولما ظفر إنسان عصر الحجري القديم بالعظم والخشب والعاج إلى جانب الحجر ، صنع لنفسه مجموعة متنوعة من الأسلحة والآلات : صنع الصاقلات والهاونات والقووس والصفائح والكاشطات والمثاقب والمصابيح والمدى والأزاميل والشواطير والحرايب والسندانات ، وحافرات المعادن والحناجر وأشخاص السمك وحرايب الصيد والخوابير والمغاريز والمشابك

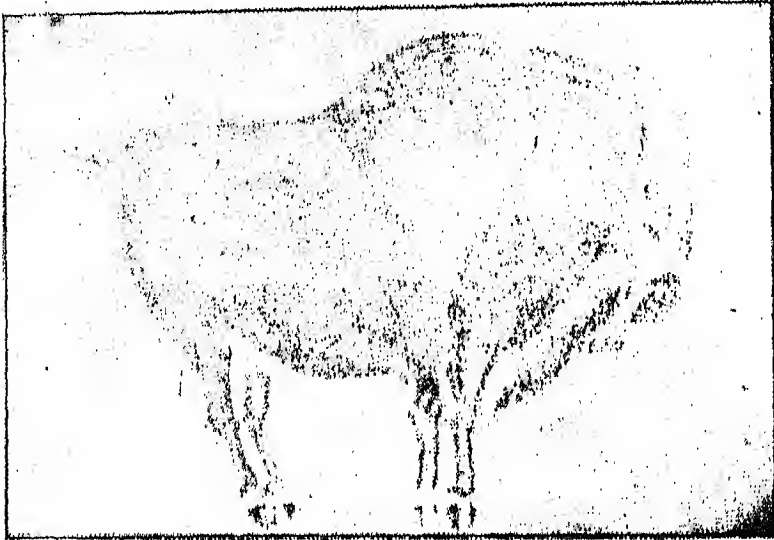
وكثيراً غير هذه بغير شك^(١٤) ؛ فكان يَعْشُرُ في كل يوم على علمٍ جديد ، وكان له من قدرته العقلية أحيانا ما يُطَوَّرُ به مكتشفات المصادفة إلى مخترعات مقصودة .

لكن آيته العظمى هي النار ، وفي ذلك أشار « دارون » إلى أن حمم البراكين الحار قد يكون هو الذي علّم الإنسان ما النار ؛ ويقول لنا « أسخيلوس »^(*) إن « برومثيروس » صنع النار بإشعاله حَبَلِيَّةً في فوهة بركان مشتعل على جزيرة « لمنوس »^(١٥) ؛ وبين آثار إنسان النياندرتال قِطْعٌ من الفحم وقطع من العظم المحترق وإذن فالنار التي صنعها الإنسان تذهب في القِدَم إلى أربعين ألف عام مضت^(١٦) ؛ وقد أعدّ لإنسان « كرو - مانيون » لنفسه آنية خاصة تمسك الشمع الذي كان يشعله ليستضيء بضوئه ، وإذن فالمصباح كذلك له من العمر هذا الزمن الطويل ، والراجح أن تكون النار هي التي مكّنت الإنسان من اتقاء البرد الناشئ عن الجليد الزاحف ؛ وهي التي أتاحت له النوم في الليل آمناً من الحيوان الذي ارتعد لهذه الأعجوبة ارتعاداً يَعدّل عبادة الإنسان البدائي إياها ؛ وهى التي قهرت الظلام فكانت أول عامل من العوامل التي حدّت من الخوف ، والتقليل من خوف الإنسان أحد الخيوط الذهبية في نسج التاريخ الذي ليست كل خيوطه ذهباً ، وهي التي خاقت فن الطهي القديم الشريف ، فوسعت بذلك من نطاق الأطعمة الصالحة بحيث صلحت آلاف منها للأكل ولم تكن صالحة له من قبل ، وهي التي أدّت أخيراً إلى صهر المعادن والتحام بعضها في بعض ، وهو الخطوة الوحيدة الحقيقية التي تقدّمها الإنسان في فنون الصناعة من عهد إنسان « كرو - مانيون » إلى عصر الانقلاب الصناعي^(١٧)

وإننا لنروى لك عجباً - وكأنما نرويه لنوضع قصيدة « جوتيه »^(***) على

(*) أسخيلوس مسرحى يونانى قديم ، ومن أهم مسرحياته « برومثيروس » الذي علم الإنسان سر النار ففهمه بجميع آلهة لذلك ، إذ كان هذا السر من علم الآلهة وحدهم (المغرب) (***) شاعر فرنسى عاش في القرن التاسع عشر ؛ والقصيدة المشار إليها عنوانها « العر » وهي مترجمة إلى العربية في الجزء الثالث من قصة الأدب في العالم ص ١٤٢ - ١٤٤ (المغرب)

الفن الجبار الذى يحيا بعد فناء الأباطرة وزوال الدول - إننا نروى لك عجباً إذ نقول إن أوضح آثار خلتها لنا لإنسان العصر الحجري القديم هي قِطْعٌ من فنه ؛ فقد حدث منذ ستمين عاماً أن وقع « السنبور مارسلينو دى سوتولا » Marceleno de Soutuola على كهف واسع في مزرعته في « ألتاميرا » في شمال إسبانيا ، وكان هذا الكهف قد لبث آلاف الأعوام مقفل الباب كأنه صومعة راهب ، أفلته صخور سقطت عليه وأمدتْها الطبيعة بملاط من لدنها حين ربطت بعضها ببعض بأعمدة من رواسب ؛ ثم جاء الإنسان فضرب في هذا الموضع ضرباته لينشئ لنفسه جديداً ، فإذا به يكشف بضرباته عن مدخل الكهف بطريق المصادفة ؛ ومرت بعدئذ ثلاثة أعوام ثم جاء « سوتولا » ليستطلع الكهف فلحظ على جدرانهِ علامات غريبة ؛ وذات يوم صحبته ابنته الصغيرة ، ولما لم تكن بذات طول يُليزُ منها الانحناء كما كانت الحال مع أبيها ، فقد صعّدت بصرها نحو السقف تشهد ما فيه ، فرأت تخطيطاً غامضاً لبيزُونٍ ضخْمٍ (البيزون هو ثور برى)



صورة بيزون (ثور متوحش)
وجدت في كهف من العصر الحجري في « ألتاميرا » بإسبانيا

جميع الرسم ناصع الألوان ؛ فلما فُحص السقف وفُحصت الجدران فحسنا
دقيقا وجدت صور أخرى كثيرة ، وفي عام ١٨٨٠ نشر « سوتولا » تقريرا
عن مشاهداته ، فقابله علماء الآثار بريية هي من خصائصهم دائماً ؛ وتفضل
عليه بعض هؤلاء العلماء بزيارة يفحص فيها تلك الرسوم ، وينتهي بها
إلى الإعلان بأن الرسوم زائفة خطتها يدٌ خادعة ؛ ودام هذا الشك -
الذي ليس لأحد أن يعترض عليه مدى ثلاثين عاما ؛ ثم اكتشفت
رسوم أخرى في كهوف يُجمع الرأي على أنها من عهد ما قبل التاريخ
(مما فيها من آلات صَوَّانية غير مصقولة وعظم وعاج مصقولين) فأيدت
ما كان وصل إليه « سوتولا » من رأى ، لكن « سوتولا » عندئذ لم يكن
على قيد الحياة ؛ وجاء الجيولوجيون إلى « ألتاميرا » وأقروا بإجماعٍ أدرك
الحقيقة بعد أوانها ، أقروا بإجماع أن الرواسب التي كانت تغطي بعض
الرسوم إنما ترجع إلى العصر الحجري الأول (١٨) ؛ والرأى السائد الآن هو
أن رسوم « ألتاميرا » - والجزء الأكبر من بواقى الفن التي بقيت لنا من
عهد ما قبل التاريخ - ترجع إلى الثقافة المجدلية ؛ أى إلى عهد يقع نحو
سنة ١٦,٠٠٠ قبل الميلاد (١٩) ؛ وكذلك وُجدت رسومٌ أحدث تاريخاً من
هذه بقليل ، لكنها ما زالت من بقايا العصر الحجري القديم ، في كهوف
كثيرة في فرنسا (*) .

وتمثّل الرسوم في معظم الحالات صنوفاً من الحيوان - أوعالاً ومموث وجياداً
وخنازير ودببة وغيرها ؛ وربما كانت هذه الصنوف عند إنسان ذلك العصر طعاماً
شهيماً ، ولذلك كانت موضع عناية في صيده ؛ وأحياناً ترى صورة الحيوان
مطعوناً بالسهم ، ومن رأى « فريزر » و « ريناخ » Reinach أن أمثال هذه
الصور قُصد بها أن تكون رسوماً سحرية تأتي بالحيوان في قبضة الفنان أو الصائد ،
وبالتالى تأتي به إلى معدته (٢٠) ومن الجائز أنها رسوم لم يقصد بها إلا

(*) مثل « كومبارل » و « ليزي يز » و « فون دى جون » وغيرها .

إلى الفن الخالص . دفع إليها الإبداع الفنى وما يصاحبه من لذة فنية خالصة ؛ ذلك لأن أغلظ الرسوم كان يكفي لتحقيق غايات السحر ، على حين ترى هذه الصور فى كثير من الحالات قد بلغت من الرقة والقوة والمهارة حداً يوحى إليك بما يحزنك ، وهو أن الفن - فى هذا الميدان على أقل تقدير - لم يتقدم كثيراً فى شوط التاريخ الإنسانى الطويل ؛ فهائنا الحياة والحركة والفخامة قد عبّر عنها تعبيراً قوياً أخذوا بخط واحد جرىء أو خطّين ؛ وهائنا خطّ واحد يصور حيواناً حياً مهاجماً (أم هل تكون سائر الخطوط قد محاها الزمن ؟) تُرى هل تبقى صورة « العشاء الأخير » لـ « ليوناردو » Leonardo أو صورة الإدعاء للرسام « إلجريكو » El Greco كما بقيت رسوم « كرو - مانيون » فتظهر خطوطها وألوانها بعد عشرين ألف عام ؟

إن التصوير فن مُتَرَفٌّ ، لا يظهر إلا بعد قرون طوال تنقضى فى تطوّر عقلى وفنى ؛ ولو أخذنا بالنظرية السائدة اليوم (ومن الخطر دائماً أن تأخذ بالنظريات السائدة) فالتصوير قد تطور عن صناعة التماثيل ، التى بدأت بتماثيل كاملة ، ثم تطورت إلى تماثيل بارزة على لوحة منحوتة ، وعن هذه جاءت خطوة التصوير بالخطوط والألوان ؛ وإذن فالتصوير عبارة عن نحت نقص بُعداً من أبعاده ؛ والخطوة الوسطى من فن ما قبل التاريخ تراها ممثلة خير تمثيل فى نحت بارز يدهشك بقوة وضوحه ، والنحت تماثيل لرجل رامٍ بسهم (أو بحرية) وهو منقوش على الصخور الأورجناسية « بلوسيل » فى فرنسا ؛ وكشّف « لوى بيجوان » Louis Begouen فى كهف « بأربييج » فى فرنسا - بين آثار مجدلية أخرى عن كثير من المقابض المزخرفة صنّعت من قرون الأوعال ؛ وأحد هذه المقابض يدل على فن ناضج ممتاز ، كأنما كان الفن عندئذ قد اجتاز أجيالاً من التدريب والتطور ؛ وكذلك ترى فى أرجاء البحر الأبيض المتوسط منذ عهد ما قبل التاريخ - فى مصر وكريت وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا - صوراً لا عددها لنساء سمينات

قصورات تدل إما على عبادة هؤلاء الناس للأمم ، وإما على تصور الإفريقيين عندئذ للجمال ؛ واستُخْرِجَت من الأرض في تشكوسلوفاكيا تماثيل حجرية لحصان وحشِّي ووعل وماموث ، وجدت بين آثار ترجع - على سبيل الشك - إلى سنة ٣٠٠٠٠ قبل الميلاد (٢٢) .

إن تفسيرنا لسبب التاريخ على أنه سببٌ إلى الأمام ، لينهار من أساسه إذا شككنا في أن هذه التماثيل وهذه النقوش الباززة وهذه الصور - على كثرة عددها - قد لا تَكْرُر إلا جزءاً صغيراً جداً من الفن الذي عبَّرَ به الإنسان البدائي عن نفسه ، أو الذي زَيَّنَ به حياته ؛ إن ما بقي لنا كله في كهوف ، حيث عَزَّ على عوامل المناخ أن تتسلَّلَ إليها فتفسدها ، ولكن ذلك لا يقتضى أن إنسان ما قبل التاريخ لم يكن فناً إلا حين سكن الكهوف ؛ فربما نَحْتُوا في كل مكان كما يفعل اليابانيون ، وربما أكثرها صناعة التماثيل مثل اليونان ، وربما لم يقتصرُوا في تصويرهم على صخور الكهوف ، بل صوروا كذلك رسومهم على أقشه وخشب وعلى كل شيء آخر - غير مستثنين أجسامهم ؛ ربما أبدعوا في الفن آيات تفوق بكثير هذه القطع التي بقيت لنا ؛ ففي أحد الكهوف وجدنا أنبوبة مصنوعة من عظم الوعل وملائنة بمادة ملوَّنة لجلد الإنسان (٢٣) ؛ وفي كهف آخر وجدنا لوحة مصور فنان مما يوضع عليه الألوان عند التصوير ، وجدناها لا تزال تحمل على سطحها طلاء مَسْغَرَّة (تراب حديدى) أحمر ، على الرغم من مائتي قرن مضت عليه (٢٤) ؛ فالظاهر أن الفنون بلغت درجة عالية من التطور ، واتسع نطاقها بين الناس منذ ثمانية عشرة ألف عام ؛ فيجوز أن قد كان بين أهل العصر الحجري القديم فنانون محترفون ، ويجوز أن قد كان بينهم كذلك هججٌ متأخرون يتصورون جوعاً ويسكنون الكهوف الحقيرة ، حيث ينكرون الطبقات الغنية من التجار ، ويتآمرون على قتل المجامع العلمية ، ويصنعون بأيديهم أشياء وصلت إلينا فأصبحت تُحَفًا :

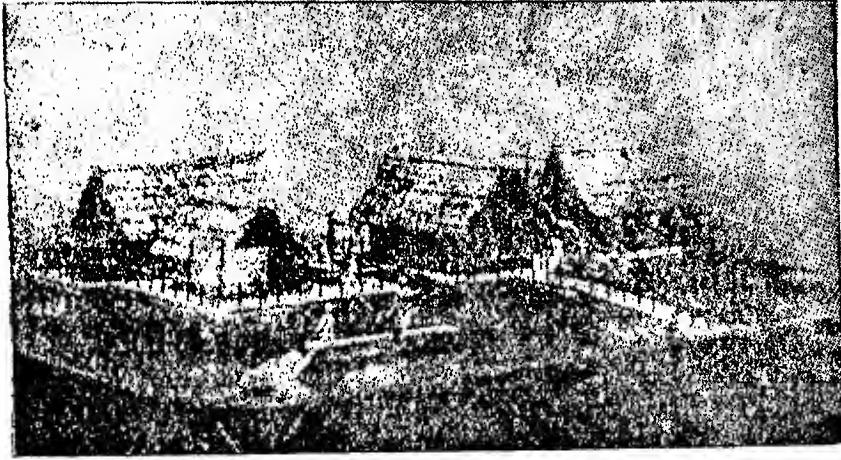
الفصل الرابع

ثقافة العصر الحجري الحديث

فضلات المطبخ - سكان البحيرة - ظهور الزراعة - استئناس الحيوان -
الأساليب الفنية - النسيج في العصر الحجري الحديث - صناعة الخزف -
البناء - النقل - الدين - العلم - موجز لما تم فيما قبل التاريخ من
تمهيد للمدنية

حدث في فترات مختلفة من القرن الأخير أن وُجِدَت أكداس هائلة مما يرجح أنه من فضلات ما قبل التاريخ ، ووجدت في فرنسا وساردينيا والبرتغال والبرازيل واليابان ومنشوريا ، ثم وُجِدَت فوق ذلك كله في الدانمركه حيث أطلق عليها هذا الاسم العجيب « فضلات المطبخ » الذي أصبحت تعرف به أمثال هذه الأكداس من آثار القديم ؛ وتتألف أكداس الفضلات هذه من قواقع ، خصوصا قواقع المحار وبلح البحر وحلزونات البحر ، ومن عظام كثير من الحيوانات البرية والبحرية ، ومن آلات وأسلحة صنعت من العظم والقرن والحجر غير المصقول ، ومن بقايا أرضية مثل الفحم والرماد والخزف المكسور ؛ وهذه الآثار التي لا تأخذ العين بجهاها - دلائل واضحة على ثقافة تكونت في تاريخ يقع حول سنة ثمانية آلاف قبل الميلاد ؛ وهو تاريخ أحدث من العصر الحجري القديم بالمعنى الدقيق ، لكنه كذلك لا يبلغ من الحداثة أن يكون من العصر الحجري الحديث ، لأنه لم يكن قد وصل بعد إلى عصر استخدام الحجر المصقول ؛ ولا نكاد نعلم شيئا عَمَّنْ خَلَقُوا لنا هذه الآثار ، سوى أن ذوقهم كان أصيلا إلى حد ما ؛ ويمكن اعتبار « فضلات المطبخ » - بالإضافة إلى ثقافة « مادزيل » Mas d'azil في فرنسا ، وهي أقدم من الفضلات قليلا - ممثلة لعصر حجري وسيط ، هو بمثابة مرحلة انتقال بين العصرين الحجريين القديم والحديث ؛

وقى عام ١٨٥٤ حيث كان الشتاء من الجفاف بدرجة حارقة للمألوف ، هبط مستوى الماء في البحيرات السويسرية ، فكشف عن عصر آخر من حضور ما قبل التاريخ ؛ فوجدت أكوام فيما يقرب من مائتي موضع في هذه البحيرات ؛ ووجد أن هذه الأكوام ظلت مكانها تحت الماء زمنا يتراوح بين ثلاثين قرنا وسبعين ؛ ولقد كانت تلك الأكوام مصنوفة



صورة أكلها المصور بخياله للمنازل التي بقيت آثارها تحت ماء البحيرات السويسرية من عصور ما قبل التاريخ

على نحو يبين أن قد شيدت فوقها قُرى صغيرة ، وربما شيدت هناك رغبة في العزلة أو في الدفاع ؛ وأن كل قرية كانت تتصل باليابس بجسر ضيق لم تزل أساس بعضها في أماكنها ؛ وكانت قوائم المنازل نفسها ما تزال باقية هنا وهناك ، لم تُزلْها الأمواه بفعلها الدموب(*) وبين هذه الخرائب الباقية وجدت آلات من العظم والحجر المصقول الذي أصبح

(*) وجدت مساكن في البحيرات شبيهة بهذه الدور ، في فرنسا وإيطاليا وسكتلندة والروسيا وأمريكا الشمالية والهند وغيرها ؛ ولا تزال قرى كهذه موجودة في بورنيو وسومطرة وغينا الجديدة وغيرها(٢٦) والذي أطلق على فنزويلا اسم « البندقية الصغيرة » هو « ألونسو دي أوجدا » الذي استكشفها من الأوربيين (سنة ١٤٩٩) فوجد أن أهلها يعيشون في مساكن على هيئة الأكوام في بحيرة ماراسيبو(٢٧)

في رأى علماء الآثار علامة مميزة للعصر الحجري الجديد الذى ازدهر حول سنة ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد فى آسيا، وحول سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد فى أوروبا (٢٨):
وشبيه بهذه الآثار ما تركه الجنس البشرى العجيب الذى نسميه باسم «بناة الجبال» من بقايا هائلة ضخمة فى وديان المسسى وفروعه ؛ ولسنا ندرى عن ذلك الجنس من أجناس البشر إلا أنه فى هذه الجبال التى بنوها وتركوها على هيئة مذابح القربان أو على أشكال هندسية مختلفة أو على هيئة حيوانات الطوطم ، وُجدت أشياء صنعوها من حجر وقوقع وعظم ومعادن مطروق ، مما يضع هؤلاء الناس الممغزين فى خاتمة العصر الحجري الجديد :

فلو حاولنا أن نلتق صورة من هذه الأشتات الأثرية عن العصر الحجري الجديد ، لرأينا فى الصورة على الفور خطوة جديدة خطاها الإنسان ، تثير فيك الدهشة عند رؤيتها ، ألا وهى الزراعة ؛ إنك تستطيع أن تقول إن التاريخ الإنسانى كله — بمعنى من معانيه — يدور حول انقلابين : الانقلاب الذى حدث فى العصر الحجري الحديث فنقل الإنسان من الصيد إلى الزراعة ، والانقلاب الذى حدث أخيرا فنقله من الزراعة إلى الصناعة ؛ ولن نجد فيما شهد الإنسان من ضروب الانقلاب ما هو حقيقى أساسى كهذين الانقلابين ؛ فالآثار تدلنا على أن « سكان البحيرة » كانوا يأكلون القمح والذرة والجويدار والشعير والشوفان ، فضلا عن مائة وعشرين نوعا من أنواع الفاكهة ، وأنواع كثيرة من البندق (٢٩) ؛ ولم نجد فى هذه الآثار محراثا ، ويجوز أن تكون علة ذلك هى أن سنان المحارث كانت تصنع من خشب ، فيُدقّ جذع شجرة إلى فرع بمسار من حجر الصّوان ؛ لكن نقشا محفورا على الصخر من العصر الحجري الحديث يدل دلالة لا يأتيا الشك على أنها صورة فلاح يسوق محراثا يشدّه ثوران (٣٠) وهذا يحدد لنا اختراعا جاء بمثابة بداية لعصر جديدة من عصور التاريخ ؛ إن الأرض قبل أن تدخلها الزراعة كان فى استطاعها أن تهيب أسباب العيش لما يقرب من عشرين مليوناً من

الأنفس البشرية (في تقدير سير آرثر كيث غير الدقيق) ، وحياة هؤلاء الملايين العشرين كانت معرضة لموت سريع بسبب الصيد والحرب^(٣١) ، أما بعد الزراعة فقد بدأ تكاثر الناس تكاثراً أيدّ سيادة الإنسان على الأرض سيادة مكينة لا شك فيها .

وفي الوقت نفسه كان أهل العصر الحجري الحديث يقيمون أساساً آخر من أسس الحضارة ، وهو استئناس الحيوان وتربيته ؛ ولاشك أن قد استغرق هذا العمل حيناً طويلاً من الدهر ، قد تكون بدايته أسبق تاريخياً من العصر الحجري الحديث ؛ فحب الإنسان بغيريته للاجتماع بغيره ربما كان عاملاً مساعداً على اتصال الإنسان والحيوان ، كما لا نزال نرى علائم ذلك واضحة في فرحة البدائيين بتدريب الوحوش المفترسة ، وفي ملء أكواخهم بالقرود والبيغاوات وأمثالها من سائر الزملاء^(٣٢) وأقدم العظام في آثار العصر الحجري الحديث (حوالي ٨٠٠٠ قبل الميلاد) هي عظام الكلب - الذي هو أقدم زملاء الجنس البشري عهداً وأشرفها خلقاً ؛ ثم جاءت بعد ذلك (حوالي ٦٠٠٠ قبل الميلاد) الماعز والخروف والخنزير والثور^(٣٣) وأخيراً جاء الحصان الذي لم يكن عند أهل العصر الحجري القديم إلا حيواناً يصاد ، إذا حكمنا من الرسوم التي في الكهوف ؛ أما في هذا العصر الحجري الحديث فقد أخذته الناس إلى حيث يسكنون واستأنسوه وجعلوا منه عبداً محبباً إلى نفوسهم^(٣٤) إذ استخدموه على شتى الصور ليزيد من ثروة الإنسان وفراغه وقوته ؛ وهكذا أخذ هذا الإنسان الذي بسط سيادته على الأرض آخر الأمر ، في الإكثار من موارد طعامه بتربية الحيوان إلى جابه ضيده له ؛ وربما عرف الإنسان كذلك في هذا العصر الحجري الحديث نفسه - كيف يستخدم لبن البقرة طعاماً .

وأخذ المخترعون في العصر الحجري الحديد شيئاً فشيئاً يوسعون ويحسنون آلاتهم وأسلحتهم ، فها هنا ترى بين مختلفاتهم بكرات ورافعات ومُرهِفَات ومغارز

وملاقط وفؤوساً ومعازيق وسلالم وأزاميل ومغازل ومناسج ومناجل
ومناشير وأشصاص السمك وقباقيب للانزلاق على الثلج وإبرا ومشابك
صدُر ودبابيس^(٣٥) ثم هاهنا فوق هذا كله ترى العجلة ، وهى مخترع
آخر من مخترعات الإنسان الأساسية ، وضرورة متواضعة من ضرورات
الصناعة والمدنيّة ؛ فهى فى هذه المرحلة من العصر الحجري كانت قد تطورت
إلى قرص وإلى أنواع أخرى من العجلات ذوات الأقطار ؛ وكذلك استعموا
كل صنوف الحجر فى هذه المرحلة - حتى العيصي منها كالحجر الزجاجي
الأسود - فطحنوه وثقبوه وصقلوه ، واحتفرت الصوانات على نطاق
واسع ؛ فوجدت فى أحد محافر العصر الحجري الحديث ، فى مدينة براندن
بانجلترا ، ثمان حافرات من قرن الغزال ، ورويت على أسطحها المعفرة بصمات
العمال الذين وضعوها هناك منذ عشرة آلاف من السنين ؛ وفى بلجيكا
كشفت عن هيكل عظمى لعامل من عمال المناجم فى العصر الحجري
الحديث ، سقط عليه حجر فأرداه ، كُشف عنه ولا تزال الحفارة فى
قبضة يده^(٣٦) فعلى الرغم من مائة قرن تفصلنا عنه ، نحسّ كأنه واحد منا
ونشاطه بخيالنا الضعيف فزَعَه وآلامه ؛ فكم من آلاف السنين قضاه
الإنسان وهو يمزق أحشاء الأرض يستخرج الأسس المعدنية التى قامت
عليها المدنيّة !

فلما أن صنع الإنسان الإبر والدبابيس ، بدأ ينسج ، أو إن شئت فقل إنه لما
بدأ ينسج حرّكتته الضرورة إلى صناعة الإبر والدبابيس ؛ ذلك أن الإنسان لم
يعد يرضيه أن يدثر نفسه بفراء الحيوان وجلوده ، فنسج صوف خرافه وألياف
النبات أردية كانت هى أساس الثوب الذى يلبسه الهندوسى ، والشمّلة التى كان
يلبسها اليونانى ، والثوب الذى يغطى أسفل الجسم الذى كان يرتديه المصرى ،
وسائر الصنوف الخلابة التى تراها فى الثياب عند الإنسان ، ثم اصطنع الناس
صبغة استخرجوها صنوفا من أخلاط عصير النبات أو مستخرجات الأرض ،
وصبغوا بها الثياب لتكون علامة ترف ينفرد بها الملوك ؛ والظاهر أن الإنسان

أول ما نسج جعل يصفّر الخيوط على نحو ما يصفّر القشّ بأنه يجدل خيطاً مع خيط ؛ ثمّ انتقل بعد ذلك إلى نقّسب جلود الحيوان وربطها من هذه الثقوب بألياف غليظة تتخللها ، كالمشدّات التي كان يستعملها النساء حديثاً ، وكالأحذية التي نلبسها اليوم ؛ ثمّ أخذت الألياف تهذب تدريجاً حتى أصبحت خيط ، . وعندئذ أصبحت الحياكة من أهمّ الفنون عند المرأة ؛ فالمغازل إلى بين آثار العصر الحجري الحديث تكشف عن أصل من الأصول العظمى للصناعة الإنسانية بل إنك لتجد في هذه الآثار حتى المرايا (٣٧) ، وإذن فقد أصبح كل شيء معدّاً للمدينة .

ولم نجد آثاراً خزفية في قبور الجزء الأول من العصر الحجري العظيم ، وإنما ظهرت منه قطع قليلة في آثار الثقافة المجدلية في باجيككا (٣٨) ؛ لكنه العصر الحجري الحديث الذي خكّف لنا « فضلات المطبخ » هو الذي نجد في آثاره خزفاً على شيء من التقدم في الصناعة ؛ ونحن بالطبع لا نعلم كيف نشأت هذه الصناعة ؛ فيجوز أن قد لاحظ الإنسان البدائي أن الفجوة التي تصنعها قدمه في الطين ، كانت تحتفظ في جوفها بالماء دون أن يتسرب (٣٩) ؛ ويجوز أن قد شاءت المصادفة أن تلتقى قطعة من الطين إلى جانب نار موقدة فتجف ، فتوحى بجفافها هذا إلى الإنسان الأول بالفكرة التي أفرزت في النهاية هذا المخترع ، وكشفت له عما يمكنه استغلاله من هذه المادة التي توجد بكثرة ، والتي تطاوع يده في تشكيلها ، والتي يسهل تجفيفها في النار أو الشمس ؛ ولا شك في أن الإنسان قد لبث آلاف السنين يحفظ طعامه وشرابه في آنية طبيعية كهذه ، إلى جانب كؤوس القترع وجوز الهند وقواقع البحر ؛ ثم صنع لنفسه أقداحاً ومغارف من الخشب أو الحجر ؛ كما صنع السلال والمقاطف من الخلفاء والقش ، وهاهو ذا قد صنع لنفسه كذلك آنية أديم بقاء من الطين الخفيف وبه ابتدع مخترعاً جديداً يعدّ من أعظم الصناعات التي عرفها الإنسان ، لكن إنسان العصر الحجري

الحديد لم يعرف عجلة الخزّاف ، فيما تدل الآثار الباقية لنا ؛ إنما صنع بيديه هذا الطين أشكالا ذات جمال ونفع في آل معاً ؛ وزخرف الآنية برسوم ساذجة^(٤٠) وهكذا جعل صناعة الخزف منذ بدايتها تقريباً لا تقف عند حد كونها صناعة فحسب ، بل جعل منها فناً كذلك .

وها هنا كذلك نجد العلامات الأولى لصناعة أخرى من كُبرى الصناعات الأولى : صناعة البناء ؛ فإنسان العصر الحجري القديم لم يخلف لنا أثراً كائناً ما كان لمسكن غير الكهوف ؛ حتى إذا ما بلغنا العصر الحجري الحديث ، ألفينا بعض وسائل البناء مثل السلم الخشبي والبكرة والرافعة والمنفصلة^(٤١) ؛ فقد كان « سكان البحيرة » نجارين مهرة يربطون أعمدة الخشب إلى أساس البناء بخوابير ثابتة من الخشب ؛ أو يصلونها وهي موضوعة رأساً لرأس ، أو يزيدها قوة بدق عوارض تتطلب معها على الجوانب ؛ وكانت أرضية الغرفة عندهم من الطين ، وجدرانها من الغصون المجدولة مغطاة بطبقة من الطين ، والسقف من اللحاء والقش والحلفاء والغاب ؛ ثم بمعونة البكرة والعجلة استطاع الإنسان أن ينقل مواد البناء من مكان إلى مكان ، وبدأ في وضع أساس ضخمة من الحجر لقراه ؛ وكذلك أصبح النقل صناعة من الصناعات ، فصُنعت الزوارق التي لا بد أن تكون قد ملأت البحيرات حركة ؛ ونُقِلت التجارة عبر الجبال وإلى القارات البعيدة^(٤٢) ، وأخذت أوروبا تستورد من البلاد النائية أحجاراً نادرة كالعينير والبشّم والحجر الزجاجي الأسود^(٤٣) وإنك لتجد في أصقاع مختلفة من الأرض تشابهاً في كلمات أو حروف أو أساطير أو خزف أو رسوم ، مما يدل على ما كان بين جماعات البشر قبل التاريخ من اتصال ثقافي^(٤٤)

ولو استثنينا الخزف ، وجدت أن العصر الحجري الحديد لم يخلف لنا فنا نستطيع مقارنة إلى ما كان عند إنسان العصر الحجري القديم من تصوير وصناعة تماثيل ؛ فهنا وهناك بين مشاهد الحياة في هذا العصر الحجري الحديث ،

من إنجلترا إلى الصين ، ترى أكواما مستديرة من الحجر ، أو أعمدة قائمة أو آثاراً ضخمة من البناء لا نعرف الغاية من بنائها ، كالتى تراها في « ستونهيئنج » أو « موربهان » ، والراجح أننا لن نعرف معنى هذه الآثار البنائية أو وظائفها ، وربما كانت بقايا مذابح للقرابين أو معابد^(٥٥) ذلك لأن إنسان العصر الحجري الجليد لا بد أن قد كانت له ديانات وأساطير يصور بها ما يعتور الشمس كل يوم من أساة ونصر ، وما تصيب التربة من موت وبعث ، كما يصور بها تأثير القمر تأثيراً عجبياً على الأرض ، إنه ليستحيل علينا أن نفهم عقائد الإنسان في عصور التاريخ بغير افتراض أصول كهذه تمتد إلى ما قبل التاريخ^(٥٦) ؛ ويجوز أن يكون ترتيب الأحجار في هذ الأبنية نتيجة لاعتبارات فلكية ، ويدل على معرفتهم بالتقويم - كما يظن « شنيدر » Shneider^(٥٧) ، وكان للناس في ذلك العصر أيضاً بعض المعرفة العلمية، لأن بعض الجماجم من العصر الحجري الجليد وجدت بها آثار ترْبِنَتَه ، وبعض الهياكل العظيمة فيها أعضاء يظهر أنها كُسِرَت ثم جُبِرَت^(٥٨)

ليس في وسعنا أن نقدر ما أدّاه الإنسان فيما قبل التاريخ تقديراً تاماً ، لأننا من جهة لا ينبغي أن ننساق وراء الخيال في تصوير حياتهم بحيث نجاوز ما تبرره الشواهد ، ولكننا قد نشكّ من جهة أخرى أن الدهر قد محأ آثاراً لو بقيت لضيقّت مسافة الحُلف بين الإنسان الأول والإنسان الحديث ، ومع ذلك فما قد بقي لنا من أدلة على خطوات التقدم التي خطاها إنسان العصور الحجرية ، يكفي وحده لتقديره : فحسبنا - ما تم في العصر الحجري القديم من صناعة الآلات واكتشاف النار وتقديم الفنون ، وحسبنا ما ظهر في العصر الحجري الحديث من زواعة وتربية حيوان ونسج وخزف وبناء ونقل وطب . وسيادة الإنسان على الأرض سيادة لم يعمد منازعاً فيها ، والتوسع في عمرانها بأبناء الجنس البشرى ؛ هكذا وُضعت للمدنيّة كل أساسها ؛ كل شيء قد تم إعداده للمدنيات التاريخية إلا المعادن (فيما نظن) والكتاب والدولة ؛ فهياً للإنسان سبيلاً لتسجيل أفكاره وأعماله ، بحيث يمكن نقلها كاملة آمنة من جيل إلى جيل ، تبدأ له المدنيّة .

الفصل الخامس

مرحلة الانتقال إلى العصور التاريخية

١ - ظهور المعادن -

النحاس - البرونز - الحديد

متى وكيف بدأ الإنسان استخدام المعادن؟ لسنا ندرى ، نقولها هنا مرة أخرى ؛ وكل ما نستطيعه هو أن نقول على سبيل الظن^١ إنه بدأ بفعل المصادفة، ونفترض أن قد كانت بداية ذلك في نهاية العصر الحجري الحديث ، ويؤيدنا في ذلك عدم ظهوره فيما وجدناه من آثار العصور السابقة لذلك التاريخ ؛ فلو حددنا هذا التاريخ بسنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد أو نحوها ، أبصرنا أمامنا صورة لعصر المعادن (والكتابة والمدنيّة) لا تمتد إلى أكثر من ستة آلاف عام ، نراها بمثابة الذيل الصغير الذي أعقب عصرًا حجريًا امتد على وجه الدهر أربعين ألف عام على أقل تقدير ، أو أعقب عمرًا طويلًا عاشه الإنسان مداه مليون عام^(*) ؛ ألا ما أحدث العهد الذي يدوّنه لنا التاريخ .

كلن النحاس أول معدن يلين لاستخدام الإنسان فيما نعلم ؛ فنجدّه في مسكن من « مساكن البحيرة » عند « روبنهاوزن » في سويسره ، ويرجع ذلك إلى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً^(١) ونجدّه أيضاً في أرض الجزيرة (بين دجلة والفرات) من عهد ما قبل التاريخ ، ويرجع إلى سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً ؛ ثم نجدّه في مقابر البدارى في مصر ، ويرجع عهده إلى ما يقرب من سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، ونجدّه كذلك في آثار « أور » التي ترجع إلى سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد

(*) ذلك إذا وافقنا على أن « إنسان بكين » يرجع إلى بداية العصر البليستوسين .

تقريباً ، وفي آثار « بناء الجبال » في أمريكا الشمالية ، التي ترجع إلى عصر
لأنستطيع تحديده (٥٠) وليست تقع بداية عصر المعادن عند تاريخ اكتشافها ،
بل يبدأ ذلك العصر بتحويل المعادن بوساطة النار والطرق بحيث تلائم غايات
الإنسان ؛ ويعتقد علماء المعادن أن أول استعداد للنحاس من مناجمة الحجرية
جاء بفعل المصادفة حين أذابت ناراً أوقدها الناس لبستدفئوا ، نحاساً كان
لاصقاً بالأحجار التي أحاطوا بها النار ؛ ولقد لوحظت أمثال هذه المصادفة
مرارا في اجتماعات البدائيين حول نارهم في عصرنا هذا ؛ ومن الجائز أن
تكون هذه الحادثة العابرة هي التي أدت بالإنسان الأول في نهاية الأمر
- بعد تكرارها مرات كثيرة - ذلك الإنسان الذي لبث أمدا طويلا لايساوره
القلق في استعمال الحجر الأصم الصليب ، أن يجعل من هذه المادة المرنة
عنصرا يتخذ منه آلاته وأسلحته ، لأنها أيسر من الحجر صياغة وأدوم
بقاء (٥١) ؛ والأغلب أن يكون المعدن قد استعمل بادئ ذي بدء بالصورة
التي قدمته عليها يد الطبيعة ، ولإنها ليست فيها سخاء وبها إهمال في آن واحد ؛
فكان نقياً حيناً ، مشوباً في معظم الأحيان ثم حدث بعد ذلك بزمن طويل
- وربما كان ذلك حول سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد - في المنطقة التي تحيط
بالطرف الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، أن وقع الناس على فن صهر
المعادن واستخراجها من مناجمها ؛ ثم بدءوا في صبها نحو سنة ١٥٠٠ قبل
الميلاد (كما تدل على ذلك النقوش البارزة في مقبرة رخ - مارا في مصر) ؛
فكانوا يصيئون النحاس المصهور في إناء من الطين أو الرمل ، ثم يتركونه يبرد
على صورة يريدونها ، مثل رأس الرمح أو الفأس (٥٢) ؛ فلما أن كشف الإنسان
عن هذه العملية في النحاس ، استخدمها في مجموعة منوعة من المعادن الأخرى ؛
وبهذا توفر للإنسان من العناصر القوية ما استطاع به أن يبني أعظم ما يعرف
من ضروب الصناعة ، وتهيأ له الطريق إلى غزو الأرض والبحر والهواء ؛
ومن الجائز أن تكون كثرة النحاس في شرق البحر الأبيض المتوسط

هى التى سببت قيام ثقافات جديدة قوية فى الألف الرابع من السنين قبل الميلاد ، فى « عيلام » و « ما بين النهرين » ومصر ، ثم امتدت من هاتيك الأصبغاع إلى سائر أجزاء المعمورة فبدلتها حالا بعد حال (٥٣) .

غير أن النحاس وحده ليس ، فهو على الرغم من شدة صلاحيته للتشكيل مما ينفع فى تحقيق طائفة من أغراضنا (ماذا كان يصنع عصرنا الكهربائى بغير نحاس ؟) إلا أنه أضعف من أن يحتمل مهام السلم والحرث التى تتطلب معدنا أقوى ؛ لهذا كان لابد من عنصر آخر يضاف إلى النحاس ليشد من صلابته ، ورغم أن الطبيعة قد أشارت إلى الإنسان بما عسى أن يضيفه إلى النحاس لهذه الغاية من مواد كثيرة الأنواع ، بل إن الطبيعة كثيراً ما قدمت له نحاسا تم بالفعل خلطه واشتدت صلابته بما فيه من قصدير وزنك ، مكوّنةً بذلك برونزا طبيعيا أو نحاسا أصفر ، على رغم هذه المعونة من الطبيعة ، فقد لبث الإنسان - فيما نظن - قرونا قبل أن يخطو الخطوة الثانية فى هذا الصدد ؛ وأغنى بها خلط معدن بمعدن خلطا مدبّرا مقصودا للحصول على مركبات أصحح لأغراضه ؛ وعلى كل حال فهذا الكشف قد اهتدى إليه الإنسان منذ خمسة آلاف عام على أقل تقدير لأننا وجدنا البرونز بين الآثار الكريتية التى ترجع إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وفى الآثار المصرية التى ترجع إلى سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد ، وفى ثانى مدن طرواده سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد (٥٤) ؛ فلم يعد - إذن - فى وسعنا أن نتحدث عن « عصر البرونز » بمعنى الكلمة الدقيق ، لأن هذا المعدن قد ظهر لشعوب مختلفة ، فى عصور مختلفة ، وإذن فعبارة « عصر البرونز » ليس لها معنى زمنى توديه (٥٥) أضف إلى ذلك أن بعض الثقافات الإنسانية قد عبّرت مرحلة البرونز لم يتخطها ، بل وثب رأسا من عصر الحجر إلى عصر الحديد ، كما هى الحال فى ثقافات فنلندة وشمال روسيا وپولنيزيا وأفريقيا الوسطى وجنوب الهند وشمال أمريكا وأستراليا واليابان (٥٦) ؛ بل إن الثقافات التى ظهرت فيها مرحلة البرونز ، لم يحتل فيها هذا

المعدن إلا مكانة ثانوية ، باعتباره ترفاً يتمتع به الكهنة وعلية الناس والملوك ، على حين ظل غمار الشعب مرغماً على الوقوف عند مرحلة الحجر لا يجاوزها^(٥٧) وحتى عبارتا « العصر الحجري القديم » و « العصر الحجري الحديث » فهما نسبيتان إلى حد كبير ، وتصفان صوراً من الحياة أكثر مما تحددان أزماناً وعصوراً فإلى يومنا هذا يعيش كثير من الشعوب البدائية في عصرنا الحجري (مثل الإسكيمو وسكان جزاير بولنيزيا) لا يعرفون الحديد في حياتهم إلا على أنه ترفٌ يجيئهم به الرحالة المستكشفون من خارج ؛ فعندما أرسى « الكابتن كوك » سفنه في زيلنده الجديدة سنة ١٧٧٨ ، اشترى بضعة خنازير بمسار ثمنه ستة بنسات (قرشان ونصف قرش) ، ووصف رحالة آخر سكان « جزيرة الكلب » بأنهم « في حاجة نهجسة للحديد ، حتى لتحديثهم أنفسهم أن ينزغوا المسامير من السفن »^(٥٨)

ولئن كان البرونز قوياً شديداً الاحتمال ، إلا أن النحاس والقصدير اللازمين لصناعته لم يكونا من الكثرة في الكمية أو في أماكن وجودهما بحيث يجد الإنسان حاجته من أجوده صنفاً لشئون الصناعة والحرب ؛ فكان لا بد للحديد أن يظهر عاجلاً أو آجلاً ؛ وإنه لمن متناقضات التاريخ ألا يظهر الحديد - على وفرته - إلا بعد أن ظهر النحاس والبرونز ؛ وربما بدأ الناس استخدام الحديد بصناعة الأسلحة من حديد الشهب ، كما قد صنع « بنساءُ الجبال » - فيما يظهر - وكما يفعل بعض البدائيين حتى يومنا هذا ؛ ويجوز أن يكون الناس قد عقّبوا على ذلك بإذابة المعدن من منجمه بوساطة النار ، ثم طرقوه إلى حديد مشغول ؛ ولقد وجدنا ما يشبه أن يكون حديداً شهابياً في المقابر المصرية قبل عهد الأسرات المالكة ؛ وتذكر النقوش البابلية الحديد على أنه سلعة نادرة ثمينة في عاصمة حواري (٢١٠٠ قبل الميلاد) ؛ وكشفنا عن مسسبك للحديد قد يرجع عهده إلى أربعة آلاف عام ، في روديسيا الشمالية ، كما أن استنجام الحديد في جنوب أفريقيا

ليس وليد العصور الحديثة ؛ وأقدم حديد مشغول مما نعرف ، مجموعة من المُدَى وُجِدَتْ في « جيرار » في فلسطين ، حَدَدَ « پترى » تاريخها بسنة ١٣٥٠ قبل الميلاد ؛ ثم ظهر الحديد بعد ذلك بقرن كامل في مصر ، في عهد الملك العظيم رمسيس الثاني ؛ وبعد ذلك بقرن آخر من الزمان ، ظهر في جزر بحر إيجة ؛ وأما في غرب أوروبا فقد ظهر في « هولستات » Holistatt بالنمسا حوالى سنة ٩٠٠ قبل الميلاد ، كما ظهر في صناعة مدينة « لاتين » La Tène في سويسرا حول سنة ٥٠٠ قبل الميلاد ؛ وقد عرفته الهند حين أدخله فيها الإسكندر ، وعرفته أمريكا على يدى كولمبس ، كما عرفته أوشيانيا بفصل « كوك » (٥٩) ؛ ومهذه السرعة الوثيدة الخطى ، طفق الحديد ، قرناً بعد قرن ، يطوف بالعالم ليغزوه .

٢ - الكتابة

أصولها الخرفية الممكنة - « رموز البحر الأبيض المتوسط » - الكتابة الهيروغليفية - أحرف الهجاء

لكن أوسع خطوة خطاها الإنسان في انتقاله إلى المدنية هي الكتابة ؛ ففي قطع من الخزف هبطت إلينا من العصر الحجري الثاني ، خطوطٌ مرسومة بالألوان فسّرَها كثير من الباحثين على أنها رموز (٦٠) ؛ وقد يكون هذا موضعاً للشك ، لكنّه من الجائز أن تكون الكتابة - بمعناها الواسع الذى يدل على رموز من رسوم تعبّر عن أفكار - قد بدأت بعلامات مطبوعة بالأظفار أو بالمسامير على الطين وهو لئس ؛ بغية زخرفته أو تمييزه بعد أن تتم صناعته خزفاً ؛ ففي أقدم كتابة هيروغليفية في « سومر » توحى صورة الطائر بأوجّه شبه بينها وبين الزخارف الطائرية الموجودة على أقدم الآثار الخرفية عند « سوزا » في « عيلام » ، كذلك أقدم صورة للغلال مما استُخدم في الكتابة التصويرية ؛ نقلتُ رأساً من الزخارف العنقالية الهندسية الأشكال في « سوزا » و « سومر » ؛

والأحرف المستقيمة الخطوط التي ظهرت بادئ الأمر في « سومر » حول سنة ٣٦٠٠ ق . م إن هي - فيما يظهر - لإصورة مختصرة من الرموز والرسوم المصورة أو المطبوعة على الخزف البدائي في الجزء الأدنى من بلاد ما بين النهرين أو في « عيلام » (١٦٠) ؛ وإذن فالكتابة - شأنها شأن التصوير والنحت - قد تكون في نشأتها فناً خزفياً إذ بدأت ضرباً من ضروب النقش والرسم ؛ وبذلك تكون الطينة نفسها التي استحالت في يد الخزاف آتية ، وفي يد النحات تماثيل ، وفي يد البناء آجرًا ، قد هيأت للكاتب مادته التي يخط عليها كتابته ؛ وطريق التطور من هذه البداية إلى الكتابة المسهارية في بلاد ما بين النهرين ، منطقيُّ المراحل مفهوم التدرج .

وأقدم الرموز التصويرية المعروفة لدينا هي تلك التي وجدها « فليندرز پتري » Flinders Petrie على قطع الفيخار وآبنته وعلى قطع من الحجر ، مما كشف عنه في مقابر ما قبل التاريخ ، في مصر وإسبانيا والشرق الأدنى ، ولقد حددَ عمرها بسخائنه المعهود في تقدير الأعمار ، بسبعة آلاف عام ؛ وهذه الرموز الكتابية التي وجدت في حوض البحر الأبيض المتوسط ، تبلغ ما يقرب من ثلاثمائة رمز ، معظمها متشابه في جميع الأرجاء ، مما يدل على علاقات تجارية قامت بين طرفي البحر الأبيض المتوسط في عهد يرجع في التاريخ إلى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد ؛ ولم تكن هذه الرموز صوراً ، بل كان معظمها علامات تجارية - علامات تدل على الملكية والكمية أو غير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجاري ؛ فلئن كان هذا الأصل المتواضع مما يؤدى الطبقة الوسطى من الأغنياء ، فإن لهم ما يعزيهم في أن الأدب قد اشتق أصوله من « فواتير » الحساب ومن شحنات المراكب ؛ ولم تكن العلامات حروفاً ، لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة أو فكرة بأسرها ، ومع ذلك فمعظمها كان شديد الشبه بأحرف الهجاء الفينيقية ؛ ويستنتج « پتري » من ذلك أن « مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئاً فشيئاً في العصور الأولى لأغراض شتى ، فقد تبودلت مع التجارة ، وانتشرت من قطر إلى

قطز ... حتى كتب النصر لنحو ستة رموز ، فأصبحت ملبكاً مشاعاً لطائفة من هيئات التجارة ، بينما أخذت سائر الأشكال التي اقتصر استعمالها على قطر واحد دون بقية الأقطار ، تموت في عزلتها شيئاً فشيئاً (٦١) والنظرية القائلة بأن هذه العلامات الرمزية هي أصل الأحرف الهجائية ، جديرة بالاهتمام ، وهي نظرية امتاز الأستاذ « پترى » بأنه يعتنقها دون سائر العلماء (٦٢).

ومهما يكن من أمر تطور هذه الرموزية التجارية الأولى ، فلقد سايرها جنباً إلى جنب ضرب من الكتابة كان فرعاً من الرسم والتصوير ، وكان يعبر بالصور عن فكر متصل ، ولا تزال صخور بالقرب من البحيرة العليا (بحيرة سوپيرير) تحمل آثاراً من الصور الغليظة التي استخدمها هنود أمريكا في روايتهم لقصة عبورهم هذه البحيرة الجبارة رويها للخاف ، أوربما رويها لزملائهم ، رواية يعبرون فيها عن زهوهم بما صنعوا (٦٣) ؛ كذلك يظهر أن تطوراً كهذا نتقل الرسم إلى كتابة في أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط عند نهاية العصر الحجري الحديث ؛ وقيماً أنه ما جاءت سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد - وقد يكون قبل ذلك التاريخ بزمن طويل - حتى كانت « عيلام » و « سومر » ومصر قد طوّرت مجموعة من الصور التي يعبرون بها عن أفكارهم ، وأطلقوا عليها اسم « الكتابة الهيروغليفية » لأن معظم من قام بها كان من الكهنة (٦٤) وظهرت مجموعة أخرى من هذه الصور شبيهة بتلك ، في كريت حول سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد ؛ وسنرى فيما بعد كيف استحالت هذه الكتابة الهيروغليفية التي تمثل كل صورة منها فكرة ، كيف استحالت بخطأ الاستعمال ، ثم بما تناولها من تنسيق وتنظيم عرفي ، إلى مقاطع . أعنى إلى مجموعة من الرموز يدل كل منها على مقطع ؛ ثم كيف استخدمت العلامات آخر الأمر لا لتدل على المقطع كله ، بل على أول ما فيه من أصوات . وبهذا أصبحت حروفاً ؛ وربما كان تاريخ هذه الكتابة الهيروغليفية يرتد في التاريخ إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد في مصر ، وأما في كريت فقد ظهرت

حول سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد^(٦٥) ؛ إن الفينيقيين لم يخلقوا أحرف الهجاء ، ولكنهم اتخذوا منها سلعة للبيع والشراء ؛ فقد أخذوها - فيما نظن - من مصر وكريت^(٦٦) وأدخلوها جزءاً جزءاً في « صور » و « صيدا » و « بيلوس » Byblos ، ثم أصدروها إلى كل مدينة من مدن البحر الأبيض المتوسط ؛ وهكذا كانوا سماسرة لأحرف الهجاء يأخذونها من أصحابها ليذيعوها ، ولم يكونوا مبدعيها حتى إذا ما كان عصر هومر ، كان اليونان يأخذون هذه الأحرف الفينيقية - أو قلّ الأحرف التي اتحدت في خلقها الآراميون جميعاً - وكانوا يطلقون عليها الاسمين الساميين للحرفين الأولين (وهما : ألفا ، بيتا ؛ وبالعبرية أَلِف ، بيت)^(٦٧) .

فالظاهر أن الكتابة من نتائج التجارة ، وهي إحدى وسائل التجارة المسبّلة لأمرها ، فها هنا أيضاً ترى الثقافة كم هي مدينة للتجارة ؛ ذلك أنه لما اصطنع الكهنة لأنفسهم مجموعة من رسوم يكتبون بها عباراتهم السحرية والطقوسية والطبية ، اتحدت الطائفتان : الدنيوية والدينية ، وهما طائفتان متنازعتان عادة ، اتحدتا مؤقتاً لتعاوننا على إخراج أعظم ما أخرجته الإنسانية من مخترعاتها منذ عرف الإنسان الكلام ؛ نستطيع أن نقول إن تطور الكتابة هو الذي كان يخلق الحضارة خلقاً ، لأن الكتابة هيأت وسيلة تسجيل المعرفة ونقلها كما كانت وسيلة لازدهار العلم وازدهار الأدب ، وانتشار السلام والنظام بين القبائل المتنافرة ، لكنها متصلة على تنافرها ، لأن استخدام لغة واحدة أخضعها جميعاً لدولة واحدة ؛ إن بداية ظهور الكتابة هي الحد الذي يُعيّن بداية التاريخ ، تلك البداية التي يتراجع عندها كل اتسعت معارف الإنسان بآثار الأولين .

٣ - المدينيّات المفقودة

بولينزيا - أطلانتس

ما دمنا الآن قد دنونا من تاريخ الأمم المتحضرة ، فلا بد لنا أن نلاحظ أننا سنكتفى من كل ثقافة نعرضها بجزء يسير نختاره منها ، وليس ذلك فحسب ، بل قد لا نتناول بوصفنا لإعداداً قليلاً من المدينيّات التي يجوز أن تكون قد قامت قوائمها يوماً على الأرض ؛ فلبس في وسعنا أن نُصمّم آذاننا فلا نسمع هذه الأساطير التي لم تنقطع روايتها طوال عصور التاريخ ، عن مدينيّات كانت ذات يوم عظيمة عالية الثقافة ، ثم حلت بها كارثة من كوارث الطبيعة أو الحرب فحطمتها تحطياً لم يُبْق منها ولم يُدْر ، فإن حفائرنّا الحديثة في مدينيّات كريت وسومر ويقطان تدل كلها على مدى احتمال الصدق في هذه الأساطير

ففي المحيط الهادى آثار مدينيّة واحدة على الأقل من هذه المدينيّات الضائعة ؛ فالتمائيل الضخمة في جزيرة « إبيستر » ، وما يرويه الرواة في بولينزيا عن أم قوية ومقاتلين أبطال كانوا ذات يوم يكتبون المجد لساموا وتاهيتي ؛ ثم ما لسكانها من قدرة في الفن وحساسية في الشعر ، كل ذلك يدل على مجد ذاهب ، يدل على شعب لا يبدأ اليوم نهوضه ليأخذ في الحضارة ، بل يتدهور من منزلة عالية كان ينزلها ، وفي قاع المحيط الأطلسي ، يمتد جزء مرتفع تحت الماء (*) من ايسلنده شمالاً إلى القطب الجنوبي ، فينهض دليلاً جديداً يؤيد هذه الأسطورة التي نقلها إلينا أفلاطون (٦٨) في صورة جذابة بخلاصة الأسطورة التي تروى عن حضارة ازدهرت يوماً على قارة محاطة بالماء بين أوروبا وآسيا ، ثم ضاعت بين عشية وضحاها حين ارتجّت الأرض ارتجاجاً فابتلع اليمُّ تلك القارة في جوفه ابتلاعاً ؛ ويعتقد « سليمان »

(*) هناك هضبة تحت سطح البحر بمسافة تتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف متر ، تمتد وسط المحيط الأطلسي من الشمال إلى الجنوب ، يحيط بها من الجانبين أعماق من الماء تتراوح من حسه آلاف إلى ستة آلاف متر

— الذى بعث طروادة بعد موت — أن قارة أطلنطس كانت بمثابة حلقة اتصال بين ثقافتى أوروبا وبقطان ، وأن مصر كانت قد استمدت حضارتها من أطلنطس هذه (٦٩) ولعل أمريكا نفسها أن تكون هى أطلنطس وأنها كانت ذات حضارة قديمة متصلة بحضارات أفريقيا وأوروبا فى العصر الحجري الحديث ؛ ويجوز أن كل كشف جديد يقع عليه الإنسان اليوم ، هو كشف للمرة الثانية ، سبقه فى العصر السالف كشف أول .

لاشك أنه من الجائز — كما ظن أرسطو — أن يكون العالم قد شهد مدنات كثيرة ، وصلت إلى كثير من المخترعات وأسياب الترف ثم أصابها الدمار وزالت من ذاكرات البشر ؛ ويقول « بيكُنْ » عن التاريخ إنه حطام سفينة ، إذ ضاع من الماضى أكثر مما بقى ؛ وإننا لنجد العزاء عن هذا الضائع فى رأى القائل بأنه كما أن ذاكرة الفرد لا بد أن تنسى الجزء الأعظم مما يصادفه فى خبرته من حوادث ، لكنى يحتفظ الفرد بقوته العاقلة ، فكذلك الجنس البشرى كله لم يحتفظ فى تراثه إلا بأنصع وأقوى ما مرّ به من تجارب ثقافية — أم هل استمد هذا المحفوظ نصوعه فى الذاكرة وقوته لأنه وحده ما أجدت الذاكرة الاحتفاظ به ؟ — ومهما يكن من الأمر تراثنا الذى نعيه ، فحتى لو لم يكن إلا عَشْرَ ما مرّ بالإنسان من تجارب ، فليس فى وسع إنسان أن يلمّ به كله ؛ وسنجد قصة الإنسان رغم ذلك كله مليئة مترعة بما يكفى .

٤ - مهود المدنية

آسيا الوسطى - أناو - خطوط الانتشار

لأنه من المناسب أن نختتم هذا الفصل الذى ملأناه بأسئلة لا يمكن الجواب عنها ، بهذا السؤال : « أين بدأت المدنية ؟ » — وهو كذلك سؤال يعزّ على الجواب ؛ فلو أخذنا بما يقوله الحيولوجيون الذين يعنون فى أبحاثهم عما قبل التاريخ بظباب أين منه شطحات الميتافيزيقا ؛ لو أخذنا بما يقولونه ، لكانت المناطق

القاحلة في آسيا الوسطى ذات ماضٍ فيه ماء وفيه اعتدال في حرارة الجو ، وفيه ما يُزهره من بحيرات عظيمة وأنهار كثيرة (٧٠) ، تراجمت عنها آحر الموجات الجليدية ، فجفَّت شيئا فشيئا حتى لم يعد ما يسقط على ذلك الإقليم من مطر كافيا لقيام المدن والدول ؛ فأخذت المدائن تفقر من أهلها واحدة ، في إثر واحدة ، حين هرب الناس غربا وشرقا وشمالا وجنوبا سعيا وراء الماء ؛ ولا تزال ترى أنقاض مدن مثل « باكترا » Bactrai غائصة في الصحراء إلى نصفها - ولا بد أن تكون « باكترا » هذه قد ازدحمت بسكانها في مساحتها التي يمتد قطر دائرتها اثنين وعشرين ميلا ؛ ولقد حدث في عهد جدِّ حديث - سنة ١٨٦٨ - أن اضطر عدد من أهل تركستان الغربية يقرب من ثمانين ألف نسمة ، أن يهاجر لأن الرمال الزاحفة قد غمرت موضعه من الأرض (٧١) وكثيرون يذهبون إلى أن هذه الأضلاع التي تسير اليوم في طريقها إلى الفناء ، قد شهدت أول خطوة أساسية من خطوات التقدم ، في هذا المزيج المؤلف من نظام وطعام وعرف وأخلاق وترف وثقافة ، والذي منه تتكون المدينة (٧٢) .

ولقد كشف « پمبيلي » سنة ١٩٠٧ في « أناو » جنوبي التركستان ، عن خزف وآثار أخرى تدل على ثقافة قديمة أرجعها إلى سنة ٩٠٠٠ قبل الميلاد ، وربما أسرف في تقديره هذا فزاد أربعة آلاف (٧٣) ؛ وها هنا نجد زراعة القمح والشعير والذرة ، واستخدام الناس واستئناس الحيوان ، وزخرفة الفخار بزخارف بينها من التشابه في قواعد الرسم ما يدل على أنهم كانوا قد جمعوا تقاليد ورياسة في الفنون لعدة قرون سلفت (٧٤) والظاهر أن ثقافة تركستان سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد كانت قد قطعت من الزمن أشواط ؛ وربما كان بينهم إذ ذاك مؤرخون يضربون في أعماق ما ضيهم عبثاً للبحث عن أصول المدينة ، وفلاسفة أخذوا يندبون بعبارة فصيححة ما أصاب الجنس البشري إذ ذاك من تدهور كان يؤدي به إلى الموت .

ولواهدينا بالخيال حيث يعزُّ علينا العلم الصحيح ، لقلنا إنه من هذا المركز

هاجر الناس - يلوذون فراراً مما أصاب أرضهم من جفاف في المطر وجفاف في تربة الأرض - فساروا في اتجاهات ثلاثة ، يحملون معهم ما لهم من فن ومدنية ؛ فبلغت فنونهم - إن لم يبلغوا بفصيلتهم - أرض الصين ومنشوريا وأمريكا الشمالية من جهة الشرق ؛ وبلغت شمال الهند في سيرها إلى الجنوب ؛ ثم أدركت في طريقها نحو الغرب بلاد « عيلام » و « سومر » ومصر ؛ بل لإيطاليا وأسيانبا كذلك (٧٥) ؛ فقد وجدت في « سوزا » وهي في « عيلام » القديمة (فارس الحديثة) آثار تشبه في نمطها آثار « أناو » شهياً يكاد يبرر للخيال الذي يعيد قوته صورة الماضي ، أن يفترض أنه قد كان بين « سوزا » و « أناو » صلات ثقافية في فجر المدنية (أى حول سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد) (٧٦) وكذلك يوجد شبهة كهذا في الفنون والمنتجات القديمة يوحى بوجود علاقة كهذه بين بلاد ما بين النهرين ومصر فيما قبل التاريخ ، وبوجود ارتباط يدل على اتصال مجرى المدنية .

ويستحيل عاينا أن نعلم علم اليقين أى هذه الثقافات جاء أولاً ، وليس ذلك بكبير الأهمية ، لأنها جميعاً كانت في جوهرها أفراد أسرة واحدة ونمط واحد ، فلو كان لنا أن نخالف الرأى الشائع الذى اكتسب احتراماً لقدمه ، بحيث نضع « عيلام » و « سومر » قبل مصر ، فلسنا نصدر في ذلك عن عبث يريد مخالفة المعروف لذاتها ، لكننا نعتمد على الحقيقة التى تدل على أن عمر هذه المدنات الآسيوية ، إذا قيس إلى مدنات أفريقيا وأوروبا ، يمتدّ طولاً كلما ازداد علمنا بتلك المدنات عمقا ؛ فمجاريف علماء الآثار بعد أن قضت قرناً كاملاً في بحثها المظفر على ضفاف النيل ، انتقلت في سيرها عبّر السويس إلى جزيرة العرب وإلى فلسطين وبين النهرين وفارس ، وهى كلما خَطَّتْ في طريقها هذا ، ازدادنا ترجيحاً مع تزايد المعرفة التى تعود علينا من أبحاثنا ، أن الدلتا الخصبية للأشهار التى تجرى في أرض الجزيرة (ما بين النهرين) هى التى شهدت أول مناظر المسرحية التاريخية للمدينة الإنسانية ، فيما نعلم .

المراجع *

1. Supplement to *Essai sur les moeurs*; quoted by Buckle, H. T., *History of Civilization*. i, 581.

الباب الأول

2. Robinson, J. H., art. Civilization, *Encyclopedia Britannica*, 14th ed.

الباب الثاني

1. Spengler O., *The Decline of the West; The Hour of Decision*.
2. Hayea, *Sociology*, 494.
3. Lippert, J., *Evolution of Culture*, 38.
4. Spencer, H., *Principles of Sociology*, 1, 60
5. Sumner and Keller, *Science of Society*, i, 51; Sumner, W. O., *Folkways*, 119-22; Renard, G., *Life and Work in Prehistoric Times*, 36; Mason O. T., *Origins of Invention*, 298.
6. *Ibid.*, 316.
7. Sumner and Keller, i 182.
- 8: Roth, H. L., in Thomas, W. I., *Source Book for Social Origins*, 111.
9. *Ibid.*; Mason. O. T., 190 : Lippert, 165.
10. Renard, 123.
11. Briffault, *The Mothers*, ii, 460.
12. Renard, 35.
13. Sutherland, G.A., ed , *A System of Diet and Dietetics*, 45.
14. *Ibid.* 33-4 : Ratzel, F., *History of Mankind*, i, 90.
15. Sutherland, G.A., 43,45, Müller Lyer, F., *History of Social Development*, 70.
16. *Ibid.*, 86.
17. Sumner, *Folkways*, 329 : Ratzel, 129 : Renard, 40-2; Westermarck, E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, i, 558-62.
18. Sumner and Keller, ii, 1234.
19. Sumner, *Folkways*, 239.
20. Renard, 40-2
21. Sumner and Keller, ii, 1230.
22. Briffault, ii, 999.
23. Sumner and Keller, ii, 1234.
24. Cowan, A. R., *Master Clans in World History*, 10.
25. Renard, 39.
26. Mason, O.T., 23.
27. Briffault, i, 461-5.
28. Mason, O. T., 224 f.
29. Müller-Lyer *Social Development*, 102.
30. *Ibid.*, 144-6.
- 30a. *Ibid.* 167; Ratzel 87.
31. Thomas, W. I., 118-7 Renard, 154-5, Müller, Lyer, 306 Sumner and Keller, i, 150-3.
32. Sumner, *Folkways*, 142.
33. Mason, O.T., 71.
34. Müller-Lyer, *Social Development*, 238-9, Renard, 158.
35. Sumner and Keller, i, 268-72.

(*) سنثبت اسم الكتاب كاملاً عند أول وروده في هذه القائمة ثم نكتفي بعد ذلك بذكره مختصراً.

- 300, 320; Lubbock, Sir J., *Origin of Civilization* 373-5; Campbell, Bishop R., in *New York Times*, 1-11-33.
36. Bücher, K. *Industrial Evolution*, 57.
37. Kropotkin, Prince P., *Mutual Aid*, 90.
38. Mason, O. T., 27.
39. Sumner and Keller, i, 270-2.
40. Briffault, ii, 494-7.
41. Sumner and Keller, i 328 f.
42. Lippert, 39.
43. *A Naturalist's Voyage Around the World*, 242, in Briffault, ii, 494.
- 43a. Westermarck, *Moral Ideas in* 35-42.
44. Hobhouse, L. T., *Morals in Evolution*, 244-5; Cowan, A. R., *Guide to World History*, 22; Sumner and Keller, i, 58.
45. Hobhouse, 272.

الباب الثالث

1. Sumner and Keller, i, 16, 418, 418, 461; Westermarck, *Moral Ideas*, i, 195-8.
2. Sumner and Keller, i, 461.
3. Rivers, W. H. R., *Social Organization*, 166.
4. Briffault, ii, 394, 494; Ratzel, 133; Sumner and Keller, 470-3.
5. *Ibid.*, 463, 473.
6. *Ibid.*, 370, 358.
7. Renard, 149 Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 886-9, Ratzel, 130, Hobhouse, 239, Sumner and Keller, i 18, 22, 366, 392, 394. 713.
8. Nietzsche, *Genealogy of Morals*, 103.
9. *American Journal of Sociology*, March, 1905.
10. Oppenheimer, Franz, *The State*, 16.
11. In Ross, F. A. *Social Control*, 50.
12. In Sumner and Keller, J, 704.
13. *Ibid.*, 70^a.
14. Cowan. *Guide to World History*, 18 f.
15. Sumner and Keller, i, 486.
16. Spencer, *Sociology*, iii, 316.
17. *Ibid.*, 66.
18. Melville, *Types*, 222, in Briffault, ii, 356.
19. Briffault, *ibid.*
20. Sumner and Keller, i, 687.
21. Lubbock, 320.
22. Hobhouse, 73-101, Kropotkin, *Mutual Aid*, 131; Thomas, W I., 301.
23. Sumner and Keller, i, 682-7.
24. For examples cf. Westermarck *Moral Ideas*, i, 14-6, 20.
25. Lubbock, 363-7; Sumner and Keller, i, 454, Briffault, ii, 499; Malne, Sir H., *Anthropology and Modern Life* 221.
26. Sutherland, A. *Origin and Growth of the Moral Instincts*, i, 4-5.
27. Sumner and Keller, iii, 1498, Lippert, 75, 659.
28. Sumner and Keller, iii, 1501.
29. *Ibid.*, 1500, Renard, 198, Briffault, ii, 518, 434.
30. Vinogradoff, Sir P., *Outlines of*

- Historical Jurisprudence*, i, 212,
Briffault, i, 503, 513.
31. Sumner, *Folkways*, 364.
32. Briffault, i, 508-9, Sumner and Keller, 540, iii, 1949, Rivers, *Social Organization* 12.
33. Moret and Davy, *From Tribe to Empire*, 40, Briffault, i, 308 Müller-Lyer, *The Family*, i, 24-7, Sumner and Keller, iii, 1939.
34. White, E. M., *Woman in World History*, 35, Briffault, i, 309, Lippert, 223, Sumner and Keller, iii, 1990.
35. Hobhouse, 170.
36. Müller-Lyer, *Family*, 118.
37. *Ibid.*, 232.
38. Sumner and Keller, iii, 1733.
39. Lubbock, 5.
40. Müller-Lyer, *Evolution of Modern Marriage*, 112.
41. Briffault, i, 460, Reuard, 101.
42. Briffault, i, 466, 478, 484, 489.
43. Ellis, H., *Man and Woman*, 316 Sumner, and Keller, i, 128.
44. *Ibid.*, iii, 1763, 1843, Ratzel, 134, Westermarck, *Moral Ideas* i, 235
45. Lubbock, 67.
46. Lubbock in Thomas, W. I, 108.
47. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 40, 629,
48. Crawley, E., *The Mystic Rose*, in Thomas, W. I, 515-7, 525
49. Westermarck *Moral Ideas*, ii, 638-46, Sumner and Keller, iii, 1737.
50. *Ibid.*, 1753.
51. Vinogradoff, i, 197, Müller-lyer *Social Development*, 108.

الباب الرابع

1. Darwin, C., *Descent of Man* 110.
2. Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, vi, 422.
3. Westermarck, E., *History of Human Marriage*, i, 32, 35
5. Sumner and Keller, iii, 1547 f. Further examples of sexual communion may be found in Briffault, i, 645, ii, 2-13, Lubbock, 68-9.
6. Müller-Lyer, *Family*, 55.
- 6a. *Encyclopedia Britannica*, xiii, 206.
7. Sumner and Keller, iii, 1548.
8. Briffault, ii, 81.
9. Lubbock, 69.
10. Lippert, 67.
11. Polo, Marco, *Travels*, 10.
12. Letourneau, *Marriage*, in Sumner and Keller, iii, 1521.
13. Westermarck, *Short History of Human Marriage*, 265, Müller-lyer, *Family*, 49, Sumner and Keller, iii, 1563, Briffault, i, 629 f.
14. *ibid.*, 649.
15. Sumner and Keller, iii, 1565.
16. Examples in Briffault, i, 767u, Sumner and Keller iii, 1901, Lippert 679.
17. Examples in Briffault, i, 441 f, 663, Vinogradoff, i, 173, Vinogradoff, i, 173.
18. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 387.
19. Briffault, ii, 315, Hobhouse, 140.
20. Müller-Lyer, *Modern Marriage* 347

21. Spencer, *Sociology*, i, 722 ;
Westermarck, *Moral Ideas*, i,
388 ; Sumner *Folkways*, 265,
361, Sumner and Keller, i, 22,
iii, 1863, Briffault, ii, 261, 267,
271.
22. Lowie, R.H., *Are We Civilized?*,
128.
23. Sumner and Keller, iii, 1534,
1540, Westermarck, *Moral Ideas*,
i, 399.
24. Gen., xxix. Similar customs
existed in Africa, India and
Australia, cf. Müller - Eyer,
Modern Marriage, 123,
25. Sumner and Keller, iii, 1625 - 6,
Vinogradoff, 209, further exam-
ples in Lubbock, 91, Müller-
Lyer, *Family*, 86, Westermarck,
Moral Ideas, i, 435.
26. Briffault, i, 244f.
- 26a. Lippert, 295, Müller-Lyer, *Social
Development*, 270.
27. Sumner and Keller, iii, 1631.
Briffault interprets this wedding
Custom as a reminiscence of
the transition from matrilineal
to patriarchal marriage-i, 240-50.
28. Hobhouse, 158.
29. Sumner and Keller, iii, 1629.
30. Briffault, ii, 244.
31. Müller-Lyer, *Modern Marriage*,
125.
32. Hobhouse 151, Westermarck,
Moral Ideas, 1650.
i, 388, Sumner and Keller, 1650.
33. Ibid., 1648.
34. Ibid., 1619. Herodotus (I, 196)
reported a similar custom in
the fifth century B. C., and
Burckhardt found it in Arabia
in the nineteenth century(Müller-
Lyer, *Modern Marriage*, 127).
35. Briffault, i, 219-21.
36. Lowie, *Are We Civilized ?*, 125.
3 . Briffault, ii, 215.
38. Sumner and Keller, iii, 1658.
39. in Lubbock, 53.
40. Ibid., 45 7, Sumner and Keller,
iii, 1508 - 8, Briffault, ii, 141-3.
41. Müller - Lyer, *Modern Marriage*,
51.
43. Briffault, ii, 70 f.
44. Briffault, ii, 2-13, 67, 70-2. Brif-
fault has gathered into a ten-
page footnote the evidence for
the wide spread of premarital
sexual freedom in the primitive
world. Cf. also Lowie. *Are We
Civilized ?* 123, and Sumner
and Keller, iii, 1553-7.
- 45 Ibid., 1556, Briffault, ii, 65,
Westermarck, 1, 441.
- 46 Lowie, 127.
47. Briffault, iii, 313, Müller-lyer,
Modern Marriage, 32.
48. Briffault ii, 222-3, Westermarck,
Short History, 13.
49. Sumner and Keller, iii 1682,
Sumner, *Folkways*, 358.
50. Ibid., 361, Sumner and Keller,
iii, 1674.
51. Ibid, 1554, Briffault, iii, 344.
52. S & K, iii, 1682.
- 52a. For examples cf. Westermarck.
Human Marriage, i, 580-45, or
Müller - Lyer *Modern Marriage*,
39-41.
53. Müller-Lyer, *Social Development*,
132-3, Sumner, *Folkways*, 439.
54. Briffault, iii, 260 f.
55. Ibid., 307, Ratzel, 98.

56. Sumner, *Folkways*, 450.
57. Reinach, *Orpheus*, 74.
58. cf. Briffault, ii, 112-7, Vinogradoff, 173.
59. S. & K., iii, 1528.
60. *Ibid.*, 1771.
61. *Ibid.*, 1677-8.
62. *Ibid.*, 1831.
63. Quoted in Briffault, ii, 76.
64. *Ibid.*, S & K, iii, 1831.
65. Müller-Lyer, *Family*, 102.
66. S & K, iii, 1890.
67. *Ibid.*; Sumner, *Folkways*, 314, Briffault, ii, 71, Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 413, E. A. Rouët, "Sex Hygiene 'of the New Zealand Maori'" In *The Medical Journal and Record*, Nov. 17, 1926, *The Birth Control Review*, April, 1932, p. 112.
68. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 394-401.
69. Lowie, *Are We Civilized?* 188.
70. Müller-Lyer, *Family*, 104.
71. S & K, i, 54.
72. Briffault, ii, 391.
73. Renard, 135.
74. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 383.
75. *Ibid.*, i, 290, Spencer, *Sociology*, i, 46.
76. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 88, S & K, i, 336.
77. Kropotkin, 90.
78. Lowie, *Are We Civilized?*, 141.
79. Instances in Thomas, W. I., 108, White, E. M., 40, Briffault, i, 453, Ratzel, 135.
80. Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 422, 678.
81. Hobhouse, 79, Briffault, ii, 853.
82. *Ibid.*, 185.
83. Thomas, W. I., 154.
84. Examples in S & K, i, 641-3.
85. Briffault, ii, 148-4.
86. *Ibid.*, 500-1, Kropotkin, 101, 105; Westermarck, *Moral Ideas*, ii, 539-40, Lowie, 141.
87. Hobhouse, 29; Spencer, *Sociology*, i, 69, Kropotkin, 90-1.
88. Müller-Lyer, *Modern Marriage*, 26; Briffault, i, 636.
89. *Ibid.*, 740.
90. Müller-Lyer 31.
91. Lowie, 164.
92. Westermarck, *Moral Ideas*, i, 150-1, Sumner, *Folkways*, 460.
93. *Ibid.*, 454.
94. *Ibid.*, 13 S & K, i, 358.
95. Kropotkin, 112-3, Briffault, ii, 357, 490, S & K, i, 659, Westermarck, ii, 556.
96. Strabo, *Geography*, 1, 2, 8.
96a. S & K, ii, 1419.
96b. *Ibid.*
96c. Briffault, ii, 510.
96d. Lippert, 6.
96e. Briffault, ii, 508.
97. Williams, H. S., *History of Science*, i, 15.
98. Briffault, ii, 645.
99. *Ibid.*, 657.
100. S & K, ii, 859; Lippert 115.
101. *Bṛihadaranyaka Upaniṣhad*, iv., 3: Davids, T. W. Rhys, *Buddhist India*, 252; Deussen, Paul, *The Philosophy of the Upaniṣhads*, 802.
102. Carpenter, Edward, *Pagan and Christian Creeds*, 80.
103. Powys, John Cowper, *The Meaning of Culture*, 180.
104. Briffault, ii 577, 538-92, 682.

105. Ibid., 147 ; Carpenter, 48.
 106. Jung, C. G., *Psychology of the Unconscious*, 173.
 107. Allen. O., *Evolution of the Ideas of God*, 237.
 108. Briffault, ii, 508-9.
 109. Frazer, Sir J. G., *The Golden Bough*, 1-v cd., 112, 115.
 110. De Morgan, Jacques, *Prehistoric Man* 249.
 111. Frazer, *Golden Bough*, 165-7.
 112. Jung, 173.
 113. Briffault, iii, 117.
 114. Ibid., ii, 592.
 115. Ibid., 481.
 116. Reinach, 19.
 117. Freud, S. *Totem' and Taboo*. For a criticism of the theory cf. Goldenwelser, A. A., *History, Psychology and Culture*, 201-8.
 118. Durkheim, É., *Elementary Forms of the Religious Life*.
 119. Briffault, ii, 468.
 120. Reinach, *Orpheus*, 1909 ed., 76, 81; Trade, G., *Laws of Imitation* 273-5; Murray, O., *Aristophanes and the War Party*, 23, 37.
 121. Spencer, *Sociology*, i, 406 ; Frazer, *Golden Bough* vii.
 122. Reinach, 1909 ed., 80.
 123. Ibid.
 124. Allen, 30.
 125. Examples in Lippr, 103.
 126. Smith, W. Robertson, *The Religion of the Semites*, 42.
 127. Hoernle, R. F. A., *Studies in Contemporary Metaphysics*, 181
 128. Reinach (1909). 111.
 129. Frazer, *Golden Bough*, 13.
 130. Frazer, *Adonis, Attis, Osiris*, 356.
 131. Briffault, iii, 196.
 132. Ibid., 199.
 133. Frazer, *Golden Bough*, 327, 432; Allen, 246.
 134. Georg. E., *The Adventure of Mankind*, 202.
 135. S & K, ii, 1252.
 136. Ibid.
 137. Sumner, *Folkways*, 836-9, 553-5.
 138. Ibid., 887 ; Frazer, *Golden Bough*, 489.
 139. Weatarmarck, *Moral Ideas*, 273, 376, 563
 140. Ratzel, 45.
 141. Reinach, 1930 ed., 23
 142. Ratzel, 183.
 143. 2 Sam. vi, 4-7.
 144. Diodorus Siculus, *Library of History*, 1, lxxxiv.
 145. Briffault, ii, 366, 387.
 146. Sumner, *Folkways*, 511.

الباب الخامس

1. Ratzel, 84 ; Müller-Lyer, *Social Development*, 50-3, 61.
 2. Ibid., 46-9, 54; Renard, 57; Robinson, J. H. ; 735 710 ; Francé, A., *M. Bergeret a Paris*.
 3. Lubbock, 227, 339, 342f.
 4. Müller, Max, *Lectures on the Science of Language*, i, 360.
 5. Tylor, E. B., *Anthropology*, 125,
 6. Müller, *Science of Language* i, 265, 303n; ii 39.
 7. Venkateswara, S. V., *Indian Culture through the Ages*, Vol. 1, *Education and the Propagation of Culture*, 6 ; Ratzel, 31.
 8. White J. A., *Mechanisms of Character Formation*, 83,
 9. Lubbock, 353-4

10. Briffault, i, 106.
11. *Ibid.*, 107; Russell, B., *Marriage and Morals*, 243.
12. S & K i, 554.
13. Briffault, ii, 190.
14. *Ibid.*, 192-3.
15. Lubbock, 35.
16. Maspero, G., *Dawn of Civilization*, quoted in Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, 39.
17. Lubbock, 299.
18. Masson, W. A., ch. ii; Lubbock, 85.
19. Masson, W. A., 146-54.
20. Briffault, i, 18.
21. Spenceer, *Sociology*, iii, 218-26.
22. Mason, W. A., 149; further Examples in Lowie, 202.
23. Spencer, *Sociology*, iii, 247 f.
24. Tylor, *Primitive Culture*, i, 243-8, 261, 266, Lubbock, 299.
25. Thoreau, H. D., *Walden*.
26. Briffault, ii, 601.
27. Mason, O. T., in Thomas, *Source Book*, 866.
28. Briffault, 485.
29. Examples in Lowie, *Are We Civilized?*, 260.
- 29a. *Maff.*, viii., 28.
30. Lowie, 250, S & K, ii, 979, Spencer, *Sociology* iii, 194, Garrison, F. H., *History of Medicine*, 22, 33, Harding, T. Swann, *Fads, Frauds and Physicians*, 148.
31. Garrison, 26.
32. Maret, H. R., *Hibbert Journal*, Oct. 1918, Carpenter, *Pagan and Christian Creeds*, 167.
33. Lowie, 247.
34. In Garrison, 45.
35. Briffault, ii, 157-8, 162-3.
36. Darwin, *Descent of Man*, 660.
37. Briffault, ii, 176.
38. Spencer, i, 65, Ratzel, 95.
39. Grosse, E., *The Beginnings of Art*, 55-68, Pijoan, J., *History of Art*, i, 4.
40. Grosse, 58.
41. Renard, 91.
42. Lubbock, 45.
43. Ratzel, 105.
44. Lubbock, 51; Grosse, 80.
45. *Source Book*, 555.
46. Grosse, 70, Lubbock, 46-50.
47. Georg, 104.
48. Grosse, 81.
49. Briffault, ii, 161.
50. Grosse, 83.
51. Ratzel, 95.
52. Müller-Lyer, *Social Development*, 142.
53. Grosse, 83.
54. *Ibid.*
55. Briffault, ii, 297.
56. Ratzel in Thomas, *Source Book*, 557.
57. Lowie, 80.
58. Sumner *Folkways*, 187.
59. *Enc. Brit.*, xviii, 873.
60. Mason, O. T., 156, 164.
61. *Ibid.*, 25.
62. Pijoan, i, 12.
63. *Ibid.*, 8.
64. Spencer, iii, 294-304, Ratzel, 47.
65. Renard, 56.
66. Pratt, W. S., *The History of Music*, 26-31.
67. Grosse, E., in Thomas, *Source Book*, 556.

الباب السادس

2. Osborn H. F, *Men of the Old Stone Age*, 28.
3. N. Y. Times, July 31. and Nov. 5, 1931.
4. Lull, *The Evolution of Man*, 26.
5. Sollas, W. J., *Ancient Hunters*, 438-42.
6. Keith, Sir A., N.Y. Times, Oct. 12, 1930.
7. De Morgan, J., *Prehistoric Man*, 57-8.
8. Pittard, Eugene, *Race and History*, 70.
9. Keith, *l. c.*
10. Pittard, 311, Childe, V. G., *The Most Ancient East*, 26.
11. Andrews, R. C., *On the Trail of Ancient Man*, 309-12.
12. Skeat. W. M., *An Etymological Dictionary of the English Language*, 252, Lippert, 166.
14. Osborn, 270-1.
15. Lippert, 133.
16. Lowie, *Are We Civilized?*, 51.
17. Müller Lyer, *Social Development*, 99, Lippert, 130, S & K, i, 191.
18. Bulley. M., *Ancient and Medieval Art*, 14.
19. De Morgan, 197.
20. Spearling, H. G., *The childhood of Art*, 92, Bulley, 12
21. Osborn fig 166
22. N. Y. Times, Jan. 23, 1934
23. Bulley, 17
24. Spearling, 45
26. Renard, 86
27. Rickard, T.A., *Man and Metals*, i, 67.
28. De Morgan, x.
29. Ibid., 169; Renard, 27.
30. De Morgan, 172, fig. 94.
31. Pitkin, W.B., *A Short Introduction to the History of Human stupidity*, 53.
32. Carpenter, E., *Pagan and Christian Creeds*, 72; Lowie, 58, Ratzel in Thomas, *Source Book*, 93.
33. Lowie, 60.
34. Febure, L., *A Geographical Introduction to History*, 261.
35. Rickard, i, 81, Schneier, H., *The History of World Civilization*, i, 20.
36. Breasted, J. H., *Ancient Times*, 29.
37. Renard, 102.
38. De Morgan, 187.
39. Mason, O. T., *Origins of Invention* 154.
40. E.g. De Morgan, 226, fig. 135.
41. Renard, 79]
42. Lowie, 114, De Morgan, 269.
43. Renard, 112, Rickard, i, 77.
44. Georg, 105.
45. De Morgan 235, 240, Renard, 27 Childe, V. O., *The Dawn of European Civilization*, 129-38, Georg, 89.
46. Schneider, H., i, 23-9.
47. Ibid., 30-1.
48. Garrison, *History of Medicine*, 28, Renard 190.
49. Ricard, i, 84.
50. Ibid., 109, 141.
51. Ibid., 114.
52. Ibid., 118.
53. Rostovtzeff, M., in Coomaras-

- wamy, A. K., *History of Indian Indonesian Art*, 3.
54. *Cambridge Ancient History*, i, 103.
55. De Morgan, 126.
56. Rickard, i, 169 - 70; De Morgan, 91.
57. Rickard, i, 85-6.
58. *Ibid.*, 86.
59. *Ibid.*, 141-7; Renard, 29-30.
60. Mason, W. A. *History of Writing*, 313.
- 60a. CAH *Cambridge Ancient History*) i, 876.
61. Petrie, Sir W. F., *The Formation of the Alphabet*, in Mason, W. A., 329.
62. *Encyc. Brit*, i, 680.
63. Tylor, *Anthropology*, 168.
64. De Morgan, 257.
65. Breasted, *Ancient Times*, 42, Mason, W. A., 210, 321.
66. *ibid.*, 381.
67. *Encyc. Brit.*, i, 681.
68. Plato, *Timaeus*, 25, *Critias*, 113.
69. Georg, 223.
70. Childs *The most Ancient East*, 21-6.
71. Georg, 51.
72. Keith, Sir A., *N. Y. Times*, Oct. 12, 1930; Buxton, L. H. D., *The peoples of Asia*, 88.
73. CAH, i, 579.
74. *Ibid.*, 86, 96-1, 362.
75. Keith, I. e., Briffault, ii 507, CAH, i, 362, Comaraswamy, *History*, 3.
76. CAH, i, 85-6.

فهرس الأعلام

الألوت (قبيل) : ١٢٦
 ألفرد رسل ولاس : ٤٨
 الألوشيون (قبيلة) : ١٨٠ ، ٢٥
 ألونسوى أوجدا : ١٧٠
 أليّت شمث : ١٥٧
 أناتول فرانس : ٨٣
 أناطنة (جمع أنطون) : ٧
 أنقارسيس اليوناني : ٨٣
 أنا كسجوراس : ١٠٣
 أنتا فرنيز : ٥٨
 أنتجوننا : ٥٨
 أنجولا : ٧١
 أنجور : ١٥٤
 أندرو : ١٦١
 أندرو شمث (سير) : ١٤٣
 أندمان (جزائر) : ١٤٨٠ ، ٨٠
 إنكا : ٧٣
 أويتهير : ٤٤
 أوتيل ديبه (مستشفى في باريس) : ١٣٩
 أوجيوا (هنود) : ١٠٦
 أور : ١٧١
 أورجناسي : (عصر حجري) : ١٦٠ ، ٦
 ١٦٧ ، ١٦٢ ، ١٦١
 أورانج : ٦٦
 أورانج ساكاي : ٦٨
 أورانوس : ١٠١
 أوروونكو (هنود) : ١٤٦ ، ٧٥
 أوقند : (شاعر روماني) : ١٠٨
 أوقيانوسيا : ٢٦
 أوكلاهاما : ١٦٢
 أولفر وندل هولمز : (طبيب) : ١٣٩
 أونان : ٦٩

(١)

إبراهيم : ١١٤
 إيسن : ١٠١
 أبويانا (قبيلة) : ١٠٤
 أبيقور : ٩٨
 أبيكرتا (قبيلة) : ١٤٥
 أيبون (قبيلة) : ٩٨ ، ٨٨
 أثينا
 أراكوا (قبيلة) : ٢٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢
 ١٣٨ ، ١٠٦ ، ٥٩ ، ٤٨ ، ٤٢
 أراپاهو (قبيلة) : ١٢٤
 أرثر كيث (سير) : ١٧٢
 أرسطو : ٣٧
 أرنيج (في فرنسا) : ١٦٧
 أراتقة : ١٧
 أسام : ٨٠ ، ٥٨
 استراليا : ١١ ، ١٦ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٥٨ ، ٤٠
 ٧٧ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٢٥ ، ١٤٣
 ١٥١ ، ١٤٣
 اسخيلوس : ١٦٤
 اسكيمو : ١١ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٤٠
 ١٤٨ ، ٩٥ ، ٩١
 اشتر (إله) : ١٠٥
 آشور : ١٠٦
 أشولي (عصر حجري) : ١٥٩
 افجنيا (في أساطير اليونان) : ١١٤
 افروديت (إلهة) : ١٠٥
 الجريكو (فنان) : ١٦٧
 الجوتكن (قبيلة) : ٧٧ ، ١٣١
 الألب (جبال) : ١٥٦
 التاميرا : ١٦١٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦

بلمونيز . ١٠٣
 بلنداون (في إنجلترا) : ١٥٧
 بلجيكا : ١٧٣ ، ١٧٤
 بلستوسين- (عصر حجري) : ١٥٧ ، ١٦٠
 بليو (جزيرة) : ٥٩
 بندقية : ٤
 بندي (قبيلة) : ٨٨
 بنجو (قبيلة) : ١٤٤
 بنوك (مؤلف) : ١٤٣
 بوئوكودو (قبيلة) : ٦٨ ، ٢٤٥
 بورما : ٥٨ ، ٨١
 بورما العليا . ٨٠
 بورنيو : ١٦ ، ٣١ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٧٠
 بورودو (قبيلة) : ١٣٨
 بوزيدون : ١٠١
 البوشمن : ١١ ، ٢٦ ، ٤٠ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ٨٠
 بولس (القديس) : ٣٧
 بولينزيا : ١٢ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٨٠ ، ١١٠
 ١١٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٧٩
 البونيون (قبيلة) : ١١٣
 بومارشيه : ٧٩
 بوييلو (هنود) : ١٤٨
 بي (عالم أثيري) : ١٥٧
 بيوجت (خليج) : ٤
 پيري (رسالة) : ١١
 پيرو : ٦ ، ٣١ ، ٧٥ ، ١٣٨
 پيرلوق (كاتب فرنسي) : ٢٠

(ت)

تابو (التحريم) : ١١٨
 تاراهايو مارا (قبيلة) : ١٣
 تاهيتي : ١٢ ، ٢٠ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٨٠
 ١٣٢

لإيجوروت (قبيلة في الفلبين) : ٨٠
 ليمستر (جزيرة) : ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤٨٠

(ب)

بابار (أرخبيل) : ١١١
 بابل : ٤ ، ٦ ، ٢٦ ، ٦٧ ، ١٠٦ ، ٤
 ١٠٨
 باپوا (قبيلة) : ٥٨ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٨٧
 باجندا : ٤٦
 باخوس : ١١٢
 باخي : ١١٣
 بارونجا (قبيلة) : ١٤٨
 بالوندا : ٨٢
 بالي : ٨٣
 بان (إله عند اليونان) : ١٠١
 بانتو (قبيلة) : ١١٢ ، ١١٥
 بانجراتنج : ٨٨
 بايلا (قبيلة) : ٦٨
 بابين (في الصين) : ١٥٧ ، ١٦٢
 بترى : ١٨١ ، ١٨٢
 البداري (في مصر) : ١٧٧
 البرازيل : ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٦٩
 البرانس (جبال) : ١٥٦
 البرتغال : ١٦٩
 برچريه (شخصية في قصة) : ١٢٣
 برسويولس : ١٥٤
 بروكليز : ٦٠ ، ١٤٤
 برنتن : ٨
 برومسيوس : ١٦٤
 بريام : ١٥٤
 بريطانيا الجديدة : ٢٠ ، ٩٩ ، ١٤٣
 بريغو (مؤلف) : ٧٤ ، ١٤٣
 بريلي (الأب) : ١٥٧
 البطالسة : ٧٣٠
 بكنين : ٦ ، ١٥٧

جوايا كيل (هنود) : ١١٣
 جواراني (قبيلة) : ١٣٤
 جورجيا الجديدة : ٨٠
 حوثيه (شاعر فرنسي) : ١٤٥ ، ١٦٤
 جي (إله الأرض عند اليونان) : ١٠١
 جيرار (في فلسطين) : ١٨١
 جيوراج (مؤلف) : ١٤٥

(ح)

حوراب : ٥١ ، ٥٣

(خ)

خزير جادارين (قصة) : ١٣٧

(د)

دارا : ٥٨
 دارون : ٣٣ ، ١٠٦ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٦٤
 داماترا : ٦٨
 دامارا (قبيلة) : ١٣٥
 درافيد (قبيلة) : ١٠٦
 الدروديون (قبيلة) : ١٠٤
 دسلورف : ١٥٧
 دلاوير : ٤٠
 دلي : ١٣٢
 دلي : ٦٠
 دميترا (إله) : ١٠٥
 الدنكا (قبيلة) : ١٠٣
 دوردونى : ١٥٨
 دوسن (عالم أثرى) : ١٥٧
 ديك (قبيلة) : ٢٩ ، ٤١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ١١١
 دييون : ١٢٣

تاييس : ١٤٠
 تبت : ٦٨ ، ٧٠
 تحوت (إله مصرى) : ١٢٩
 تروبريانده (جزيرة) : ٥٧ ، ٩٣
 تسانيا : ٢٦ ، ٤٠ ، ١٢٥ ، ١٣٤
 تشهوا (قبيلة) : ٦١
 تشروكي : ٨٦
 تشكوتو (هنود) : ١٢٥
 تشوكوتين (في الصين) : ١٥٤ ، ١٥٧
 تشيتا جونج : ٣١
 تشيني (هنود) : ٨٧
 تكونا (قبيلة) : ١٢٤
 تلنجت (قبيلة) : ١٢
 تمبكتو : ٦
 لتنجيون (قبيلة) : ٤٠
 توارج (قبيلة) : ٨١ ، ٨٣
 لتوجو (قبيلة) : ٧٥
 تودا (قبيلة) : ٧٠
 تورس (خليج) : ١٤٥

(ث)

ثورو : ١٣٥
 ثودي (الأب) : ٢٥

(ج)

جارنر : ١٢٣
 جاك بوشيه : ١٥٤
 جاليلي : ١٥٧
 جيسلنده : ١٤٥
 جرينلنده : ٩٥
 الجزويت : ١٤٦ ، ١٦١
 جلوكويس : ١٠٨
 جيلوفش : ٤٤
 جوانج (قبيلة) : ١٦
 جوايكورر (قبيلة) : ٨٧

سبيل (إله) : ١٥٥
 سترابون : ٩٧
 سبل (خلنج) : ١٦١
 ستيو كار (عالم أثري) : ١٦١
 ستوسيج : ١٧٦
 سكولكرافت : ٨٥
 سكيب (مؤلف) : ١٢٥
 سليمان (جزر) : ٦٢
 سلين (إله عند اليونان) : ١٠١
 سمير : ٤٤ ، ٣٣
 السنغال : ٧٧
 سنكا (هنود) : ٥٩
 سوزا : ١٨١
 سوفت : ٢١
 سولزري (عصر حجري) : ١٦٠
 سومر : ١٨١
 سومطره : ١٧٠ ، ١١١ ، ٤٠
 السويوت (قبيلة) : ٧٩
 سيلان : ٩٨ ، ٨١ ، ٤٠ ، ٢٦

(ش)

شليمان : ١٥٤
 شجوليون : ١٥٥ ، ١٥٤
 شنيدر : ١٧٦
 شيلي (عصر حجري) : ١٥٩

(ص)

الصومال : ١٦١ ، ١٤٣ ، ١٣٣ ، ٧٥
 الصين : ١٣١ ، ١٠٩ ، ١٠٤ ، ٧٥
 ١٧٦ ، ١٦١ ، ١٥٩

(ط)

طوطم : ١٠٧ ، ١٠٦ ، ٩٨ ، ٤٠
 ١٣١ ، ١١٨

ديودورس : ١١٨
 دي مورجان : ١٦١
 دي كرسيني : ٦٦
 ديومديز : ٢٩

(ر)

راتسنهور : ٤٤
 راشيل : ٧٤
 رافا : ٦
 رتارد (رحالة) : ١٤٢
 رخ - مارا : ١٧٨
 رفرز (أستاذ) : ٣١
 روبهارون (في سويسرا) : ١٧٧
 رودبسيا : ١١٤
 روسيا : ٦٧ ، ٤٨
 رولي (مؤلف) : ١١٢
 روما : ٦
 ريكيه (كلب متفلسف في قصة) : ١٢٣
 ريناخ : ١٦٦
 رينان : ١٢٤

(ز)

الزولو (قبيلة) : ١١١ ، ٩٩ ، ٨٥
 زيلندة الجديدة : ١٤٤ ، ٥٣
 زيوس : ١٠٤

(س)

ساردينيا : ١٦٩
 سافنج (الدكتور) : ٦٦
 ساكرامنتو (نهر) : ١٦
 ساموا (قبيلة) : ٨٦ ، ٤١ ، ٣٢ ، ٣١
 ١٠٥
 الساموريون : ٥٨
 سينسر : ١٥٠ ، ١٣٤ ، ٤٧

(ق)

قرطاجنة : ٤ ، ١١٤ ، ١٥٤
قيصر : ٦٩

(ك)

كايتول : ١٥
الكاربيون (قبيلة) : ٩٥
كارتبييه (مؤلف) : ١٣٨
كارفر (كاتب) : ٣٢
كارولينا (جزيرة) : ١١٤ ، ١٣١
كالدونيا الجديدة : ٦٣ ، ١٣٢ ، ١٤٣
كاليفورنيا : ٥٠ ، ٨٥
كامبل ديمولان : ٤٤
كامبيتانا (إله عند أهل بريطانيا الجديدة)
١٠٠
الكامرون : ٩٨ ، ١٨٢
كامشادال : ٨٠ ، ٨٨
كاييه : ٧٧
كبلر : ١٠٣
كرو (قبيلة) : ٧٥
كرو - مانيون : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧
كريج (مؤلف) : ١١٣
كريت : ١٦٧
كريسوستم (قديس) : ٣٣
الكفير (قبيلة) : ٦٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ،
٩٢ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٢٧
كبرى (قبيلة) : ١٤٦
كنغو : ١١٢ ، ١٤٧
الكوبيون : ٤٠
كورفوفا (إله عند أهل بريطانيا) : ١٠٠
كوك (كاتب) : ١١٤ ، ١٤٦ ، ١٨١
كوليس : ٧٥ ، ١٨١
كولومبيا : ٢٦

(ع)

عزى : ١١٨
عيلام : ١٧٩ ، ١٨٢

(غ)

غافة الجديدة : ٢٨ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧٥
٧٦ ، ١٤٣ ، ١٧٠
غالا (قبيلة) : ١٠٧ ، ١٤٧

(ف)

فاجز : ١٠١
القال (قبيلة) : ١٠٤
فرانسز جولتن (سير) : ٦٨
الفراعة : ٧٣
فرانكلين : ٢٣
فريبيا (إلهة) : ١٠٥
فرويد : ١٠٧ ، ١٥٠
فريزر : ١١٦ ، ١٦٦
فضلات المطبخ : ١٦٩ ، ١٧٤
الغلاته (قبيلة) : ١٤٤
فلسطين : ١٦٢
فلورنسة : ٤ ، ٦
فزيولا : ١٧٠
فنلندة : ١٧٩
فوتونا : ٦٧ ، ٩٢
فولتير : ١
الفويجيون (قبيلة) : ١٨ ، ٢٠ ، ٣٣ ،
٤٠ ، ٥١ ، ٩٢ ، ١٠٤ ، ١٣٢ ،
١٤٦
فيجي : ٦٢ ، ٦٣
الفيداويون (قبيلة) : ٢٦ ، ٤٠ ، ٩٨

ماورى (قبيلة) : ٨٧ ، ٧٥
مايلتا (معد) : ٦٧
مجدلى (عصر حجرى) : ١٦١ ، ١٧٤
مجلس السبعة (عند هنود أو ماها) : ٤١
مدغشقر : ١٦ ، ٨٨
مرى (جزائر) : ٨٠
مرى (٣) : ٦٠
مصر القديمة : ٨٣ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،
١٠٩ ، ١١٨ ، ١٦٧
المكسيك : ١٧
مليار : ٨٠
مسلخ : ١١٤
ملقا : ٦٨ ، ١٠٤
مفيس : ٦
منحوپارك (رحالة) : ١٤٢
منشوريا : ١٦٩
المنغوليون : ١٠٤ ، ١٦١
الموت الأسود : ٧
موربهان : ١٧٦
موسى : ٥١ ، ٥٣ ، ٦٤
موسوليني : ١١٨
موسيرى (عصر حجرى) : ١٦٠ ، ١٦١
مولتيي : ٢١
موهنجو دارو : ١٥٤
ميلا فيزيا : ٢٠ ، ٣٢ ، ٥٧ ، ٧٥ ، ١٤٣
مينوس : ١٥٤
ميكرونيزيا : ٥٨

(ن)

نابليون : ١١٨ ، ١٥٤
نبرا كا : ١٦٢
نياندرتال : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٩٢ ، ١٦١
نيتشه : ٤٤
نيحريا : ٨٠ ، ١٢٦ ، ١٤٣
نينوى : ٢٩ ، ٤

كولين : ٩١
كوكى (قبيلة) : ١١٥
كوروان (الكتابة الصينية) : ١٣١
كونكوستادورس : ١٧

(ل)

لاتين (في سويسرا) : ١٨١
لاندر : ٧٦
لاوتسى : ١٣١
لپير : ٧٤
لترنو : ٦٩
لستر وورد : ٤٤
لفنجستون : ٨٢
لمنوس (جزيرة) : ١٦٤
اللتجوا (قبيلة) : ٨٨
لوبو : ٦٧
لوسكيل (رحالة) : ٣٣
لوسل (في فرنسا) : ١٦٧
لوكر يشس : ٩٩
لوى بيجوان (عالم أثرى) : ١٦٧
لويس مورجان : ١٢٤
ليزيا : ٣٢

(م)

مادزيل (في فرنسا) : ١٦٩
ماراسيبو (بحيرة) : ١٧٠
مارسليوئدى سنولا : ١٦٥
ماركاس : ٤٨
ماسون : ١٣١
ماركوبولو : ٦٩
مافوى (إله) : ١٠٥
الماكوزى (قبيلة) : ١١٩
ماليئوفسكى : ٥٧
مانا (في أساسير بولينزيا) : ١١٠

هيري (آلهة) : ١٠٨

(و)

وابونيا (قبيلة) : ١٤٧
وتمن (كاتب أمريكي) : ١٢٣
وودورد (عالم أقرى) : ١٥٧
ويلز الجديدة : ٢٦

(ي)

يابان : ٦ ، ٧٥ ، ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ،
١٣١ ، ١٦٨ ، ١٦٩
باريبا : ٧٦
ياقوت (قبيلة في سيبيريا) : ٦٨ ، ٩١ ،
١٧٩
يعقوب : ٧٤
يوانترويس : ١٥٧
يوپاشادا : ١٠٠
يوغندا : ٨٠
يوقطان : ٦ ، ١٥٤

نيويورك : ١٣٦

(ا)

هانوفر الجديدة : ١٤٣
هيردين الجديدة : ٦٢
هرمان ملقيل : ٤٨
الهملايا : ١٥٦
الهند : ٦٢ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٢٠٤ ، ١٠٦ ،
٢٥٩ ، ١٦١
الهند الأمريكيين : ٤ ، ١١ ، ١٧ ،
١٥ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٦٣ ،
٧٩ ، ٧٩ ، ٩٥ ، ٩٣ ، ٨٥ ،
١٢٤ ، ١٤٣
هواي : ٦٧
المونتنبون : ١١ ، ٣٢ ، ٧٧ ، ٩١ ،
١١٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥
هولستات (في النمسا) : ١٨١
هومر : ١٠٨
هيدلبرج : ١٥٧
هيروغليين : ١٣١ ، ١٣٢